مرآة الجزائر

Icars éditions

I.S.B.N: 978-9969-9927-4-8

Dépôt légal: Premier Semestre 2025

icarseditions@gmail.com

0774465958 / 035865297

Bordj Bou Arreridj - Algérie.

Première édition

Tous droits réservés

دار خيال للنشر والترجمة ©

تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور

برج بوعريريج - الجزائر-

0774465958

035865297

Khayaleditions@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشرين.

علي رضا باشا بن حمدان بن عثمان خوجه
(ت/1876م)

مرآة الجزائر

نقل النص إلى العربية وعلَّق عليه

د. خير الدين سعيدي

تقريظ كتاب مرآة الجزائر

لقد عوّدنا الباحث المُجدّ والأستاذ الكفء، الدكتور خير الدين سعيدي على إسهاماته التاريخية المفيدة في معلوماتها، الشيّقة في عرضها، القيّمة في منهجها، المجدّدة في مواضيعها؛ فكانت بكارة أعمال علمية سوف تمهّد الطريق لهذا الباحث الشاب المجتهد لولوج آفاق الريادة والتميّز في مجال البحث التاريخي تأليفا وتحقيقا وترجمة.

إنَّ الأستاذ الباحث خير الدين من الطلائع القليلة للجيل الصاعد من المؤرخين الذين فرضوا أنفسهم في مجال يصعب ريادته والتميّز فيه، في بيئة فكرية وأكاديمية أُهملت فيها المواصفات العلمية، وانعدمت فيها أو كادت الضوابط الأكاديمية، وغلب عليها الإسهام المتعجّل الظرفي والتناول السطحي في غياب أدوات التقييم الموضوعي وانعدام النقد الهادف والتقويم المنهجي خاصة في مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية.

ومع قد ما تبثّه هذه البيئة في النفوس من إحباط وفي العقول من عطب تخطى باحثنا المُجدّ الموانع المعرفية، والمناخ المثبط، والرداءة المتخفية، وداء الادعاءات الباطلة، والأحكام الجزافية، ففرض نفسه مع كوكبة من الباحثين الشباب من مختلف الجامعات الجزائرية الذين ينبأ عطاؤهم في مجال الدراسات التاريخية بعودة الوعي للنخب الأكاديمية الجزائرية حتى ترقى بالإسهام المعرفي والعطاء العلمي إلى مستوى الأعمال الجادة المُؤسسة لمدرسة جزائرية رائدة في ميدان العلوم الإنسانية عامة، وفي مجال الذاكرة والتراث والتاريخ الجزائري خاصة.

إن هذه الكلمات ليست إطراء أو تزكية، إنما هي استنتاج لما لمسته في الأستاذ خير الدين سعيدي من نباهة فكرية وحيوية معرفية، فضلا على ما لاحظته من امتلاكه وسائل البحث وتمتعه بطاقة علمية شحذها في الجامعات التركية والعربية التي تعامل ولا زال يتعامل معها. كما أن هذه الكلمة تهدف إلى تثمين

إسهامه في مجال الدراسات التاريخية وحقل الترجمة وميدان التعريف بوثائق الأرشيف والمخطوطات وتحليلها. ويمكنني أن أُشير في هذا الصدد إلى ما أمكنني الاطلاع عليه من أعمال الأستاذ خير الدين، وعلى رأسها:

- كتابه حول الأوبئة بعنوان "الأوبئة بالجزائر العثمانية خلال القرن الثامن عشر والثلث الأول من القرن التاسع عشر" والذي هو في الأصل رسالته لنيل شهادة الدكتوراه التي ناقشها في جامعة 8 ماي 1945 بقالمة، وطبعت في مركز التاريخ العربي للنشر سنة 2020 (وكان لي شرف تقديم عدد من الملاحظات لصاحبها قبل طباعتها)

- تحقيقه لكتاب "الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة" لابن رقية التلمساني الذي نشرته دار أوراق ثقافية في مدينة جيجل.

- وقبلها مقالته حول حملة "أوريلي على مدينة الجزائر سنة 1775 من خلال مخطوط الزهرة النائرة" والتي نُشرت في مجلة آفاق للثقافة والتراث عن مركز جمعة الماجد سنة 2015.

- وتحقيقه لمخطوط "نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات" الذي نشرته دار الأصالة سنة 2022.

- وبحث اطلعت عليه في طريقه للنشر بعنوان "أضواء جديدة على مواقف حمدان خوجة من المسألة الجزائرية من خلال مراسلتين إلى الباب العالي".

- ودراسته وترجمته لعدد من الوثائق الخاصة بالحصار الفرنسي للسواحل الجزائرية من اللغة العثمانية إلى العربية في مجلة أسطور للدراسات التاريخية في العدد الخامس عشر (يناير 2022).

- بالإضافة إلى كتاب آخر يشتغل عليه الباحث حول "مراسلات أحمد باي في الأرشيف العثماني"، وهو عبارة عن ترجمة وتحقيق وتعليق على عدد من مراسلات أحمد باي، إضافة إلى دراسة حول "موقف الدولة العثمانية من

طموحات أحمد باي لحكم إيالة الجزائر" منشورة في مجلة الدراسات العربية بجامعة إسطنبول.

- وكتيبه بعنوان "كيف فككت القومية الدولة العثمانية" ضمن سلسلة كتاب الجيب لدار الوطن والذي نشر سنة 2017.

- وكتابه بعنوان "حمدان خوجه الفقيه الدبلوماسي" ضمن سلسلة أعلام الجزائر، والذي طُبع بدوره في دار الوطن للنشر سنة 2023.

وآخر أعمال الباحث خيرالدين سعيدي كتاب" مرآة الجزائر" لعلي رضا باشا بن حمدان خوجة المتوفى سنة 1876، وهو ترجمة للنص العثماني مع ضبط له وتعليق عليه. ومادام هذا الكتاب الأخير "مرآة الجزائر/ مرآت الجزاير" هو موضوع تعريفنا هذا، توجب علينا التعريف بمؤلفه ومحتواه وطبيعة المعلومات التي تضمنها.

فالمؤلف علي رضا هو ابن حمدان خوجه صاحب كتاب المرآة الشهير والذي وُضعت له ترجمتان من الفرنسية إلى العربية، إحداهما للأستاذ محمد بن عبد الكريم الزموري في بيروت سنة (1972) والأخرى للأستاذ محمد العربي الزبيري في الجزائر (1975).

وقد ولد ابنه علي رضا في مدينة الجزائر سنة 1820/1236 وزار مع ابيه باريس سنة 1833 وتكفَّل به السفير العثماني في فرنسا "مصطفى رشيد باشا" وأدخله مدرسة الجوقة الفرنسية بباريس ليتخرج منها برتبة يوزباشي في سلاح المدفعية واستقر بإسطنبول التي نفي إليها والده حمدان خوجه سنة 1836. وتولى العديد من المهام العسكرية في الجيش العثماني، وعيّن في وظائف إدارية سامية في الدولة العثمانية، منها محافظ بلغراد سنة 1866، ووالي طرابلس الغرب، ووالي بورصة. كما نال العديد من أوسمة الشرف، وظل على ارتباط روحي بوطن أجداده الجزائر التي زارها سنة 1839، وإن ظل مخلصا للدولة العثمانية التي انتسب إليها إلى أن وافته المنية سنة (1876/1293).

يُنسب لعلي رضا باشا تسجيل رحلة من مدينة الجزائر إلى قسنطينة عبر المناطق الجبلية في خريف سنة 1832 مع والده حمدان خوجه في مهمة للتفاوض مع الحاج أحمد باي قسنطينة بمبادرة من القائد الفرنسي الدوق دو روفيغو Duc de Rovigo التي ترجم نصها ف.دو. صولسي F. De Saulcy ونقل نصها المترجم إلى العربية كل من "علي تابليت" و"عميرواي حميدة".

أما التأليف الذي بين أيدينا لعلي رضا باشا مرآة الجزائر، والذي يقع في قرابة 122 صفحة بالآلة الراقنة ضمنها 5 ملاحق، فقد ألفه صاحبه باللغة العربية وضاع أصله العربي الذي كان علي شوقي قد بادر بترجمته إلى العثمانية سنة 1293/ 1876.

يتضمن كتاب المرآة ثمانية عشر فصلا آخرها مخصص للتعريف بالمؤلف (علي رضا). وقد تضمنت هذه الفصول أحداث تاريخ الجزائر منذ القدم، مع التركيز على المرحلة الحديثة من تاريخ الجزائر (1512-1847) التي ارتبطت فيها الجزائر بالدولة العثمانية، فعرف بتاريخ الجزائر ومكانتها وعلاقاتها الدولية وتعرضها للغزو الفرنسي، وتحولها إلى ميدان معركة مع الجيش الفرنسي نتيجة مقاومة الجزائريين بزعامة الحاج أحمد باي قسنطينة في الشرق والأمير عبد القادر في الغرب، مع ذكر بعض حكام الجزائر في العهد العثماني (الباشوات-الدايات) والتعريف بشخصيات جزائرية. كما تطرق إلى ما تعرض له الجزائريون من اعتداءات على يد الجيش الفرنسي الذي نكث ما كان قد التزم به من شروط عند احتلاله مدينة الجزائر سنة (1830)

تكمن أهمية كتاب مرآة الجزائر لعلي رضا في تنوع معلوماته وفي طريقة عرضها التي تعكس وجهة نظر المؤلف وتظهر موقف الدولة العثمانية من المسألة الجزائرية، والذي اتصف بالضعف والانكماش إزاء السياسة الاستعمارية لفرنسا في الجزائر.

أما من حيث قيمة المعلومات في حد ذاتها فهي مختصرة وعامة، أغلبها مقتبس من كتب عثمانية أو تآليف فرنسية عن تاريخ الجزائر، وهذا ما يجعل كتاب مرآة الجزائر لعلي رضا يندرج في خانة الكتابات التاريخية الموجهة للجمهور الواسع، فهو يهدف أساسا إلى التعريف بأوضاع الجزائر والتصرفات العدوانية للإدارة العسكرية الفرنسية فيها.، بيد أنه جاء خال من الإحساس الوطني للجزائريين، يعبر عن موقف الدولة العثمانية المتخاذل، رغم تطلع الجزائريين لمساندتها لهم كما أشار إلى ذلك في كتابه.

وعلى كل حال فإن كتاب المرآة لعلي رضا يندرج ضمن الكتب العامة التي تسجل الأحداث اعتمادا على مشاهدات شخصية أو اقتباسات من كتب تاريخية هامة من قبيل كتاب: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر لمحمد بن عبد القادر، وكتاب المرآة لحمدان خوجه، والتي اكتفت بسرد الأحداث والإشادة بالبطولات، لكنها لم ترق إلى فهم طبيعة المشروع الاستعماري الفرنسي أو التعبير عن موقف الجزائريين من عملية الغزو، فجاء الكتاب تعبيرا عن موقف النخب الجزائرية الموالية للدولة العثمانية أكثر من كونه تعبيرا عن تطلعات الجزائريين وآلامهم تحت نير الاحتلال.

ورغم ذلك فإن كتاب مرآة الجزائر لعلي رضا باشا يعتبر إضافة ثرية لرصيد التاريخ الجزائري الحديث في ترجمته العربية بعد أن ظل مغيبا أو في حكم المجهول، فأعادت الترجمة الحياة إلى الكتاب بلغته العربية الأصلية بأسلوب معبر شيق، وعرض سلس، وتعليقات مفيدة، وشروح دقيقة، أضفت على النص المترجم من التركية إلى العربية قيمة علمية وأكسبته صبغة أكاديمية أكيدة.

فهنيئا للأستاذ الباحث خير الدين سعيدي على ثمرة جهده وتميز إسهامه في خدمة التاريخ الجزائري، ووفقه الله إلى تقديم المزيد من الأعمال العلمية النوعية وإلى النجاح في مشاريعه التاريخية الواعدة.

أ.د. ناصر الدين سعيدوني

بوزريعة 6 فبراير 2024

تقريظ

مما لا شك له ولا ريب معه أن الترجمة كانت ولازالت مفتاحا لنقل العلوم والمعارف وتقاسُمِها بين الأمم. وفضلا عن ذلك، كانت خطوة في طريق النهضة العلمية الكبرى في العالم الإسلامي عندما انطلقت حركة ترجمة التراث العالمي للمعارف الإنسانية من اللغات الفارسية واليونانية والآرامية والقبطية والسنسكريتية إلى العربية في العصر العباسي في مشرق العالم الإسلامي. وتلا ذلك ترجمة التراث العربي إلى اللغات الأوربية انطلاقا من مغربنا الإسلامي وصقلية والأندلس. فكانت هذه الترجمات خطوة رائدة نحو النهضة الكبرى التي شهدتها الحضارتان الإسلامية في العصر العباسي والأوربية في عصر النهضة وما تلاها.

وفي مجال التاريخ يتقاسم العالم العربي أربعة قرون من تاريخه مع العالم العثماني الذي امتد من شبه جزيرة القِرم شمالا إلى اليمن جنوبا، ومن عراق العرب شرقا إلى تلمسان الجزائر غربا. وفي هذا الفضاء شهد العالم الإسلامي والعربي حوادث مهمة صنعت حاضره في حينه، وتساهم في صناعة مستقبله الذي نعيش عليه اليوم. وقد تمتد آثاره إلى عهود متطاولة مستقبلا.

وهذه الأحداث التي أصحبت تاريخا ماضيا دونت باللسانين العربي والعثماني، ولا زالت دراسته مستمرة إلى اليوم باللغتين العربية والتركية الحديثة، واشترك أيضا في التأريخ لها وتحليلها مؤرخون أجانب بمختلف اللغات الأوربية. إلا أن المؤسف في هذا هو أن الباحث والقارئ العربي بإمكانه أن يطلع على مختلف الدراسات والبحوث والتصانيف المدونة بمختلف اللغات الأوربية، باستثناء ما تم تدوينه باللغة العثمانية القديمة أو التركية الحديثة. وكذلك الحال بالنسبة للباحث والدارس التركي نراه عالة على ما تَسْطُرُه أقلام الكتابات الغربية في معرفة كل ما كان يعتبر فضاءً عثمانيا، مما كان يعرف بالإيالات العربية بالأمس. وهكذا صرنا نقرأ تاريخنا المشترك إما من مصادره العربية أو من مصادر أوربية دونت بأقلام القناصل الأجانب أو ملاحظات

الرّحّالة ومذكرات الأسرى وموظفي الإدارة الاستعمارية أو تقارير الجواسيس ورجال الدين النصارى. وهذه المصادر بالرغم من أهميتها القصوى لكونها تعكس نظرة الآخر إلينا وإلى تاريخنا، إلا أنها أن مؤلفيها – فضلا عن تَحَيُّزِهِمْ في عَرْضِ أحداث تاريخنا – لا يمكنهم أن يستوعبوا أو يدركوا أبعاد وخلفيات الكثير من المواقف المنبثقة عن الانتماء الديني والثقافي التي تدفع المسلم أو العربي إلى اتخاذ هذا الموقف أو ذاك. فالأجنبي في الدين واللغة والثقافة يبقى أجنبيا في قراءته وفهمه لأحداث تاريخنا مهما كان قريبا منها أو حتى طرفا فيها.

ولا ريب أن غياب المصادر المدوَّنَةِ باللغة العثمانية مما يتعلق بتاريخنا قد أثَّر بشكلٍ هائل على مُخْرَجَات البحث التاريخي المتعلق ببلادنا، مما أدى إلى الإبقاء على منطقة الظل واسعة فيما يتعلق بالكثير من تفاصيل الأحداث التي عرفتها بلادنا. ولكي نتمكن من توسيع دائرة الضوء التي تجعلنا نرى تفاصيل تاريخنا بشكل أكثر وضوحا علينا أن نجعل المصادر العثمانية ضِمْنَ المصادرِ الأساسيةِ ذات الأولوية القصوى بالإضافة إلى المصادر المحلية، تليها المصادر الأجنبية فيما يتعلق بالعلاقات البَيْنِيَّةِ مع ممالك أوروبا، أو لمعرفة نظرة الأوربي لتاريخنا.

ولا ريب أن هذا لا يتحقق إلا أن يكون ذلك مشروعا استراتيجيا تشارك فيه العديد من المؤسسات الرسمية والجَمْعَوِيَّةِ والوقْفِيَّةِ والخاصة. وذلك بأن يساهم الجميع في تشجيع ودعم حركة الترجمة للمصنفات ذات القيمة العلمية الكبيرة، والمدونة أساسا باللغة العثمانية والتركية إلى اللغة العربية. سواء في ذلك المصادر التاريخية التقليدية، وكتب الرحلات والوثائق الأرشيفية والمراسلات الرسمية، والشخصية، وغيرها. وبغير ذلك نبقى عالة على الأجانب في معرفة تاريخنا، وتبقى نظرتنا ضبابية تشوبها الحيرة والشك في كل ما كتب عنا.

وفي سياق الحديث عن أهمية ترجمة المصادر العثمانية إلى اللغة العربية يأتي الإنجاز العظيم الذي قام به الدكتور خير الدين سعيدي، بتعريبه لكتاب " **مرآة الجزائر** " لعلي رضا أفندي، وجعله في متناول أيدي الباحثين الجزائريين خاصة والعرب عامة. وهو بهذا الإنجاز العظيم يكون قد أضاف لبنة مهمة في حركة تعريب التراث العثماني المتعلق بالجزائر.

في اعتقادي الكتاب يكتسي أهمية كبيرة وخاصة لاعتبارين مهمين على الأقل: أولهما: كون الكتاب الأصلي والمُدَوَّنِ أساسًا باللغة العربية يُعَدُّ حتى هذه اللحظة في حكم المفقود، ولا سبيل إلى الاطلاع عليه في نسخته الأصلية إلا من خلال النسخة التركية التي حفظت لنا محتواه مترجما إلى التركية العثمانية. فجاءت ترجمة الدكتور خير الدين سعيدي لتعيده إلى أصله العربي اللائق به.

وأما الاعتبار الثاني: فهو أن مؤلف الكتاب علي رضا أفندي كان معاصرًا للكثير من الأحداث التي أوردها في كتابه هذا وشاهدًا عليها أو راويًا لها عمّن شهِدها. وبالتالي فإنَّ إيرَادَهُ لها يعطيها قيمة تاريخية وعلمية إضافية، تجعله في مَصَافِّ المصادرِ الأصليةِ المترجَمة إلى العربية.

أجدد شكري وتقديري للدكتور خير الدين سعيدي على ترجمته لهذا السِّفْرِ المهم، متمنيا له ألا يتوقف عنده ولا يكتفي به. بل آمل أن يعطي تعريب ما تصل إليه يده من كل ما كتب عن تاريخنا الحديث باللغتين العثمانية والتركية أهمية قصوى وأولوية كبرى.

أ.د. محمد دراج

الجزائر 18 يناير 2023

مقدمة المترجم

ترجع أول معرفتي أو سماعي بهذا الكتاب إلى سنة 2014 عندما استفدت مِن منحة من الدولة التركية لإتمام دكتوراه في التاريخ العثماني بجامعة اسطنبول، وقد كانت معرفتي بالكتاب عن طريق شيخي سامي غرمول في إحدى المكالمات الهاتفية، حيث نبهني إلى إمكانية أن يكون هناك كتاب أو أثر لـ"علي رضا أفندي" صاحب الرحلة من الجزائر إلى قسنطينة التي ترجمها الأستاذ علي تابليت بإحدى المكتبات التركية، وحثَّني على بحث هذا الأمر، وحياءً مِن شيخي بدأت فعلا رحلة البحث عن الأثر، وطلبت حينها من الصديق العزيز عبد الرزاق خضير -الذي كان قد سبقني بسنوات لتركيا- أن يمدني بمعلومات عن أي أثر لكتاب علي رضا أفندي، وأخبرني أنَّه بالفعل كان قد اطَّلع على نسخة مِن كتاب المرآة لعلي رضا أفندي في مكتبة إيسام (مركز البحوث الإسلامية) لكنه عندما سأل عنها مِن جديد لم يجدها.

كانت هذه الخطوة الأولى في مسار البحث عن الكتاب وإخراجه، رجعت إلى المكتبة وبحثت كثيرا عن النسخة المذكورة لكني لم أوفق للعثور عليها فاستفسرت عمال المكتبة، وبعد جهد كبير وجدناها ضمن ملف آخر غير مفهرسة؛ وطلبت مباشرة نسخة من الكتاب، سعدت كثيرا بحصولي على نسخة مصورة من الكتاب في صيغته العثمانية أو في ترجمته الأولى من اللغة العربية إلى اللغة العثمانية، لكن معارفي باللغة العثمانية أو التركية القديمة كانت ضئيلة وكنت حينها في بدايات تعلمها لذا لم أُقرِّر ترجمته حينها، وإنما حاولت الاستفادة من النسخة في تنمية معارفي اللغوية باللغة العثمانية.

وأثناء دراستنا للغة العثمانية في جامعة إسطنبول كان الأستاذ حينها كلف كل واحد مِن الطلبة الباحثين بنقل نصوص مِن اللغة العثمانية إلى اللغة التركية، وأعطى كل واحد منا نموذجا أو صفحات من كتاب محدد ليشتغل عليه، فتذكرت حينها كتاب "المرآة" لعلي رضا باشا، واقترحت على الأستاذ أن

أقوم بنقل بعض النصوص منه إلى اللغة التركية الحديثة، ما كان يعني بالنسبة لي القيام بما يطلبه الأستاذ من جهة، والاستفادة مما يورده صاحب الكتاب بخصوص الجزائر من جهة أخرى. استحسن الأستاذ الفكرة ولم يعترض عليها لذا شرعت في نقل نصوص الكتاب من العثمانية إلى التركية.

لما أنهينا الفصل قدّم لي أستاذ اللغة العثمانية نسخة من كتاب "المرآة" الذي اشتغلت عليه منسوخة باللغة التركية، وشجعني بكلمات طيبة حول ترجمتي إلى اللغة التركية وأخبرني أنّ ما كنت أقدمه من ترجمة أو نقل العثمانية إلى التركية كان جيدا ثمَّ سألني عن نسخة الكتاب بالعربية، فأخبرته أنَّه لا توجد نسخة للكتاب باللغة العربية مع الأسف فاستغرب ذلك وألزمني بالاشتغال على نقل النسخة التي بين يدي إلى اللغة العربية وأخبرني أن ذلك أمانة في عنقي. لم يكن الوقت ولا الجهد ولا مستوى اللغة العثمانية عندي يعينني على ذلك، لذا لم انشغل بالفكرة كثيرة. لكن بعد قرابة السنة من نهاية فصول الدراسة في الجامعة أي سنة 2017م كنت قد تفرَّغت قليلا، وكانت لغتي العثمانية في تطور، حتى أن بعض أساتذتي في الكلية كانوا يكلفونني بقراءة النصوص في لغتها العثمانية مع طلبتهم في الليسانس والماستر، وبدأت فكرة نقل الكتاب إلى العربية تتجدَّد، كنت أترجم صفحات من كتب مختلفة من العثمانية إلى العربية بشكل خاص لي مِن أجل التدرب فقط. وكانت النقطة الفاصلة التي بدأت فيها ترجمة الكتاب فعليا هي منتصف سنة 2017 عندما أتى إلى إسطنبول أحد جيراننا وهو عمي "بوبكر خلوف" مِن مدينة العلمة للتداوي مِن مرض السرطان -عفاكم الله- في إحدى المستشفيات في ضواحي مدينة إسطنبول، وكانت تجمعني به علاقة طيبة به وبأبنائه، فكنت استغل الوقت في الطريق لزيارته في المستشفى الذي يقيم فيه في ترجمة بعض نصوص كتاب "المرآة"، وكان عمي "بوبكر" يمازحني بالقول: "كاش كتاب جديد" وكنت أتحجج بعدم وجود الوقت ولعل تلك الكلمات هي التي زادت في رغبتي في أن

تكون ترجمة "المرآة" هي الكتاب الجديد الذي كان يسألني عنه عمي بوبكر رحمه الله.

أتمتت أجزاء من الكتاب نقلا من النسخة التركية التي أهداني إياها أستاذ مقياس اللغة العثمانية، لكن عندما كنت أقارنها بالنسخة العثمانية أجد فيها بعض الأخطاء فأناقشها مع الصديق "عبد الصمد طيبي" الذي كان يحضر حينها ماجيستير فلسفة في جامعة إسطنبول (يحضر حاليا دكتوراه فلسفة في القسم ذاته في الجامعة) وكانت معارفه في اللغة التركية قوية جدا، لذا لما وجدني أقف على أخطاء اللغة التركية اقترح علي أن أترجم مِن النسخة العثمانية أوَّلاً ثمَّ أقارنها بالنسخة التركية وهو ما حدث فعلا. وحدَّثت الأستاذ العزيز "محمَّد دراج" حينها عن مشروعي لنقل الكتاب إلى اللغة العربية فشجعني على ذلك وقال يجب أن يكون باكورة أعمالك، ثمَّ أتت سنة 2018 وكنت قد أنهيت ترجمة الكتاب مِن اللغة العثمانية لكن لم يسمح لي الوقت بمقارنة الترجمة مع نسخة اللغة التركية كما تقرر؛ لذا قرَّرت أن أقدِّم دراسة وافية عن الكتاب تكون تمهيداً للكتاب عندما أنوي طباعته، وهو ما حدث فعلا في هذه السنة بحيث قدَّمت أوَّل دراسة وافية عن الكتاب وعرفت به وبصاحبه ونُشرت هذه الدراسة في مجلة العلوم الاجتماعية التابعة لجامعة سطيف 2 وكان أساتذة أفاضل وإخوة أكارم قد قاموا بمراجعة نسخة هذه الدراسة وتنقيحها قبل النشر أذكر منهم الأستاذ "خليفة حماش" والأستاذ "فارس كعوان" حفظهم الله كما راجع نسختها شيخي "سامي غرمول" وثلَّة مِن الأصدقاء في إسطنبول منهم: حذيفة جباري وعبد الصمد طيبي وعمر بوعشة ومحمود بن راس وأمين دخيسي وأمير بن ساعن ومنير سواس ممن تحضرني أسماءهم.

كانت الترجمة حينها جاهزة للنشر، لكنها كانت تستلزم تفرغ لثلاثة أو أربعة أشهر لأجل ضبط العمل ومراجعته وتدقيقه، وبحكم العمل الذي كنت مرتبط به في مركز إفريقيا للتنسيق والتعليم في إسطنبول وكثرة المشاغل والارتباطات

الأسرية والإقامة خارج الجزائر، بالإضافة إلى وجود عدد من المشاريع العلمية الأكاديمية العالقة حينها مثل كتاب "الأوبئة في الجزائر العثمانية" وكتاب "نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات" وكتاب"حمدان خوجه الفقيه الدبلوماسي" تأخّرت عودتي لنسخة هذا الكتاب للمراجعة والتنقيح، كما كانت متطلبات مناقشة رسالتي دكتوراه مختلفتين تماما في الموضوع وفي اللغة ما بين سنوات (2019-2023) سببا في تعطل إصدار هذا العمل بحلته التي بين يديك إلى الآن.

ولأجل أن يكون نص الكتاب حاملا لحمولات الزمن الذي أُنتِج فيه فقد آثرت استخدام مُصطلحات عصره، في محاولة مني لأجعل القارئ يعيش روح النَّص المُترجم، لذا ستجدني استخدم مثلا مُصطلح "كور" والتي يقصد بها القذيفة المدفعية في تلك المرحلة، واستأنس باستخدام مصطلح "المدفعجي/الطوبجي" دلالة على مَن يشتغل في قسم المدفعية في الجيش وأسمي الجنود الفرنسيس بـ"عساكر الفرنسيس" بلغة تلك المرحلة، كما استخدم لفظ "الكاهية" بدل النائب للدلالة التي يحملها اللفظ الأوَّل خلال تلك المرحلة، بل لعل كلمة النائب خلال تلك المرحلة تبدو دخيلة وتُفقد النَّص روحه، كما فضلت أن أنحو في اختيار العبارة ما كان مستخدماً خلال تلك المرحلة فأقول «..وكانت بداية ولايته...» وأقول : «...مِن ساعتهم أركبوا العزاب من الترك في السفن...» بدلاً مِن أن أقول: «.. وعلى الفور قاموا بإركاب الرجال العزاب من الترك في البواخر وإرسالهم إلى بلادهم...» مع أنَّ المعنى واحد إلاَّ أن اللغة في العبارة الأولى تبدو بأقرب إلى المرحلة الزمنية محل كتابة الكتاب. وهذا في محاولة للحفاظ على روح الكتاب. أما باقي أجزاء الكتاب خاصة منها الدراسة والتعريف بصحاب الكتاب فإني حاولت فيها الاختصار لأن هذا الكتاب يصلح للقارئ المتخصص وهو صالح للقارئ العام الذي قد لا تعنيه الكثير من التفاصيل ودقائق الأمور، ولعلي أعود في طبعة لاحقة إلى تقديم هذا العمل في حلة أكثر أكاديمية وبتفصيل أكثر في قابل الأيام.

ولا يسعني في خاتمة هذه المقدمة إلاّ أن أتقدم بشكري الجزيل لكل مَن ساهم في مراجعة وتدقيق ومناقشة ما ورد في هذا الكتاب وعلى رأسهم شيخي سامي غرمول حفظه الله الذي يحرص على مراجعة كل أعمالي العلمية ويحثني دائما على المزيد من الجهد والعمل، كما لا يفوتني أن أقدم كامل شكري وتقديري لأستاذي وأستاذ الجيل البرفيسور ناصر الدين سعيدوني الذي أسبغ علي كرمه بقبوله تصدير هذا الكتاب بكلمة منه ترفع من شأن الكتاب وقيمته كما لا يمكنني أن أتجاوز تقديم شكري وجزيل امتناني للأستاذ الدكتور محمَّد دراج على مراجعته لنص هذه الترجمة وتدقيقه إيَّاها، وعلى تشجيعاته وتحفيزاته المتواصلة لي لإكمال العمل ونشره، كما لا يمكنني الحديث عمَن أدين لهم بإخراج هذا العمل دون ذكر أستاذي فارس كعوان على ملاحظاته القيمة لتجويد هذا العمل وتعليقاته الدقيقة بخصوص ما كان يعتريه من نقص أو هفوات، والأستاذ خليفة حماش الذي أعانني بقراءة مسودة الدراسة قبل نشرها من سنوات، والذي سبقني بنشر ترجمة لذات الكتاب

وهو بسبق حائز تفضيلا مستوجبٌ ثنائي الجميلا

والله يقضي بهبات وافرة لي وله في الدراجات الآخرة

كما لا يمكنني أن أنسى تقديم كل الشكر للصديق الدكتور الصالح بن سالم على تخصيصه جزءاً هاما مِن وقته لأجل مراجعة مُسودة هذا العمل ولأجل حثه لي في أكثر من مرة لإخراج الكتاب للنور وحرصه على تقديم اقتراحاته وملاحظاته.

كما لا يفوتني أن أشكر بكل محبة وأُخوَّة الصديق العزيز والأخ الكبير الدكتور "حسين بوبيدي" على وقوفه معي خلال مراحل فتور همتي ووقوعي في عدد من المثبطات بالتشجيع والدعم المعنوي لإكمال هذا العمل وغيره مِن الأعمال فله ولجميع الأفاضل الذين ذكرتهم وللكثير ممن نسيته في هذه الكلمة كل الشكر والتقدير وعظيم الامتنان والمحبة.

فُرغ منه يوم الخميس التاسع من محرم 1446هـ/الموافق لـ 27 جويلية 2023م مكتبة مسجد علي بن أبي طالب قوطالي/ العلمة الجزائر.

مُفتتح الدراسة:

أحد أهم الشروط التي ستُمكننا من فهم تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني بالشكل الصحيح هو المصادر التاريخية الخاصة بهذه المرحلة، ولعل اتفاقا عُرفيا يجب أن يوجد بين المؤرخين والباحثين حيال ضرورة الاشتغال بإحياء التراث التاريخي أينما كان وكيفما وجد السبيل لذلك، فإن تقرَّر هذا فمن الواجب أن نصرف القول أنَّ لكلِّ مصدرٍ تاريخي: مادي، أو معنوي. أهمية كبيرة في بابه، لذا وجب بعثه والتعريف به، بما يتيح للباحثين الاستفادة ممَّا قد يضيفه هذا المصدر من معلومات أو معطيات لأي بحث.

اليوم نأتي على ذكر نموذج لتلك المصادر وهو يتعلَّق بتاريخ الجزائر في المرحلة الممتدة ما بين (1512م-1847م)، ونقصد به كتاب "مرآت الجزاير" كما يُعرف في اللغة التركية العثمانية. هذا الكتاب صنفه "علي رضا باشا ابن حمدان بن عثمان خوجة" ونشره في استنبول كما سيأتي بيانه، وهو أحد الجزائريين الذين أُجبِروا بعد الاحتلال الفرنسي؛ على الهجرة من الجزائر، ظل الكتاب الذي صنَّفه علي رضا باشا محل الطي والنسيان (حتى لا نكاد نجده يُعرف بين المصادر التاريخية)، ولعل هذا راجع إلى أنّ الكتاب ظل حبيس اللغة التي تُرجم إليها، إذ أنّنا نقف على الكتاب في الثُلْث الأخير من القرن التاسع عشر باللغة العثمانية، وظلَّ كذلك إلى غاية بداية الألفية الجديدة، إذ نجده نُقِل إلى اللغة التركية الحديثة، بينما كُتب عليه أن يبقى مفقودا باللغة العربية.

والمصدر الذي بين أيدينا هو أحد أهم وأثرى مصادر تاريخ الجزائر خلال مدّة طويلة تمتدُّ مِن بداية الوجود العثماني في الجزائر إلى غاية نهاية مقاومة الأمير عبد القادر، مع ضمه بين جانبيه تراجم لعَدَدٍ من باشوات الجزائر خلال الفترة المتأخرة من العهد العثماني، وإنما أتينا على ذكر هذا حتى نقول أنَّ الورقةَ التي بين أيدينا لن تحيط بكل ما ورد في هذا المصدر ولن تعلق على كل ما أورده علي رضا باشا، فما هي إلاّ توطئةً لإخراج المصدر كاملا فيما هو قادم بنقله مِن العثمانية إلى العربية وتحقيق ما ورد فيه.

"مرآة الجزائر" في حقيقته مُصنَّفٌ صغير الحجم، غير أنّه غنيٌّ بكم المعلومات التي نجدها فيه، والتفاصيل التي يُورِدها. فما هي المحاور الكبرى الذي أُدرجها مؤلفه علي رضا باشا؟ وإلى أي مدى استطاع صاحبه نقل صورة حقيقية عن تاريخ الجزائر؟ هل نجح علي رضا باشا في تصوير ما حدث خلال الاحتلال الفرنسي للجزائر بشكل دقيق؟ وما الوقائع التاريخية التي ركز عليها في الكتاب؟ أو تجاوزها وأهمل ذكرها؟ هل للكتاب قيمة إضافية مُعتبرة فعلا أم أنّ أهميته تكمن في جزئيات ما بعينها؟ وأخيرا هل ألَّف علي رضا باشا كتابه لجهة محدَّدة كما فعل والده "حمدان بن عثمان خوجة" أم أنَّه كان للجميع؟

هذا ما سنحاول أن نجيب عنه في هذه الدراسة، معتمدين في ذلك على المنهج السردي. ثمّ سنقارب النّص من خلال المنهج التحليلي لتبيين بعض الأمور وتوضيح الصورة التي قد لا نجدها في الكتاب، وقد استغنينا عن استخدام المنهج المقارن في هذه الدراسة بين ما ورد في المصدر وغيره (كما جرت العادة في مثل هذه الدراسات) حتى لا نثقل هذه الدراسة بالتفاصيل. قسمنا عملنا في هذا الكتاب إلى قسمين أساسيين هما قسم الدراسة وقسم الترجمة وقد جاءت الدراسة في ثلاثة مباحث أساسية: أولها التعريف بصاحب الكتاب. في حين خُصِّصَ المبحث الثاني للتَّعريف بالكتاب محل الدِّراسة أما المبحث الثالث فتناولنا فيه محتوى الكتاب. أما عملنا في قسم الترجمة فقد اقتصر فيها على نقل النص من اللغة العثمانية إلى اللغة العربية مع التدخل نادرا في توضيح بعض ما قد يعتريه الغموض أو تصحيح بعض الهفوات التي وقع فيها المؤلف لكن ضمن الهامش لا المتن. كما قمنا بترجمة وتفصيل بعض المسائل التي تحتاج لذلك.

المبحث الأول: التعريف بصاحب الكتاب

أولا: مولده ونشأته

لا نقف في المصادر العربية على معلومات تخصُّ حياة صاحب كتاب «مرآة الجزائر» علي رضا باشا، إذ أنّ معظم ما وقفنا عليه هو قراءة في الكتابات القليلة التي ورد فيها الإشارة إلى صاحب الكتاب: سواء بطريقة مباشرة، أو بطريقة غير مباشرة. وكثيراً ما كانت هذه المضامين مرتبطة بذكر والده "حمدان بن عثمان خوجة" أو ذكر علي رضا باشا ضمن المظان الأرشيفية من خلال ذكر ما كان قد تحصل عليه من منح مالية أو مناصب قيادية شغلها داخل الدولة العثمانية.

وبناء على ما سبق نقول أنّ صاحب الكتاب كما ذكر في ورقة العنوان هو "علي رضا باشا" كما نقف عليه في تصنيف الدولة التركية لوثائق الأرشيف العثماني بشكلين، أحدهما "علي رياض باشا" (Ali Ryaz Paşa)[1] أمَّا الثاني فهو ما نقف عليه داخل الوثائق نفسها باسم "علي رضا باشا (Ali Rıza Paşa) ولد بمدينة الجزائر سنة (1820م) حسب ما أورده (علي شوقي)[2]، وهو ما يُفهم أيضا من حديث علي رضا باشا عن نفسه في موطن واحد بشكل ضمني في كتابه الذي بين أيدينا، فيفهم أنّ سِنَّه إبّان الحملة الفرنسية على الجزائر كان قد بلغ العشر سنوات[3]، أمّا والده فهو سيدي "حمدان بن عثمان خوجة

---

[1] BOA, **MKT.MHM. 24/3**, 1266-1282.

[2] علي رضا پاشا، مرآت الجزاير مترجم على شوقى مجلس كبير معارف تنسيبيله، اسطنبول 1293هـ، ص 1.

[3] Ali Rıza Paşa, Mir ’at ül Cezayir (elveda Cezayir) çevirmen, Ali Şevki، Günümüz Türkçesine uyarlayan Cahit Kayra، 1. Baskı، Tarihçi kitap evi، İstanbul, Haziran 2014، s. 75.

الجزائري" أحد أهم أعيان وأغنياء الجزائر وأشهر سياسيها خلال المرحلة الأولى من الاحتلال الفرنسي[1]، انتقل بعدها "علي رضا باشا" مع والده -بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر- إلى فرنسا ثم منها إلى الآستانة ليعود مرة أخرى إلى باريس حيث أصرَّ السيد "مصطفى رشيد باشا[2]" القنصل العثماني في فرنسا على أن

[1] Zekeriya Kurşun, "Osmanli Cezayiri'nin Son Müdâfii Hamdan b. Osman Hoca (1773- 1842)"، (TARİHİMİZDEN PORTRELER Osmanli Kimliği Ed Cevdet Küçük Armağanı) O.R.A.F Yayınları, İstanbul, 2013, s-s 28-34.

[2] مصطفى رشيد باشا: ولد في إسطنبول في ١٣ مارس ١٦/١٨٠٠ شوال ١٢١٤، كان والده السيد مصطفى أفندي من كبار الإداريين والمسؤول المباشر على أوقاف مسجد السلطان بايزيد في إسطنبول، ما أتاح لولده رشيد تلقي تعليم نوعي على يديه مباشرة لكن ذلك لم يستمر مدة طويلة إذ توفي والده رشيد باشا سنة ١٨١٠، بعدها انتقل إلى رعاية صهره علي باشا الذي كان يشغل مناصب مرموقة في الدولة العثمانية منها منصب الصدر الأعظم ما أتاح لمصطفى رشيد باشا إكمال تعليمه النوعي والحصول على عدد من المناصب الإدارية الهامة فعين أثناء حرب الموره سنة (١٨٢١) سرعسكر باشا وعين بعدها مرافقا خاصا لقائد الأركان أثناء الحرب الروسية العثمانية ١٨٢٨ كما عين مفاوضا ممثلا عن الباب العالي وتحديدا عن برتيف أفندي في معاهدة إدرنه سنة ١٨٢٩ وبعد رجوعه إلى إسطنبول حظي باستقبال كبير في القصر السلطاني، عرف مصطفى رشيد باشا كرجل إصلاحات وحداثة فعين في عدد من المناصب الهامة منها: سفير فوق العادة مِن الباب العالي لباريس لأجل المسألة الجزائرية في جوان 1834 واستمر في مهمته قرابة ثلاثة عشر شهرا التقى خلالها بالعديد من السفراء الأوروبيين والمسؤولين الفرنسين بها بخصوص المسألة الجزائرية كما التقى بعدد من أعيان المغاربة المطلعين على فحوى المسألة الجزائرية، منهم: حسونة ا(لدخيسي/الدغيسي) الطرابلسي وحمدان بن عثمان خوجه الجزائري، ونشأت بينه وبين الأخير علاقة وطيدة جعلت مصطفى رشيد باشا يتوسط لحمدان خوجه لأجل وظيفة في إسطنبول كما نجحت مساعي رشيد باشا في حصول علي رضا ابن حمدان خوجه على منحة من الباب العالي تغطي نفقاته الدراسية. للتفصيل أكثر عن مصطفى رشيد باشا ومساعيه بخصوص المسألة الجزائرية انظر:

يكمل علي رضا دراسته، لذا التحق بالكلية الحربية بباريس[1]، وظل علي رضا بفرنسا مدة ثماني سنوات على الأقل[2].

تلقى "علي رضا باشا" تربية عسكرية في المدرسة الحربية الفرنسية مدة خمس سنوات كاملة، لينتقل فيما بعد إلى المدرسة التطبيقية -الفرنسية أيضا- في مدينة ميتز (Metz) وقضى بها ثلاث سنوات أخرى بالمدرسة المذكورة[3] استطاع خلالها تعلم الفنون الخاصة بالمدفعية والعسكرية وأهلته للحصول على العديد من المناصب والمهام وهو ما نستعرضه فيما هو قادم.

ثانيا: المناصب التي شغلها

عيّن بعد تخرُّجه مباشرة (Yüzbaşı/يوزباشي) أي (نقيبا) في صفوف القوة المدفعية، ثمّ تدرج بعد ذلك إلى رتبة (Binbaşı/بينباشي) أي (مُقدَّم) ليُرقَّى بعد ذلك إلى رتبة (Kaymakam/كايمكام) أي (قائم مقام) حينها لم يكن سن علي رضا باشا يتجاوز الثلاثين، ليرُقِيَ مرة أخرى نتيجة ما أظهره من جهد إلى منصب (Albay/ألباي) أي (عقيد) في الجيش[4].

شارك في العديد من الحروب التي خاضتها الجيوش العثمانية ضد روسيا (1853-1863م)وقد أبلى فيها البلاء الحسن ما جعله يتحصل على العديد من

Kheireddine SAİDİ، Fransa'nin Cezayir'i Işgali Sürecinde Diplomasi (1827-1848), Doktora Tezi, Istanbul Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü, 2019; Kemal Beydilli, "Mustafa Reşid Paşa" **DAİ**, C. 31. Ankara, 2002, ss. 348-350; Mustafa Reşid Paşa **ve Donemi semineri, Ankara 13-14 Mart 1985; 2. Baski, 1994.**

[1] عادل نويهض، أعلام الجزائر، من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط الثانية، دار الوعي، الجزائر، 2017، ص. 180.

[2] شارل فيرو، الحوليات الليبية، ص 501.

[3] نفسه، ص 501.

[4] Ali Rıza Paşa, a.g.e, s. 104.

التشريفات والأوسمة والترقيات، لذا نجده يُقلَّد بعض المناصب الرفيعة كمتصرف بلغراد سنة (1864م)[1] ليتحصل نتيجة إدارته الجيدة للولاية على الدرجة الثانية لنيشان مجديا (Mecidiye nişanı) (أحد النياشين التي استحدثها السلطان عبد المجيد 1823-1861م) تحصل على هذا الوسام سنة (1281هـ/1865م)[2]، كما نقف ضمن وثائق الأرشيف العثماني على تعيين علي رضا باشا بعيد توليه متصرفية بلغراد متصرِّفا مرَّة ثانية[3] على مقاطعة سواس (Sivas)[4] ثم رقي بعدها إلى رتبة (Müşir) "مشير"، بعد هذه الترقية وحسب إحدى وثائق الخارجية في الأرشيف العثماني أُرسِل لتقلُّد الوزارة في "طرابلس الغرب" وكان ذلك على مرَّتين منفصلتين، كانت الأولى في (1283هـ/جوان/1867م)[5] الموافق للسابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (1284هـ) بحيث خلف الوالي السابق لطرابلس محمود نديم باشا[6] وهو نفس التاريخ الذي أورده له شارل فيرو في حولياته إذ ورد من حيث الترتيب في ولايته الأولى لطرابلس الغرب بعد محمد نديم باشا وهذا سنة (1867م)[7]، واستمرّ في

---

[1] BOA, **HR.SFR. 1403/6**, (1864).

[2] BOA, **MKT.MHM. 304/70**, 1281 (1864/1865).

[3] BOA, **MKT.MHM. 348/19**, 1282 (1865/1866).

[4] مدينة تركية تقع في وسط تركيا تبعد عن اسطنبول بحوالي885 كلم وعن أنقرة العاصمة بـ 450كلم باتجاه الشرق

[5] BOA, **I.MMS. 34/1420**, 1284 (1867).

[6] أحمد بك الطرابلسي، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، ليبيا، ج1، ص 379.

[7] Charles Féraud, **Annales Tripolitaines dans Revue Africaine**, A. Jourdan Libraire éditeur Constantine et Paris, volume 27, Anne 1883, P 221.

منصبه حسب ما يمكن تتبعه في الأرشيف العثماني وفي البيبلوغرافيا المتعلّقة به قرابة الثلاث سنوات.

اشتهر فيها بحرصه على توسيع النطاق التجاري والصناعي وتنمية النشاط الزراعي؛ بحيث أنشأ جملة من الموانئ الجديدة، وأسَّس مبان حكومية حديثة في الإيالة، منها بنائين ضخمين لتسيير شؤون الإيالة: أحدهما في شرقي "بنغازي"، والثاني في "طبرق" ويبعد عن مدينة درنه الشهيرة بحوالي 90كلم كما أسس في الجانب الاقتصادي صندوق المنافع العمومية وكان غرضه من ذلك المساعدة على تنمية الزراعة والتجارة[1]، وقد اقترح من أجل نجاح الإصلاحات التي سعى لها جملة من الأمور ولقيت اقتراحاته التشجيع من طرف الدول العثمانية بادئ الأمر، فسعى إلى التركيز على تطوير ميناء بمبة وميناء مدينة طبرق لما لهما من موقع استراتيجي هام ولما للدول الأوروبية من أطماع فيهما، فسعى إلى قطع الطريق على هذه الدول بأن قام بإقطاع العديد من رجال الجيش قطع أراضي من أجل الزراعة وألزمهم بالعمل فيها مقابل مساعدات مالية وتوفير الإمكانات اللازمة. وأقرَّ بعض القوانين التي تقوم بإعفاء من يريد الاستقرار بجوار ميناء بمبة مثلا من جميع الضرائب لمدة عشر سنوات كاملة كما وعد بتوفير المؤونة لمدة سنة كاملة لمن ينتقل بأُسرته للاستقرار في ذلك المكان، فانتعشت بذلك فعلا الحركة الاقتصادية والزراعية وكاد أن ينجح في التأسيس لنشاط دائم إلاَّ أنَّ الدول الأوروبية سعت إلى عزله من منصبه بأن ألمحت إلى الدولة العثمانية بأنه يقوم بذلك تأثرا بالتجربة الفرنسية في الجزائر وأن هذا الأمر سيحمل السكان على استحسان التجربة الفرنسية وبالتالي لا يستبعد تأليب السكان ضد الدولة العثمانية ونظام حكمها وإن كان معلوما أن هذا الادعاء سببه الحقيقي واضح، وهو السماح بالسيطرة على المواقع المحورية للميناءين في "بمبة" و"طبرق" إلى الدول الأوروبية الأخرى مثل: انجلترا

[1] أحمد بك الطرابلسي، المرجع السابق، ج1، ص 379-381.

وإيطاليا[1]، وقد نصّ فيرو أنّه: «..**لو كُتب النَّجاح لهذه الإصلاحات لترتبت عليها نتائج عظيمة**..»[2].

انقضت المدة الأولى لتوليه شؤون "طرابلس" حسب ما يرد في الفهارس العثمانية تحديدا في شهر (مارس/1870م)[3]، ويذهب صاحب "المنهل العذب" إلى أنّ "علي رضا باشا" استمرّ في حكم ولاية "طرابلس الغرب" سنتين وتسعة أشهر، وبعد عزله من الولاية خلفه في الحكم "محمّد حالت باشا"[4]، عُزل من منصبه في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة (1287هـ) ليعُيّن بعد ذلك واليا على مدينة "بورصا" لفترة قصيرة [5].

عاد مرّة أخرى لقيادة الجيوش العسكرية في الأناضول في الفترة الممتدة من (نوفمبر/1871م) إلى غاية (أبريل/1872م)[6]، ليُستدعى بعدها مرَّة ثانية لشُغْل منصب والي "طرابلس الغرب" في الفترة المُتدَّة ما بين سنتي (1872م-1873م)[7] وبالتحديد في التاسع عشر صفر سنة (1289هـ)[8] الموافق لمستهل صيف (1872م) وقد خلف هذه المرة "محمّد رشيد باشا"[9] وهذا بسبب الثورة التي قام بها أهالي "فزان" ضد حكم "محمّد رشيد باشا" الذي أثقل كاهل

---

[1] شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، تر: محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، ليبيا، ط الثالثة، 1994، ص 503.

[2] نفسه، ص 502.

[3] Sinan Kuneralp, Son Dönem Osmanlı Erkan ve Ricali (1839-1922) Prosopografık Rehber, 1.Baskı, Isis, 1999, İstanbul, s. 40.

[4] أحمد بك الطرابلسي، المصدر السابق، ج1، ص 381.

[5] Ali Rıza Paşa, a.g.e, s104.

[6] Kuneralp, a.g.e, s15.

[7] BOA, **MKT.MHM .454/100**, 1290 (1873)

[8] أحمد بك الطرابلسي، المصدر السابق، ج1، ص 381.

[9] Féraud, Annales Tripolitaines dans Revue Africaine, op cit, P. 221.

السكان بالضرائب، فكان الهدف الرئيس الذي أرسل من أجله "علي رضا باشا" في ولايته الثانية إلى طرابلس هو محاولة توقيف الثورة التي قادتها بعض قبائل الطوراق والتي أدت تقريبا إلى شل النشاط التجاري في المنطقة[1]

وقد نجح في ذلك ما أسهم في توسيع الحركة التجارية في أيامه وهذا أمر طبيعي نظير اهتمامه بتنظيم الموانئ وتسهيل نقل المواد الزراعية المنتجة في "طرابلس الغرب" واستمر الأمر على ذلك إلى غاية (1291هـ)[2] حينها طُلِب مرّةً ثانية إلى مركز الدولة العثمانية؛ ليشغل هذه المرة أيضا منصب والي مدينة "بورصا"[3]، وقد استمرَّ في هذا المنصب إلى غاية (جويلية/1875م)[4] عين بعدها حسب إحدى وثائق المهمة دفتري[5] في الأرشيف العثماني عضوا في مجلس التنظيمات العسكرية سنة(1291هـ/1875م)[6].

ثالثا: مؤلفاته ووفاته

لـ"علي رضا باشا" إضافة للكتاب الذي بين أيدينا كتاب آخر صنَّفه غالبا قبل تصنيفه لكتاب "المرآة" الذي تتعلق به هذه الدراسة، وهو يتمثل في رحلة داخل إيالة الجزائر، ترجمت هذه الرحلة إلى اللغة الفرنسية بعنوان " *"Souvenirs d'un voyage d'Alger à Constantine travers les montagnes* قام بهذه الرحلة عندما كان شابا وكان خلالها برفقة والده، امتدّت هذه الرحلة من مدينة الجزائر إلى عاصمة بايلك الشرق الجزائري مدينة قسنطينة، وتمت

---

[1] شارل فيرو، المرجع السابق، ص 506.

[2] أحمد بك الطرابلسي، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ج1، ص382.

[3] Ali Rıza Paşa, a.g.e, s104.

[4] Kuneralp, **Son Dönem Osmanlı Erkan ve Ricali (1839-1922)**, s. 65.

[5] قسم من الوثائق ضمن الأرشيف العثماني يخص المراسيم والمراسلات والأوامر السياسية والاقتصادية والعسكرية الهامة التي كانت تصدر عن الديوان الهمايوني في الدولة العثمانية يوجد (419) مجلد في الأرشيف العثماني تغطي سنوات ما بين (1915-1553م).

[6] BOA, **MKT.MHM. 475/59**, 1291(1878).

في إطار المساعي التي سلكتها فرنسا مع "الحاج أحمد باي" من أجل إقناعه بالتخلي عن خيار المقاومة العسكرية ضدها، وقد أُجبِر حمدان بن عثمان خوجة بناءً على ما يذكره صاحب الكتاب على القيام بتلك الرحلة[1]؛ بسبب التعنُّت والتهديدات التي مارستها القيادة العسكرية الفرنسية[2].

قام صاحب الكتاب بهذه الرّحلة رفقة والده سنتين بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، أي: في سنة (1832م)، حينها لم يتجاوز سِنه على الأكثر ثلاثة عشر سنة، لذا نجده يعتذر لصديقه "صولسي" (Saulcy) عمّا يكون قد نسيه من أسماء الأماكن والقرى والجبال[3] التي مرُّوا بهم أثناء رحلتهم لمقابلة الحاج "أحمد باي" وفي هذا إشارة واضحة إلى أنَّه لم يقم بكتابة مذكرات هذه الرحلة مباشرة بعد عودته وإنما كانت بعد فترة ما، وما حمله على ذلك هو طلب صديقه صولسي[4].

تقع هذه الرِّحلة في قرابة خمس وثلاثين صفحة، وقد نُشرت في فرنسا بمدينة ميتز(Metz) من طرف السيد *(F.De. Saulcy)* باللغة الفرنسية، تحت عنوان «*Souvenirs d'un voyage d'Alger à Constantine travers les montagnes*» أي «ذكريات رحلة من مدينة الجزائر إلى قسنطينة عبر الجبال» حسب ما صرّح به صاحبها، وهي في الأصل عبارة عن رسالة ودية منه أجاب

---

[1] Ali Effendi, **Souvenirs D'un Voyage d'Alger À Constantine Travers Les Montagnes**, tr F. De. Saulcy Metz, 1838, P5.

[2] Ali Rıza Paşa, a.g.e, s74.

[3] -Ali Effendi, **Souvenirs D'un Voyage d'Alger À Constantine Travers Les Montagnes**, P. 5.

[4] علي أفندي بن حمدان خوجة، "**وصف رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عبر الجبال (1832م)**" تر، عميراوي حميدة، مراجعة بحاز إبراهيم، مجلة بوليكرومي، المتحف العمومي الوطني للفنون والتعابير الثقافية التقليدية، 2012، ص 6.

فيها صديقه إلى طلبه بكتابة مذكرة عن رحلته مع والده إلى بايلك قسنطينة[1] وكُتِبت الرِّحلة باللغة العربية وقد كانت حسب صولسي -وهو أحد المستشرقين المتقنين للغة العربية-بأن الرحلة قد كتبت «بلغة جيدة وعميقة»[2].

نظرا لأهمية هذه الرحلة فإن عدداً من الباحثين الجزائريين اهتموا بدراستها وترجمتها من الفرنسية إلى العربية، لذا نجدها قد نشرت ثلاث مرات: فقام أول الأمر الأستاذ "علي تابليت" بإعادة تعريب الرّحلة، ونشرها أولا: ضمن حوليات جامعة الجزائر سنة (1993م). وثانيا: نشرت مستقلة في كُتيب سنة (2008م) وتولت عملية النشر دار ثالة بمدينة الجزائر. أما الباحث الثاني الذي اهتم بالرحلة المذكورة فهو الأستاذ "عميرواي حميدة" المرَّة الثالثة والأخيرة والذي نشرت ترجمته للرحلة سنة (2013/2012)[3]ونشر نص الرحلة بعنوان: "**وصف رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عبر الجبال (1832م)**" ضمن إحدى الملتقيات العلمية التي نظمها المتحف العمومي الوطني للفنون والتعابير الثقافية التقليدية[4].

وقد توفي علي رضا باشا بعد مرض صدري لازمه مدة سنة (1293هـ/1876م)[5] وهي نفس سنة نشر كتابه "مرآت الجزاير" بإسطنبول ويوجد لعلي رضا باشا أخ اسمه الحاج حسن كان مقيما في الشام خلال مرحلة تواجد حمدان بن عثمان خوجة في اسطنبول، وهو ما نستشفه من خلال رسالة من الحاج حسن إلى السيد حمدان بن عثمان خوجه يستفسره فيها عن حاله وأحوال أهله[6]، ويلتمس من والده أن يطلع على ما استجد

---

[1] -Ali Effendi, op cit, P. 3.

[2] -ibid.

[3] - مجلة بوليكرومي، المتحف العمومي الوطني للفنون والتعابير الثقافية التقليدية، 2012.

[4] - مجلة بوليكرومي، المتحف العمومي الوطني للفنون والتعابير الثقافية التقليدية، 2012.

[5] Ali Rıza Paşa, a.g.e، s. 106.

[6] BOA, **I.HR.11/553**, 12 Recep 1257 (30 Agustus 1841).

بإسطنبول، كما يذكر الحاج حسن في الرسالة المشار إليها أخ آخر له واسمه مصطفى كان يقطن مع والده حمدان بإسطنبول، ولعله أخ ثان لعلي رضا أفندي، إذ تكاد جل الشواهد تتحدث عن وجود علي رضا أفندي خلال زمن كتابة هذه الرسالة في فرنسا لإتمام دراسته.

المبحث الثاني: الكتاب

أولا: التعريف بنسخ الكتاب

أمّا عنوان الكتاب الذي نحن بصدد ترجمته فهو في النسخة العثمانية التي صدرت عام (1293هـ/1876م) هو «مرآت الجزاير» ويقصد بها باللغة العربية «مرآة الجزائر» بينما أضيفت في النسخة التركية التي صدرت حديثا عبارة (Elveda Cezayir) ويقصد بها باللغة العربية: (الوداع الجزائر)

والمرجح أنَّ الكتاب أُلِّف في الأصل باللغة العربية ثمّ نُقِل إلى اللغة العثمانية؛ إذ أضيف في الورقة الأولى مِن النُّسخة العثمانية تصريح دار النشر بأنَّ جميع حقوق هذه النسخة تعود إلى المترجم "علي شوقي" ممّا يؤكد أنّ اللغة الأصلية التي كتبت بها «مرآة الجزائر» إنَّما هي اللغة العربية، وقد مرّ بنا أنّ مستوى اللغة العربية الذي كتب به رحلته إلى قسنطينة كان في غاية الجمال؛ حتّى شبَّه المترجم (دي صولسي) سلاستها وتناسقها باللغة التي تتزيّن بها أشهر الرحلات في العالم العربي[1]. وإذا تقرّر بأنّ (دي صولسي) قد نقل الرحلة من اللغة العربية إلى الفرنسية وفهمنا أنّ (علي شوقي) قد نَقْلَ كتاب «مرآة الجزائر» إلى اللغة العثمانية إضافة إلى إشارة نجدها عند شارل فيرو عن كون علي رضا باشا حين كان واليا على "طرابلس الغرب" كان يحيط نفسه بحاشية من العرب خاصة منهم الجزائريين لأنه لم يكن يحسن اللغة التركية إلا قليلا[2]، وهو ما يُؤكِّد لدينا أنّ الكتاب لم يوضع باللغة العثمانية، فإن تقرر لدينا هذا وجب علينا أن نصرف القول إلى أن "علي رضا باشا " كان يجيد اللغة العربية بشكل أفضل مِن غيرها بكثير وهو ما يحملنا على القول بأنّه كان يرجِّح التّصنيف بها مباشرة وقد تحدّث شارل فيرو أيضا بالإضافة إلى اللغة

---

[1] -Ali Effendi, **op cit**, P. 3.

[2] شارل فيرو، الحوليات الليبية من الفتح العربي إلى الغزو الإيطالي، ص. 501.

العربية الجيدة والتي كانت لغته الأم عن تمكنه بشكل جيد من اللغة الفرنسية بحكم الفترة الزمنية الطويلة التي قضاها بفرنسا والتي دامت حوالي ثماني سنوات[1].

ونذهب إلى القول بأن صاحب الكتاب قد خط كتابه هذا آخر حياته، وغلبة الظن تحيلنا إلى أن الكتاب قد ألف فعلا سنة (1870م)، ونجد قرينته في ثنايا الكتاب عندما تحدث المؤلف عن سعي فرنسا الحثيث لاجتثاث الإسلام من قلوب أهالي الجزائر بترغيبهم بالمصالح والفوائد التي تترتب عن اعتناقهم للديانة المسيحية، ويتضح ذلك في قوله :« لازالت الحكومة الفرنساوية مذ أن سلطها الله على الجزائر من أربعين حولٍ وإلى يوم الناس هذا، تُلِبس على الجزائريين أمر دينهم ومذهبهم، وترغبهم في تركه والدخول في دينها وسلوك مسلكها والحمد لله حمدا كثيرا أن ثبت أهل الجزائر ولم يحقق للفرنسيين آمالهم»[2]. فقوله من أربعين حول يفهم منه أن كتابة هذا الكتاب كانت سنة (1870م) أي قبل ست سنوات من وفاة المؤلف علي رضا باشا.

توجد النسخة العثمانية التي بين أيدينا في أكثر من مكتبة، بسبب أنّها انتشرت بالطبع، وصورتها الأساسية موجودة في المكتبة الوطنية العامة (*Millet genel kütüphanesi*) تحت رقم (529) في اسطنبول، وهي نفس النسخة الموجودة ضمن شكل ميكروفيلم في مكتبة السليمانية باسطنبول (*Süleymaniye yazma eser kütüphanesi*)كما نقف على نفس النسخة في المخزن الميكروفيلمي للكتب النادرة ضمن مكتبة (مركز البحوث الإسلامية) (*İslam Araştırmaları Merkezi*) تحت رقم (051262/36717)، كما أفادنا الأستاذ خليفة حماش أنه وقف على نسخة في مكتبة السلطان محمد الفاتح

[1] شارل فيرو، الحوليات الليبية من الفتح العربي إلى الغزو الإيطالي، ص 501.

[2] علي رضا پاشا، مرآت الجزاير مترجمي، على شوقي، مجلس كبير معرفى تنسيبله، اسطنبول، 1293هـ، و92.

وقد نشرت هذه النسخة سنة (1293هـ) الموافق لـ(1876م) في اسطنبول عن مطبعة دار المعارف العثمانية. وهي تقع في كتاب من (141) صفحة من الحجم المتوسط، مسبوقة بمقدمة من صفحتين إضافة إلى فهرس للمواضيع بآخر الكتاب[1].

كما دلني الأخ الروائي "عبد الوهاب عيساوي" عن طريق البريد الالكتروني بعد اطلاعه على نص المقالة التي نشرتها حول الكتاب سنة 2019 مشكورا على نسخة من الكتاب نفسه باللغة العثمانية موجودة على مستوى مكتبة جامعة تورنتو (*University of Toronto Library*) وهي تقريبا نفس النسخة التي سبق الحديث عنها الموجودة في مكتبة السليمانية باسطنبول.

أمَّا النسخة الثالثة وهي المعتمدة كنسخة ثانية في نقل ومقارنة النسخة التي بين أيدينا فهي نسخة منقولة إلى اللغة التركية الحديثة مِن اللغة العثمانية وقد قام (*Ali Şevki*)[2] بنقلها إلى اللغة التركية الحديثة، وهي نسخة تقع في 108 صفحات ونشرت عن دار المؤرخ (*Tarihçi kitapevi*) سنة (2014م)، وقد أضاف (*Ali Şevki*) إلى الكتاب صورتين ضمَّنهُما الفصل الخامس: إحداهما خارطة للجزائر والثانية صورة تعبّر عن حادثة المروحة، كما رتب ناقل هذه النسخة في آخر الكتاب فهرسا للأعلام والأماكن والبلدان.

---

[1] نفسه، ص 1.

[2] هو خطأ أحببت التنبيه عليه إذ الصحيح أن من نقلها إلى اللغة التركية الحديثة هو Cahıt Kaya أما علي شوقي فنقلها من اللغة العربية حسب ما نذهب إليه إلى اللغة العثمانية، وما ذكرته إنَّما هو سبق قلم قد انتبهت إليه في إحدى المرات وأنا اطَّلع على ما نشرته في مقالة تخص هذا الكتاب في مجلة العلوم الإجتماعية لجامعة سطيف 2 في المجلد 15 العدد 27 ص 155.

ثانيا: مضمون الكتاب.

يمكننا اعتبار أنّ الجزء المُخصَّص للجزائر خلال العهد العثماني قد أخذ أكبر حَيِّز من الكتاب، إذ أنّ المقدمة التي صُنِّفت في مدح علم التاريخ وأهميته إضافة إلى الفصل الأول الذي خصّصه علي رضا باشا للحديث عن موقع إيالة الجزائر ومختصر عن تاريخ شمال إفريقية كان محاولة من صاحب الكتاب أراد من خلالها أن يعطي صورة مُجملة عن تاريخ المنطقة لا غير، وإذا تقرَّر هذا كان جديرا بنا القول أنّ صاحب الكتاب لم يُورد تاريخ الجزائر بشكل عام وإنّما أراد رسم صورة عامة لتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني واهتمّ بشكل أكبر في كتابه بالمرحلة الأولى مِن الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى غاية نهاية مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري.

استهلّ صاحب الكتاب فصله الأوّل بالحديث عن موقع الجزائر جغرافيا فقسَّم لذلك المغرب الكبير إلى قسمين: مغرب أوسط ومغرب أقصى، وحدّد لكل منهما مجاله، فحصر المغرب الأوسط ما بين مدينة تلمسان وتخوم بجاية وصرحّ أنّ إيالة الجزائر تشغل هذا الحيز، لما فرغ من ذلك شرع في الحديث عن تاريخ هذا المكان وكيف تناوبت العديد من الأمم على حكمه، فتحدّث في البداية عن خضوع المنطقة الممتدّة مِن "جبل طارق" إلى "مصر" لسيطرة الروم بعد تغلبهم على القرطاجيين، ثمّ تحدّث عن سكان المنطقة خلال تلك المرحلة التاريخية، وقسمهم إلى قسمين: النوميد والعرب[1]. في نفس الفصل انتقل للحديث عن دخول العرب الفاتحين للمنطقة زمن حكم الخليفة "عثمان بن عفان حكم ما بين 40-35هـ" الذي أرسل من مصر سنة (78هـ)[2] "عبد الله بن سعد بن أبي سرح" في جيش قوامه أكثر من عشرين ألف مسلم لفتح بلاد

---

[1] a.g.e: s 13.

[2] الأصح أن إرسال الصحابي عثمان بن عفان لجيش عبد الله بن أبي سرح لفتح إفريقية كان في حدود سنة (27هـ)

المغرب، كما تحدَّث عن "عقبة بن نافع" وجهوده لضبط المنطقة، استرسل بعد ذلك في ذكر خبر سكان المنطقة من جنويين وإسبان ورومان وعلاقاتهم مع السكان الأصليين لبلاد المغرب[1].

بعد ذلك وضع صاحب الكتاب عنوانا للحديث عن عائلة بربروس والقراصنة المسلمين، وافتتح كلامه بوصف حالة المنطقة قبل ظهور الإخوة بربروس على الساحة، معتبرا أنّها (أي: المنطقة) كانت تعيش نوعا من التشرذم والتفرُّق؛ بسبب عدم تمكُّن سكان المنطقة من التوافق حول حاكم ما يكون له القدرة على تسير شؤون المنطقة، لذا فقد ظلَّت لفترة طويلة تعاني من المواجهات بين القبائل المختلفة[2]، وهو ما جعل الجهة الخارجية في ضعف دائم، في نفس الفترة كان نشاط الإخوة بربروس يشتهر في حوض المتوسط بما أحدثوه من هلع لدى الأوروبيين الذين لم يصبحوا في مأمن من نشاط هؤلاء الإخوة، وهو الأمر الذي حمل صاحب الكتاب أن يُخصص حيزا للكلام عن هذه العائلة، فينقل صاحب الكتاب ما اشتُهِر من خبر هذه العائلة، فوالدهم يعرف باسم يعقوب الإسكافي (Pabuçu Yakup) كان أحد جنود بايزيد الثاني (*Ikinci Bayezit*) توطَّن في جزيرة ميدلي (*Midilli*) ورزق بأربعة ذكور هم: إلياس إسحاق، عروج وخير الدين(خضر)[3].

يتحول بعد ذلك علي رضا باشا للكلام عن نشاط "خيرالدين بربروس" وأخوه "عروج" فيُفرِد لهما تفاصيلَ مهمّة عن كيفية دخولهما "مدينة الجزائر" و"جيجل" و"بجاية"، ثمَّ كيف انتقل بعدها "بربروس" لضمِّ تونس إلى الدَّولة العثمانية. ينتقل بعد ذلك إلى شرح ما حدث خلال تلك الفترة من محاولة الملك الإسباني (شارل كان) السيطرة على مدينة الجزائر سنة (1538م/945هـ)

---

[1] a.g.e: ss 14-18.

[2] a.g.e: s18.

[3] a.g.e, s. 19.

وإن كان التاريخ الصحيح لحملة (شارل كان) على مدينة الجزائر هو (1541م) وقد أخذت هذه الحملة مثل ما هو سائد في جلِّ المصادر خلال العهد العثماني حيزا هاما من الكتاب.

بعدها ينتقل المُؤلِّف في الفصل الثاني للحديث عن وضع الجزائر بعد إلحاقها بالدولة العثمانية وإن كان العنوان يوحي بأنَّ الأمر متعلِّقٌ بخيرالدين باشا والجزائر العثمانية فقط، إذ جاء الفصل بعنوان (الجزائر بعد سيطرة خيرالدين باشا عليها) (*Hayrettin Paşanın Cezayir'i zaptı ve sonrası*) لكنّه قبل ذلك يتطرّق لتاريخ المدينة قبل سيطرة خيرالدين باشا عليها، فنجده يروي تاريخ تأسيس المدينة من طرف الرومان، ويشير إلى أنّ اسمها كان "أكوزيوم" (*Ekosium*) وأنّها بعد مدّة من سيطرتهم عليها خرجت مِن تحت أيديهم واستقلّت إلى حد ما بأمرها، ثمّ يواصل -في ترتيب زمني للأحداث- الحديث عن مآل المدينة بعد ذلك ومن مَلكها، وكيفية تغيُّر اسمها لتصل في الأخير إلى اسم "جزائر بني مزغنة"، في الفصل نفسه نجده يعود للحديث عمّا هيّأه (خير الدين بربروس) للمدينة من ميناء وكيف قام بربط الميناء "ببرج الفنار" لحماية المدينة.

كما تحدّث أيضا -خلال الفصل الثاني- عن الطريقة التي شرع مِن خلالها في التّمهيد لحُكمه لمدينة الجزائر، وما استحدثه من تراتبية إدارية، ليتطرّق بعد ذلك لموضوع آخر -على قدر كبير من الأهمية- يتمثّل في العلاقة بين الدولة العثمانية مُمثَلةً في (أوجاق الجزائر) من جهة، ودولة فرنسا مُمثَّلةً في (فرنسوا الأول) من جهة أخرى، وبشكل متسلسل ينتقل المؤلف للحديّث عن الحملة الإنجليزية على مدينة الجزائر وما انتهت إليه هذه المواجهة أيضا.

يتحوَّل بعدها -في الفصل الثالث- إلى الكلام عن أحوال أهالي وسكان الجزائر، مُتَّخِذاً من التركيبة الإثنية للسُّكان أساساً انطلق منه إلى الحديث عن جغرافية السكان، وقد فصَّل أنَّه توجد ثلاث فئات كبرى تقطن الجزائر

وهي: الأندلسيون، النوميديون، والعرب[1]. أمّا الأندلسيون فهم الوافدون من الأندلس، وأمّا النوميد فهم القبائل التي تقطن الجبال، وأما العرب فهم الذين وفدوا من مصر في مرحلة ما[2].

يتحدّث بعد ذلك عن مميزات كلّ فئة مِن حيث اللهجة والعادات والتقاليد والمذهب السائد، كما لم يفت صاحب الكتاب الحديث أيضا عن أنواع المأكولات والأطعمة الموجودة بالجزائر، وأكدَّ خلال ذلك على نوعية القمح المميزة التي توجد بالإيالة، ثمَّ لفت النظر إلى الاهتمام البالغ لساكنة الإيالة بأشجار الزيتون والتين، كما تحدّث أيضا على مدى احتراف سكان القبائل للحِرَف إذ يقول «..أنهم لا يرون شيئا إلا صنعوا مثله..». ولم يترك جزئية تتعلَّق بسكان الجبال إلاّ وقد ذكرها، فتحدّث عن بشرتهم ولباسهم وعاداتهم وسيوفهم وطريقة حل النزاعات بينهم، وكأنَّه في ذلك سلك نفس مسلك والده "حمدان بن عثمان خوجة" في كتابه "المرآة"، وكان سرده لهذه الأمور بشكل مُجمل لكنّه دقيق جدا، ويمنح صورة كاملة عن الحالة التي كان يعيش فيها الساكنة خلال تلك المرحلة إذ نعتقد أن زيارته لها أفادته كثيرا في هذا الجانب.

ثمَّ انتقل مرَّة أخرى للتحدَّث بشكل عامٍ عن تقسيم الجزائر إلى مقاطعات وكيف أنّ لكل مقاطعة منها (بايا) تُعيِّنه حكومة مدينة الجزائر؛ من أجل الحفاظ على العلاقات بين القبائل، وتسيير البلاد، وتحصيل الضرائب. وتحدّث أيضا ضمن هذا الفصل عن بعض التقسيمات الإدارية التي اعتُمدت بشكل عُرفيٍّ كالمتصرفية والقائم قام والإدارة.

ثمّ سلك صاحب الكتاب مسلكا غريبا في المفاضلة بين الفئات الاجتماعية والعرقية في إيالة الجزائر، وقرّر بأنّ أفضل الذين كانوا موجودين في الإيالة هم الترك ويليهم الكراغلة، وأنّ الأهالي كانوا ينظرون إليهم باحترام بالغ بحكم

[1] a.g.e, s. 36.

[2] a.g.e, s. 36.

أنَّهم كانوا يرون أنّ "التُّرك" أعلم مِن الأهالي وأكثر ذكاء منهم، وأنّه لما ترك "التُّرك" البلاد ورثها قوم من الجهلة.

بعدما فرغ من الحديث عن الحيثيات التي تخص السُّكان وما يعتريهم من عادات وما يميز كل فئة عن غيرها من الفئات الأخرى، انتقل علي رضا باشا للحديث من جديد عن الجزائر من جانب تاريخها السياسي، مُركِّزاً مرَّة أخرى على فترة حكم (خير الدين باشا) فأطنب في الحديث عن جهوده من أجل تنظيم إيالة الجزائر، إذ أحدث مجموعة من الرُّتب والتنظيمات ظلّ مَعمولاً بها على امتداد مرحلة زمنية طويلة من تاريخ الإيالة، فشرع في ذكر بعض هذه المناصب والتّعريف بها، فذكر مثلا: عن منصب "الخزندار" بأنّه يأتي مِن حيث الأهمية في المرتبة الثانية بعد حاكم الجزائر، ويليهما "آغا العسكر" الذي يقع تحت إمرته جل الضُّباط والعساكر في الأوجاق، يليه من حيث الأهمية منصب "وكيل الخرج" وكان بمثابة ناظر البحرية وكان يقع تحت أمرته كل رياس البحر والطوبجية ومن يعمل في أبراج المراقبة البحرية، يأتي بعده "خوجة الخيل" ويرى صاحب الكتاب أنّ أهمية خوجة الخيل تكمن في إشرافه المباشر أو عن طريق من يعمل تحت إمرته على توفير الخيل والحيوانات التي تحتاجها الإيالة كما يعمل على مراقبة والبحث عن الحيوانات الضائعة أو المسروقة، فلا يُباع أي من الحيوانات إلاَّ بعد أن يأذن هو بذلك.

ثمّ يذكر علي رضا باشا أنّه بعد المناصب السّالف ذكرها يأتي منصب (الباي) وهو الذي بدوره منصبٌ سامٍ لكنه وبسبب بعده عن قاعدة الحكم الموجودة "بدار السُّلطان" ظلّ أقل تأثيرا في الحكم مِن (الخزندار، خوجة الخيل، آغا العرب، وكيل الخرج) لكنه خارج مدينة الجزائر وفي موطن حكمه أكثر سطوة وحظوة ممّن ذكرنا سابقا.

وقد قسّم صاحب الكتاب الجزائر إداريا إلى أربعة أقسام، يخضع كلٌّ منها لسلطة الباي، ولكلّ منها قاعدة للحكم تكون عاصمة للبيلك فهي: قسنطينة في الشرق ووهران في الغرب.

ظلت المناصب السَّامية في الإيالة حكرا على "التُّرك" دون غيرهم، باستثناء وحيد تُجسِّده حالة "الحاج أحمد" باي الشرق الجزائري، ولأهمية " الحاج أحمد باي" في تاريخ الجزائر أَفرد له صاحب الكتاب فصلا تحدّث فيه عن: صفاته، ومميزاته، ومقاومته للاحتلال الفرنسي.

ليأتي في نفس الفصل الحديث عن تنظيم الإدارة داخل البلد، إذ أنّ الأمر بقي مُناطاً بأهل القبيلة، لذا نجد علي رضا باشا يقول: «...أنّ جميع الأمور أنيطت بشيخ البلد، يقوم شيخ البلد بتعيين مجلس يضم كبار وأعيان البلد ويتخذ مكانا مخصوصا لهذا المجلس، وبهذا الشكل من التنظيم سارت أمور الحكومة بشكل إداري سديد ومميز..»

وهو بهذا يوافق ما تُقرِّره جل المصادر الجزائرية التي تناولت الفترة العثمانية بالبحث والتأريخ من كون الأمور الإدارية داخل القبائل ظلت منوطة بأهلها ولم تتدخل فيها السلطة العثمانية إلاَّ بقدر ضئيل يحفظ لها حق تحصيل الضرائب الموسمية.

ويرى صاحب الكتاب أنّ أصل تنظيم الإدارة استفاده "خير الدين باشا" من الأندلسيين المهاجرين إلى الجزائر، إذ قام بعد مشورتهم بتخصيص أمين لكل حرفة، وجعل هذا الشخص المسؤول عن الأمر سُمِّي أمينا ونجد أيضا لفظ القيد والذي دل أيضا عن المسؤول على مهمة ما نقف على: (قايد العيون) و(قايد الوصفان) و(قايد الزبل)[1].

بعد الحديث المُستفيض عن هذه القيود أو الأعمال ينتقل صاحب الكتاب للحديث عن جهود "خير الدين باشا" لأجل ضم كلّ من تونس وطرابلس الغرب إلى السُّلطة العثمانية، ثُمَّ يُذكِّر علي رضا باشا بأنّ أوجاق الجزائر ظل يتميَّز بأهمية كبرى لدى السلطة العثمانية؛ لذا كثيرا ما اعتُبِر المُتصرِّف فيه هو

[1] a.g.e: s 42.

المتصرف في شؤون كل من إيالتي تونس وطرابلس الغرب، ولعلّ هذا ما يُفسّر تقديم إيالة تونس بعد انفصالها لهدايا أُخرى إلى السُّلطة في الجزائر.

يعرض علي رضا باشا في الفصل الخامس مقارنة مُضمرة بين حال إيالة الجزائر لما كانت تتبع الباب العالي بشكل قوي ومباشر، وحالها لما ظفر بشؤونها بعض الباشوات الذين لم يحترموا الباب العالي ولم يكن مِن شيمهم العقل والتفكُّر، جاء هذا الفصل بعنوان (*Cezayir ve Hüseyin Paşa*) "الجزائر وحسين باشا" استهل علي باشا الحديث في هذا الفصل بسيرة (حسين باشا) والحالة التي دخل بها الجزائر؛ إذ كان مجرد صيادٍ بسيط سرعان ما أضحى "خوجة الخيل"، وبعد خلو منصب الداي اختاره ضباط الجيش ليكون باشا الجزائر، وهنا يشير صاحب الكتاب كيف تغيَّرت حال (حسين باشا) وكيف انتكست أحواله، بعدما أصبح حاكما للجزائر إذ أضحى لا يرى إلاَّ رأيه ولا يستمع إلاّ لنفسه.

ويعبّر علي رضا باشا في غير تموُّرٍ عن رأيه من هذا الحاكم وأسلوب حكمه ثمّ يتعرَّض إلى بداية المشكلة مع فرنسا، وقضية الديون، إذ أنّ الدّاي (حسين باشا) كان ينتظر مِن أحد اليهود وهو "بكري" بأن يدفع ما عليه مِن ضرائب لخزينة الإيالة؛ لأنَّه كان يدين لخزينة الدولة بمبلغ كبير، لكن الأخير تحجّجَ بعدم قدرته على الدفع؛ لأنّ الفرنسيس حسب كلامه لم يدفعوا له حقوق المُؤن التي أقرضها إيَّاهم وحدَّث الداي بقوله: «...الآن لا مال لدي، إذ ما كان لدي من المال هو الآن في ذمَّة الفرنسيس، وبمجرد أن أُحصِّله سأدفع لكم...» من ساعته أرسل الدّاي حسين بمكتوبٍ إلى ملك فرنسا عن طريق القنصل الفرنسي يطالبه بمال اليهودي "بكري"، وبعد شهر من إرسال المكتوب وخلال إحدى الأيام التي صادفت أواخر شهر رمضان حضر القنصل الفرنسي إلى جناب الداي والذي كان جالسا يحمل بيده مروحة ومباشرة بادر القنصل بالاستفسار: «..كتبت إلى مَلكك منذ شهر عن حالة ديون اليهودي لماذا لم يردنِ منه خبر إلى الآن؟» فأجابه القنصل: «...إنّ للملك أشغال عديدة ولديه أعوان

مثل أعوانك ينبهونه للأمور... ومن عادتنا أن نرد على كل أمر في حينه ولما يصل دوره، ورسالتكم لم يصل دورها بعد، سيأتيك الجواب عن سؤالكم بمجرد أن يصلها الدور...» غضب الداي لهذا الرد فصرخ في وجه القنصل: «... كيف لهؤلاء الذين لدى ملكك أن يكونوا أعوانا كمثل الذين لدي؟..» وأثناء ذلك ضرب وجه القنصل بالمروحة التي كان يحملها يذكر صاحب الكتاب بأنّ القنصل خرج مِن ساعته دون أن يقول أي كلمة متجها إلى ميناء المدينة ومنه ركب سفينة إلى فرنسا، فلمّا سمِع الأهالي بما حدث أسِفُوا لذلك؛ لأنهم يدركون أنّ فرنسا لن تظل ساكتة حيال ما جرى، وقد قصّ صاحب الكتاب أثناء ذلك ما حدث مع والده "حمدان خوجة أفندي" الذي اتُّهم بأنّه يُشيع في الأخبار الخاطئة عن قوّة فرنسا وعدم قدرة الجزائر على مواجهتها، واستدعي لدى الداي، ولكن "حمدان خوجة" استطاع ردّ هذه الأكاذيب والافتراءات وبرأ نفسه منها[1].

من جهة أخرى نجد صاحب الكتاب ينتقل للحديث عن استعدادات الطرف الجزائري، فيتكلَّم أولاً عن (آغا العرب) في تلك الفترة "يحى آغا" واصفا إيَّاه بالرجل الذي يحسن الاحتياط جدا، ومنوها في نفس الأمر بتلك العلاقة الطيبة التي كانت تربطه مع الأهالي والمحيط الدبلوماسي فكانتا مميزتين فعليا؛ ما جعله يحظى بمعلومات مهمَّة من القنصل الهولندي بالجزائر، مفادها أنّ الفرنسيس سيقومون بإنزال قواتهم بموقع "سيدي فرج"، حينها ذهب (يحى آغا) إلى الباشا وأخبره الأمر، واقترح عليه بناء برج هنالك لرد السّفن إذا ما اقتربت لكن الباشا لم يستسغ رأيه، بل وتوهم غير ذلك لذا لم تمر مدّة طويلة حتى استبدله بصهره "إبراهيم آغا" والذي أعاد القنصل المذكور نصيحته له حول الثغرة

[1] a.g.e, s. 47.

الموجودة بـ"سيدي فرج" لكنه لم يُعر الأمر أي اهتمام، ولعل هذا ما جعل صاحب الكتاب "علي رضا باشا" يصف (إبراهيم آغا) كذا مرّة بالرجل الجاهل[1].

بعدها ينتقل علي رضا باشا مرَّة أخرى إلى الشطر السَّادس من الكتاب فيصرّح بما سيتناوله في هذا الجزء، ويوضح أنّ الحديث سيكون عن سعي فرنسا للمفاوضات وإرسالها إحدى سفنها الحربية لذلك، كما يوضح أنَّه سيتحدّث عن موقف باشا الجزائر (الداي حسين) من الشروط التي طالبت بها فرنسا من أجل الصلح مع الجزائر.

فيستهل حديثه عن وفود سفينة فرنسية كبيرة تحمل راية السلام البيضاء تقدّمت إلى ميناء مدينة الجزائر، نزل من السفينة عددٌ من الجنود إلى اليابسة وأعلموا مَن بالميناء أنَّهم قدموا لمقابلة الدّاي حسين، فلما قُدِّموا بين يدي الدّاي قالوا له ما معناه: «...أنّهم قد يتفهّمون موقف الداي المبالغ فيه من قنصل فرنسا الذي يمكن أن يكون قد أساء الأدب، لكنهم في نفس الوقت يتأسَّفون على الطريقة التي ردَّ بها الداي، عندما ضربه بالمروحة، وأنَّه لم يكن لها حاجة، وأنهم الآن ما أتوا إلاَّ للسّلَم وأعلموا الدَّاي أنَّهم قد أحضروا في السفن الكثير من الأموال والهدايا إرضاءً له، لكن لهم مقابل ذلك رجاءٌ واحدٌ وهو أن يُرسل معهم مِن جَنابه رجلاً ليذهب مع السُّفن إلى فرنسا فيسكِّن الأهالي الذين استشاطوا غضبا لما حدث، وأنهم يرجون منه التفكير في الأمر لأنَّه خير له...»

ويرى علي رضا باشا: أنّ الدّاي حسين عندما رأى محاولات فرنسا وسعيها من أجل السّلم فسَّر ذلك بأنه عجز وأنه لا توجد قدرة لدى فرنسا لمحاربة الجزائر، ورأى أنّ العرض الذي تقدّم به هؤلاء النّفر ما هو في الحقيقة إلاّ وجه

[1] a.g.e, s. 49.

من أوجه التّضمين لخوف الفرنسيس من مواجهة الجزائر؛ لذا ردّ الدّاي على العرض بقوله :«...نحن لا نعرف إلاّ الحرب..» وعاملهم معاملة سيئة[1].

وهنا يتوجَّب علينا أن نطرح علامة استفهام حيال المصادر التي استقى منها صاحب الكتاب "علي رضا باشا" معلوماته ومدى صِدقها، ونجد أنّ علي رضا باشا لم يجعل الأمر سرّاً، بل صرّح بأنّه التقى أثناء إقامته بفرنسا مع السيد بيناك (Binake) وقد قام باستفسار السيد (بيناك) بخصوص ما جرى في تلك المقابلة، فأخبره الأخير برواية تعنت "الدّاي حسين" وسوء معاملته للوفد المفاوض، بل نقل له قوله بالتركية للفرنسيين: «..اذهبوا فليس لنا معكم شيئا آخر إلا الحرب...» ، فلو جُعِل الأمر كذلك فعلا مثلما رواه السيد (بيناك) ونقله عنه "علي رضا باشا" فَهمْنا سبب التّحامل الكبير لصاحب الكتاب على "الداي حسين" ومن معه فيما سيأتي.

وبعدما تحدّث علي رضا باشا عن اللقاء الذي تمّ بين الداي والمبعوثين الفرنسيس انتقل للحديث عن قضية السفينة التي كانت تحملهم، وكيف تعامل معها الطرف الجزائري بإجبارها بأمر مِن الداي على الرحيل من الميناء على الفور، كما وضح أن هذا الأمر تزامن مع وجود عاصفة جعلت من الأمر غاية في الصعوبة، وهنا أشار إلى قيام المدفعية الجزائرية بقصف السَّفينة كلما حاولت الأخيرة الاقتراب من السَّاحل[2].

ينتقل بعدها صاحب الكتاب في الفصل السابع للحديث عن مرحلة جديدة من مراحل الاحتلال الفرنسي للجزائر يبدأ بإنزال الجيش الفرنسي لقواته، ثمَّ ينتهي إلى شرح الأحداث التي وقعت أثناء هذا الإنزال، والمحاولات الحثيثة للسيطرة على أماكن هامة مثل "برج مولاي حسن".

---

[1] a.g.e, s. 52.

[2] a.g.e, s. 53.

شرع "علي رضا باشا" هنا بالحديث عن سبب اختيار الجيش الفرنسي لساحل "سيدي فرج" من أجل رسو العمارة البحرية، وأشار أيضا إلى محاولات الداي حشد القوات اللازمة لأجل دفع الهجوم الفرنسي، غير أنَّ المشكلة كانت تكمن في المسافة الطويلة التي كانت تفصل بين قوات البايلك والقوات التي كان يقودها صهر داي الجزائر "إبراهيم آغا"

بالإضافة إلى ما سبق تحدّث "علي رضا باشا" أيضا عن استغلال العساكر الفرنسيس لعدم جاهزية القوة الجزائرية لرد الحملة؛ إذ باستثناء البرج الذي أنشأه "يحى آغا" لم يكن يوجد أي تجهيز آخر بتلك الجهة، لذا وبمجرد أن نزلت القوات الفرنسية وتوغلت في البرِّ أحكمت السيطرة على البرج الذي أنشأه يحى آغا بما فيه من ذخيرة وأسلحة[1].

كما ركز صاحب الكتاب على ضعف وعدم أهلية "إبراهيم آغا" صهر "الداي حسين" على قيادة عساكر الجزائر، الأمر الذي حمل العساكر على مراسلة الداي في هذا الشأن لتغييره لكنه رفض ذلك، ولم يقتنع بفشل صهره في إدارة الحرب إلاّ بعدما توغّلت العساكر الفرنسية في اتجاه المدينة بشكل أكبر وأصبح دفع هذه العساكر أمرا صعبا[2].

ينحو بعد ذلك صاحب الكتاب إلى الحديث عن غياب التنظيم والتدريب المحكم والذخيرة اللازمة للعساكر الجزائرية، فيورد في ذلك أمثلة عن أنه لما وصلت قبائل العرب لمواجهة الجيوش الفرنسية صُدِموا بعدم وجود ذخيرة إذ أُخبِرُوا بأنّ الفرنسيس استولوا على معظم الذخيرة الموجودة، لذا فقد قُدِّم لكلِّ شخصٍ اثنتا عشرة طلقة لا غير، الأمر الذي استهجنته قبائل العرب ذلك وقال بعضهم -مستغربا الأمر-: «...المكان الذي نلقي به العدو على مسافة أربع ساعات، عندما تنفذ الطلقات هل سنعود إلى هنا لنأخذ الطلقات؟» وإذا عرف

---

[1] a.g.e, s. 54.

[2] a.g.e, s. 55.

هذا فمن الواجب القول أنّ الوضع في الإيالة كان مُهيَّئا بالتمام لنجاح الحملة الفرنسية على الجزائر.

ثمّ نجده يسترسل في الحديث عن تفاصيل دخول العساكر الفرنسية إلى إيالة الجزائر، والملاحظ أنّ صاحب الكتاب لا يستثني فقرة من الفقرات في الكتاب إلاَّ ويشير فيها إلى غياب التنظيم في صفوف الإيالة، إذ جُمِع من المتطوعين؛ استجابة لنداء الجهاد الذي أُعلِن عنه مئتا ألف فرد، لكن بدون أن يجدوا القائد الذي مِن شأنه قيادتهم للنصر[1].

وقد نتج عمَّا سبق استمرار تقدُّم القوات الفرنسية، فكان الفرنسيس لا يصِلُون مكانا موجودا فيه العساكر التي يقودها إبراهيم آغا إلا استولوا عليه وحين عاد إبراهيم باشا إلى مدينة الجزائر ليشرح الوضع للداي، أدرك باشا الجزائر أنّ صهره لم يكن من أرباب القيادة[2].

وأثناء وصفه لحركة العساكر الفرنسية للسيطرة على مدينة الجزائر- في هذا الفصل- نجد علي رضا باشا ينتقل للحديث عن استهداف عساكر الفرنسيس "لبرج مولاي حسن" فاسترسل في الحديث عن سبب إنشائه وصرح أنّ الإسبان هم من أنشأوه، ثمَّ تحدَّث عن أهميته وعدَّ صاحب الكتاب الاستحواذ على "برج مولاي حسن" هو بمثابة سيطرة تامة على المدينة؛ إذ البرجُ يتيح لمن يُشرف عليه السيطرة الكاملة على مدينة الجزائر[3].

ثمّ تحدّث في أثناء هذا كيف رفض مَن كان بالقلعة من عساكر الجزائر تسليم القلعة للفرنسيين، وكيف أنّهم فضلوا أن يموتوا بها ويُفجِّروا ما فيها مِن بارود وأسلحة على أن يأخذها الفرنسيس، وصوّر لنا الكاتب مشهد

---

[1] a.g.e, s. 56.

[2] a.g.e, s. 57.

[3] a.g.e, s. 57.

الانفجار الكبير الذي هزّ هذا البرج فسُمِع دويه مِن أقصى الأمكنة واهتزت الأرض بمدينة الجزائر لهذا الانفجار[1].

بعدما فصّل صاحب الكتاب الأحداث التي جرت عند "برج مولاي حسن" انتقل إلى الفصل الثامن مِن الكتاب، وخصَّصه للحديث عن تسليم باشا الجزائر "الداي حسين" المدينة للفرنسيين، لكنه قبل أن يصل إلى تلك النقطة توقف للحديث عن مساعي الداي المتأخرة لأجل إيجاد الحلول اللازمة للمشكلة، ثمّ عرّج للحديث عن الطريقة التي دعا بها الدّاي أعيان وعلماء ورياس البحر وضباط الجيش من أجل أخذ رأيهم واستشارتهم في الموضوع؛ وما حدث أثناء ذلك من نقاش، وكيف أنّ العديد من الحضور حمَّل مسؤولية ما حدث مع الفرنسيس للداي حسين. ثمّ يقرر كيف انتهى الأمر بين المجتمعين بقرار المواجهة لكن هذا القرار لم يستمر طويلا، إذ سرعان ما تراجع بعض سكان المدينة عن ذلك القرار؛ لإدراكهم بأنّهم سينهزمون لا محالة؛ وخوفا على أبنائهم ونسائهم من الوقوع أسرى لدى الفرنسيس قرّر من بقيَ في المدينة أن يفاوضوا الفرنسيس، وأن يستجيبوا لمطالبهم لحفظ أنفسهم وأهليهم[2]؛ الأمر الذي حمل باشا الجزائر على مباشرة المفاوضات مع الجنرال ديبورمون.

وقد أكّد الجنرال ديبورمون حسب ما أورده صاحب الكتاب أنّه شخص مأمور من طرف الدولة العليّة، وأنه لن ينتقل من مكانه إلاَّ بأمر منها؛ لذا اتّفق الطرفان على أن يُسلِّم الداي المدينة لعساكر فرنسا على أن يحترم العساكر الأهالي فلا يغتصبون أموالهم ولا يُروِّعُونهم في أمنهم وأن يحترموا المساجد والمقابر فلا يغيروا حالها ولا يدنسوها، وطلب الداي بذلك كتابا من الجنرال ديبورمون نفسه فأجابه لما طلبه على أن يُضاف إلى ذلك السَّماح للجنرال

[1] a.g.e, ss. 57,58.

[2] a.g.e, ss. 59,60.

وعساكره بدخول المدينة من اليوم الذي يلي هذا الاتفاق فحدث أن اتفق الفريقان على ذلك[1]

ثمّ تحدّث في هذا الفصل أيضا عن مراسيم تسليم مفاتيح خزينة الدولة ثم التنازل عن السلطة في المدينة إلى الجنرال ديبورمون[2] إذ تسلّم الأخير من الداي مفاتيح الخزانة وكانت مليئة بالأموال، وقد سمح الجنرال ديبورمون للداي أن يأخذ ما يشاء منها، فأخذ العديد من المجوهرات والأساور[3]، وكأن بصاحب الكتاب يمحي كل ما من شأنه أن يكون حسنة لدى الداي حسين المذكور.

بعدها ينتقل علي رضا باشا إلى الفصل التاسع، ومن هذا الفصل يشرع صاحب الكتاب في الحديث عن وضع الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي، وكيف تصرف الجنرال ديبورمون في تلك الأثناء، وحاول صاحب الكتاب بداية من الفصل التاسع أن يخوض في مرحلة جديدة من تاريخ الجزائر، وهي مرحلة الاحتلال الفرنسي، لذا نجده يُخصِّص الفصل التاسع للحديث عن سياسة المارشال ديبورمون -قائد الحملة الفرنسية على الجزائر- وكيف بدأ يغيِّر في ملامح المدينة بتحويله المساجد إلى كنائس أو تحويلها إلى ميادين.

لينتقل بعده في الفصل العاشر إلى الحديث عن مطالب السكان للدولة العثمانية بالحماية من بطش الجنود الفرنسيس، وسَعي الدَّولة العثمانية لذلك؛ لكنه يُقرِّ بعجز الدولة العثمانية عن ذلك، ثمَّ بعد هذا يتحدّث صاحب الكتاب في الفصل في عجالة عن حالة "الداي حسين باشا" بعد استيلاء الفرنسيس على الجزائر، وترحيله إلى فرنسا.

---

[1] a.g.e, ss. 61.

[2] a.g.e, ss. 62.

[3] a.g.e, ss. 62.

ينتقل بعدها في الفصل الثاني عشر إلى الحديث عن أحد الشخصيات الهامة التي أثَّرت أو كانت تسعى للتأثير في الوضع السائد، فاستهلها بوالده حمدان بن عثمان خوجة، ثمّ عاد صاحب الكتاب للحديث عن تجديد الجيش الفرنسي وزيادة قواته في الجزائر في الفصل الثالث عشر، بعدها يرجع صاحب الكتاب في الفصل الرابع عشر للحديث عن علم ثانٍ كان له وزن مهم في تاريخ المقاومة وهو "الحاج أحمد باي" حاكم بايلك الشرق الجزائري، وأشاد صاحب الكتاب كثيرا بقوته وحنكته وكيف أنه رفض الاستسلام لفرنسا وإغراءاتها.

في الفصل الخامس عشر يواصل صاحب الكتاب التأريخ للمقاومة الشعبية وهذه المرَّة يستعرض مقاومة "الأمير عبد القادر" ونجده يفصِّل في مجريات الأحداث. ليأتي في الفصل السادس عشر من الكتاب فيصف كيف انتهت المقاومة التي قادها الأمير عبد القادر بالاستسلام.

أمّا الفصل السابع عشر فقد خصّصه صاحب الكتاب لترجمة بعض باشوات الجزائر وابتدأ الترجمة مع بابا محمّد باشا منتهيا بآخر باشوات الجزائر حسين باشا، لنقف في الفصل الثامن عشر على ما اعتقد أنّه مضاف من طرف مُترجِم النُّسخة العربية إلى اللغة العثمانية علي شوقي، إذ خُصِّص هذا الفصل للتعريف بجزء من حياة صاحب الكتاب لكن انتهاء الترجمة بالتَّرحم على صاحب الكتاب يوحي بأنَّ من كتب هذه الترجمة ليس هو صاحب الكتاب وإنّما المترجم.

ثالثا: أسلوب صاحب الكتاب

والملاحظ على نمط الأسلوب المعتمد من "علي رضا باشا" تميزه على عادة عصره بالتشعب والاستطراد داخل الجزئية الواحدة، إذ كثيراً ما نجده يُضمِّن الفقرة الواحدة عدداً مِن الأفكار، فينتقل في الفقرة الواحدة بين عدد مِن الجزئيات المتعلقة ببداية الفكرة، ليعود مرَّة أخرى للجزئية الأولى مُستدركاً ما فاته فيها. فمن ذلك مثلا في إحدى المواطن عند حديثه عن سيطرة الفرنسيس على قلعة "مولاي حسن" يبدأ بالحديث انطلاقاً مِن سعي الفرنسيس الحثيث

للاستحواذ على القلعة، ثمّ يعدل عن ذلك إلى الحديث عن أهمية القلعة الجغرافية، ليعود إلى أوَّل بداية الفكرة مُتحدِّثاً عن إنشاء القلعة، وقوتها وفيما تكمن أهميتها، لذا نجده يقول:«...**غير أن الفرنسيس الذين كانوا مدعومين بقوّة كبيرة مِن الجُند والعتاد ظلوا يقتربون من أجل السيطرة على "قلعة الإسبان" التي كانت تعرف باسم "برج مولاي حسن" والتي توجد بأعلى قمم مدينة الجزائر، وإن تمكّن عساكر فرنسا مِن أخذ هذه القلعة فقد استطاعوا بالفعل أخذ المدينة كلها؛ إذ أنّ القعلة تشرف على المدينة كلها، ومن هذه القلعة تصبح المدينة كلها تحت فوهة المدافع. هذه القلعة أنشأها الإسبان في إحدى حروبهم في الجزائر، وقد عانى أهالي الجزائر كثيرا قبل أخذ هذه القلعة من أيدي الإسبان، وبعد أخذ القلعة عملوا على تقويتها أكثر فجعلوها بحق قلعة عظيمة وقوية..»**

هنا نصل إلى نهاية ما أردنا عرضه في هذه الدراسة من صورة كتاب «مرآة الجزائر» والذي يعد بحق وثيقة تاريخية مهمة يجب الاستفادة منها قدر الإمكان.

النَّصُ المُترجم لكتاب "مرآة الجزائر"
لعلي رضا باشا

الحقوق محفوظة للمترجم، وكل نسخة لا تحمل الختم هي نسخة مزورة

السعر ثلاثة عشر قرشا

كما طبع ونشر وبيع كتاب "تاريخ خير الله أفندي" إلى غاية المجلد الثامن عشر سابقا في أماكن محدَّدة وبسعر معلوم سيحدث نفس الأمر مع المجلد التاسع عشر الذي سيصدر قريبا

بموافقة المجلس الأعلى للتعليم تقرَّر إعادة طباعة كتاب "مرآة التواريخ العثمانية" بعد مدة من إعادة جمعه وترتيبه، وتقريره على طلبة المدارس الرشدية (المتوسطات) سيصبح في هذه المرة وقريبا في أماكن البيع المعلومة ليكون بين يدي المهتمين.

سنة 1293/ 1878م

. وجدت هذا الكتاب الجميل الذي خُطَّ بلغة عربية رشيقة في شأن تاريخ الجزائر كتاباً حقيقا بالقراءة والمطالعة وأن يخلَّف للأجيال اللاحقة، وهو كتاب لأحد وزراء السَّلطنة العثمانية الوالي السابق لمدينة بورصا حضرة الوزير المُكرَّم "علي رضا باشا" الذي أجدني مفتخرا بشرف نسبه وقرابتي له، وأخرج هذا الكتاب في زمن حكم حضرة مولانا السُّلطان "عبد الحميد" والذي حرص على أن لا تبقى هذه العلوم والآداب خلف الستار في غياهب النسيان، إذ الواجب العمل على إخراجها للنُّور لتُأخذ منها الأجيال القادمة العبرة، ولتفتح أعين النّاس على الحقائق، وليكون تذكارا بسيطا لأبنائنا، وهذا لم يكن لولا مساعدة هذا الرجل العظيم المشار إليه، وتأثير وتوجهات الرجل العظيم، رفيع المقام السيِّد "محمَّد سامي" رئيس قسم الضرائب في الدائرة الأولى في دار السعادة، وقد ترجمت هذا الكتاب للغة التركية الحلوة، مع تقسيمه إلى فقرات وترتيبه بما يسمح ليكون أكثر يسر وسهولة

وأتمنى أن يغفر لي القراء ما قد يجدونه من خطأ أو زلل في إخراج هذا العمل علي شوقي

مقدمة

علم التاريخ؛ بشكلٍ ما هو مرآة للأحداث العالمية الماضية، وهو انعكاس لمظاهر الجمال في الحقب والأزمنة السابقة، هذه الفضيلة جعلت مِن الصعب على المؤرِخ مهما جاد قلمه وارتفع مقامه الإحاطةَ بمحاسن التاريخ أو تقدير أهميته بالفعل. لأنه يستحيل عليه الإحاطة به وبيان حقيقته فعلا، ولهذا اعتقد أنَّ علي أن أترك هذا الموضوع جانباً؛ وأشرعَ في غرضي مِن هذا التأليف.

وهكذا، وكما هو معلوم، فإنَّنا دائما ما نقف في كتب تاريخ العالم على مادة الجزائر تشغل حيزاً ما ضمن أخبارها وتعتني بما حدث فيها من وقائع، أمَّا مادة تاريخ الجزائر في كُتب التَّاريخ العثماني العام فقلما أجدها كافية؛ إذ كلمَّا ألقيت بِعيني اتجاه ما يخصُّ الجزائر وجدته ضئيلاً ولا أكاد أقف فيه على شيء يُذكر. وزيادة على ذلك، إذا صرفت بصري ناحية كُتب التّاريخ العربي فيما يخص تاريخ الجزائر أجدها تختصر الأحداث والوقائع بشكل مُخلٍّ يكاد يكون دون فائدة تُذكَر.

في حين نقف على العديد مِن التفاصيل التي تخصّ الجزائر لدى المؤرخين الفرنسيس، غير أنَّها مليئة بالبطولات والخوارق الفرنسيس، وهي تخالف في معظمها الحقائق والحوادث التي جرت، ما يجعل مِن الطّبيعي أنّ لا يُطمأَنَّ لها.

والمؤسف أنَّه خلال الوقائع المذكورة قدِم الكثير مِن المهاجرين مِن الجزائر واستوطنوا الأراضي العثمانية، وحتّى مع وقوف الكثير منهم على حقيقة الأحداث كما جرت إلاَّ أنّ معظمهم كانت حالتهم سيّئة مِن قلَّة ما في أيديهم ومن الفقر والفاقة وكثرة حاجياتهم، حملتهم على الانصراف إلى البحث عمَّا يسدُّون به رمقهم ويدفعون به عوزهم، ولم يجدوا الوقت ليدونوا ما يعرفونه في كتاب كالذي بين أيدينا. إضافة إلى هؤلاء فإنَّ مَن تبقى في الجزائر من الأهالي قد أصبح خاضعا لسلطة الإدارة الفرنسية والقادة العسكريين ما جعل من

البديهي أن تكون كتابتهم التاريخية قاصرة لا تُظهر الأمور كما حدثت في أصلها وأصبح مِن الطَّبيعي في هذا الباب ومع مرور الزمن وتوالي الأحداث أن يصبح مِن الجلي أنه سيصعب الحصول على المعلومات الحقيقية عمَّا حدث بالجزائر.

بالإضافة لعجزنا المعلوم، فقد شجعتني الأسباب الماضية والمثل القائل (فالنملِ مَعذورٌ بما حمِل) على تصنيف وترتيب مثل هذا التاريخ، وبالرغم مِن أن المقصد هو إعطاء صورة عمّا حدث فعلاً مِن أحداث في الجزائر وأخذ العبرة ممَّا جرى، فهو تاريخ نستعرض به وضع الجزائر مِن القديم ثمّ حالها لما انتقلت للحكم العثماني، وشكل النظام القائم بها خلال مدّة تزيد على ثلاثة قرون والإجراءات المعتمدة، ثمَّ بعد ذلك خلال استيلاء الفرنسيس على الجزائر وما وجهوه من العرب ثم من نزاع مع سنجاق قسنطينة الحاج "أحمد باي" وظهور الشيخ "عبد القادر" وحروبه مع الفرنسيس وما فعلوه معه ثم الشروط التي وافق بها على التسليم للفرنسيس[1]، وطريقة ظهور القايد يوسف وقبوله الانضمام لعساكر فرنسا، وذكر بعض ما كان بأحواز الجزائر مِن الأعيان والعرب والقبائل وأخلاقهم ومقاومتهم للفرنسيس. في الأساس الفضل في هذا الكتاب يعود لوالدي المرحوم "حمدان أفندي" الذي حررّ هو الآخر كتابا أثناء إقامته بفرنسا أسمع به الفرنسيس حقيقة ما يحدث في الجزائر مِن سوء إدارتهم، ومعاناة الأهالي مِن كثرة المشاكل، ولأجل تصويب الحقائق للرأي العام في فرنسا قام بوضع هذا الكتاب أوَّلاً باللغة العربية وحمل اسم "مرآة الجزائر" وتُرجم إلى اللغة الفرنسية. طُبع الكتاب ووزعت بعض نسخه على عدد مِن كبار وعلية القوم في فرنسا بالرغم مِن أنّه ظلَّ مسودة. لم اكتف في كتابي هذا بنقل ما أورده والدي فقط في كتابه لأنه لم يكن كافيا لوحده، لذا راجعت أيضا

[1] اعتمدنا هذا اللفظ "الفرنسيس" بدلا عن "الفرنسيين/الفرنسيون" تنبيها على الخطأ الشائع بين الناس في جمع أسماء الأعلام إذ لا يصح جمعها، فيقال العرب بدلا عن العربيون والألمان بدلا عن الألمانيين والزنج بدلا عن الزنجيون؛ والترك بدل التركيونولهذا لا يصح القول "الفرنسيون" وإنما "الفرنسيين". (المترجم)

كُتب التَّاريخ العربية والفرنسية، إضافة لما احتواه كتابي ممَّا سمعته مِن لسان الموثوقين مِن أهل الجزائر في شأن ما حدث، كما أنَّني كنت رفقة والدي رغم حداثة سني في الجزائر أثناء ما حدث من حرب واستيلاء على الجزائر. وكنت شاهداً على الكثير من وقائعها بأمِّ عيني واستحضرها اليوم من ذكرياتي مقرونة بما أتمنى أن يكون صحيحا.

كما هو معلومٌ فإنَّ الإنسان إذا أتيحت له الفرصة -ولو كانت بشكل يسير- فإنَّه يصرف كلَّ جُهده لكي يُخلِّد ويسطر اسمه في كُتب التاريخ؛ بما ينتجه مِن عملٍ فكري خاص به، وبالرغم مِن يقيني بأنَّ هذا العمل ليس بالقيمة التي تجعلني أعرضه على القرَّآء، إلاّ أني آثرت أن أشارك مواطني إيَّاه، على أن يظل ما عايشته مِن أحداثٍ في زوايا النِّسيان كما سبق ذكره، وبالأخص في هذا العالم المتسع في العلم والتعلُّم، وقد حمسني أنا علي رضا والي بورصا السابق لهذا العمل وزاد في شجاعتي على تأليف هذا المُصنَّف ما كانت تسعى له السُّلطة العليَّة والدولة السنية مِن خلال ما تخطط لنشره في مجموعتها (مجموعة سعادات) التي ستسهر على جمع الآداب المختلفة وحصر الوقائع الماضية ودعم طبع ونشر ما تعلّق بالتاريخ والعلوم، بشكل شيق وجميلٍ.

مِن الفور ومستعينا بالله العظيم أهدي هذا العمل إلى حضرة ولي نعمتنا وسيدنا شمس العلوم والمعارف في هذا الزمان السُّلطان ابن السُّلطان سيدنا "عبد الحميد خان" حفظه الله وأنزله منازل العلماء والأبطال والعاملين آمين ثمَّ آمين بحرمة سيد المرسلين.

الفصل الأول

/2/ ينقسم الجزء الغربي من بلاد إفريقيه إلى قسمين أساسيين، الأوَّل يعرف باسم "المغرب الأقصى" والثاني يُعرف بـ"المغرب الأوسط".

القسم الأول ويمتد من صحراء المغرب الأقصى إلى تلمسان [شرقا]، يحكمه ملوك المغرب الأقصى، ويضم مُدن كفاس وتيطوان وغالب مدن المغرب الأقصى. أمَّا المغرب الأوسط فيمتد من تلمسان غربا إلى بجاية شرقا، وهو يتضمن جميع أراضي بلاد الجزائر.

حسب المعلومات التي يوردها بعض المؤرخين، فإنَّه وخلال القرن الرابع ميلادي بعدما قام قدامى الروم بالسيطرة على غرناطة وتخريبها، وجهوا أنظارهم مباشرة إلى بلاد إفريقية، ومضوا في وضع أيديهم على كلّ البلاد التي تمتدُّ مِن حدود جبل طارق إلى حدود مصر.

كان يستقرّ في تلك الأراضي خلال تلك المرحلة التاريخية جملة مِن الأعراب المتوحشين[1]، وينقسمون بدورهم إلى قسمين: أوَّلهم العربان والثاني النوميد[2].

حسب المؤرخ سالوسيت فإنَّ هؤلاء البدو والنوميد الذين يقطنون المناطق الواقعة ما بين مصر وبنغازي يسمون الليبيين وينحدرون في الأصل مِن قبائل الجيتول. اختلطوا مع الجنود الوافدين مِن داخل جزر مالطا[3] /3/ فكونوا هذا النسل الجديد، وقد اشتهر هذا النوع بوحشيته الشَّديدة.

---

[1] سنستغني بكلمة "البدو" عن كلمة متوحشين التي استعملها المترجم عند نقله النص من العربية الى العثمانية.

[2] يقسم المؤلف السكان إلى بدو وحضر. فمصطلح عربان غالبا ما سيستخدمه في هذا المصنف بمعنى "البدو" في حين يسمي الحضر بالنوميد. ولهذا سنعتمد على لفظ البدو مكان العربان.

[3] يقصد سالوست، في كتابه الشهير "حرب يوغرطة".

ذلك أنّ هؤلاء القوم كانوا يأكلون الشعير والقمح حتى قبل طحنها أو طبخها وكذلك اللحوم كانوا يأكلونها ولو لم تستو، ولحوم الغنم والأبقار مثلا يطعمونها بالأعشاب ويملأون بطونهم بها. نجد أن أغنى رجالهم لا يُفرَّق عن غيره مِن الفقراء إلاَّ لكونه عند جلوسه يفترش قطعة مِن جلد الغنم، بينما يجلس البقية على الأرض مباشرة، لهؤلاء القوم نوع واحد مِن اللباس يرتدونه صيفاً وشتاءً.

استطاع الرومان بعد جهود مضنية وحروب كثيرة وعديدة إخضاع هؤلاء البدو لحكمهم. وأَجبر الرومان السُّكان على التَّوطن واعتناق مذهبهم، وبعد أن تمَّ القبول بذلك انصرف بعضهم للاشتغال بالتجارة. غير أنّ الأمر لم يستتب للرومان بشكل دائم؛ إذ لم تتوقف انتفاضات وتمردات البدو، وظلت العلاقة بين الفريقين بين كرّ وفرٍّ. فكلَّما تغلَّبت جيوش الرومان على منطقة إلاَّ وانتقل البدو منها إلى الجبال. تاركين المناطق السهلية لفيالق الرومان لكن دون أن يتخلوا عن محاربتهم.

لهذا قام الرومان بعد استحواذهم على المناطق السهلية ببناء حصون كبيرة بها، استقرَّت بهذه الحصون بعض المحلات العسكرية وجعلتها حصون دائمة غرضها الوقوف في وجه التمردات والهجومات المتكررة لقبائل النوميدين ضدها (آثار هذه القلاع الحربية مُشاهدة وموجودة إلى يومنا هذا)

/4/ وقد تحتَّم على الرومان مِن أجل التقليل مِن هجومات النوميد على هذه القلاع العسكرية إلى بناء عدد مِن المدن استخدم الرومان في جميع أبنيتهم الحجارة واستخدموا لذلك بنائين مهرة، استطاع الرومان بذلك الإتقان في البناء وذلك الشكل في تنظيم القلاع كسر شوكة هذه التّمردات.

عندما أُنشأت هذه المدن والحصون؛ تراجعت حدَّة الحروب مع النُّوميد وطوال تلك السنين أُجبر النوميد على الاختفاء في أعالي الجبال.

في الأخير ظهر إلى الوجود العديد من الخلافات بين الرُّومان ولم يتوصلوا إلى أي اتفاق بينهم، وبمقتضى هذا الأمر ظلوا بلا قوَّة عسكرية، وبعد هذا الأمر بدأ التَّوقف في التفكير في المقاطعة الإفريقية.

في هذه الفترة وفي السنة الثامنة والسَّبعين (78هـ)[1] مِن الهجرة النبوية، يعني زمن خلافة الصحابي الكريم عثمان بن عفان رضي الله عنه بعث جُنداً مِن مِصر بقيادة السيد "عبد الله بن سعد" وجعل تحت إمرته ما يزيد عن عشرين ألف من العساكر عبروا ناحية إفريقية[2].

وبعد عدد مِن الغزوات استطاع هذا الجيش أن يسيطر بالقوَّة على العديد من المناطق والمدن، ودعوا الرُّومان الموجودين هناك إلى الإسلام فمن أبى منهم أن يصبح من المسلمين فرض عليهم أن يدفع الجزية.

---

[1] هذا التاريخ خطأ لا يخفى، إذ معلوم أنَّ الفتح الذي كان بقيادة "عبد الله بن سعد" رضي الله عنه والذي انتدبه لهذا "عثمان بن عفان" سنة (27هـ) وكان "عبد الله بن سعد" قد وصل للمهدية وأتمّ فتحها وأرسل بالخبر إلى "عثمان بن عفان" رضي الله عنه سنة (28هـ). ولعلَّ هذا الخطأ الموجود في النُّسختين العثمانية والتركية مردُّه سبق قلم مِن مترجم النسخة العربية السيد "علي شوقي" رحمه الله. للمزيد من التفصيل حول الفتح انظر: ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في اختصار أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى، 2013، ج1، ص 31 ومايليها.

[2] بعدما استأذن "عبد الله بن سعد بن أبي سرح" الخليفة "عثمان بن عفان" رضي الله عنه في فتح إفريقية أذِن له بذلك وأُرسل بمعيته جيشٌ عظيمٌ مِن المدينة النبوية لهذا الغرض. وممَّا يورده صاحب "فتوح إفريقية" أنَّ "عثمان بن عفان" لما عزم على فتح إفريقية أرسل في طلب "عقبة بن عامر" وأخبره بأنَّ عليه التَّجهز لفتح إفريقية طاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وجعله قائداً على جيش مِن ستين ألف مِن المسلمين.

يعود الفضل في ضبط وفتح كل هذه الجهة من إفريقية إلى سيدي "عبد الله بن سعد" وبعده[1] آلت ولاية إفريقية إلى سيدي عقبة بن [نافع][2] الذي اجتاز إلى جزيرة الأندلس

/5/ وفَّق "عقبة بن نافع" في فتح العديد مِن المناطق الأخرى زيادة على جهة إفريقية، واضطر سيدي "عقبة بن نافع" أن يُؤسِّس قلعة بمثابة دار الحرب لأجل عساكر الفتح المسلمين، أُعطي لها اسم "القيروان" وبُنيت على شكل قلعة[3] (القيروان هي المشاهدة اليوم بالإيالة التونسية) مِن هذه المدينة تُحكم مختلف أطراف إفريقية.

بعدما مكث سيدي عقبة هنالك سنتين عاد إلى مصر، وتحدّث مع الخليفة عمَّا حدث مِن تطور في عمران بلاد إفريقية، وفي سنة اثنين وثمانين (82هـ)[4] من الهجرة عاد عقبة بن نافع إلى إفريقية وهو يحمل اسم "والي إفريقية"

مباشرة وبرفقة عدد كبير مِن العساكر المسلمين المرابطين بالجزائر اتّجه إلى مقاطعة قسنطينة، وعلى مسافة يومين مشي مِن قسنطينة نقف على مملكة "مليش/ميلة". استطاعت هذه المدينة لما كانت لاتزال تحت نير الحكم الروماني الوقوف في وجه الفتوحات، إلى أن وُفِق عُقبة بن نافع لأخذها مِن يد الرومان ببطولات ليس هذا محل تفصيلها.

---

[1] استمرَّ "عبد الله بن سعد بن أبي سرح" في ولاية إفريقية مدَّة سنة وثلاثة أشهر على ما يذكره ابن الأثير.

[2] سقطت مِن النسخة العثمانية.

[3] على الصحيح أنَّ تأسيس مدينة "القيروان" كان سنة (50هـ) وكان الغرض من تأسيسها ما ذكره نقله صاحب الكتاب أعلاه.

[4] والأصح أنَّ ولاية "عقبة بن نافع" رضي الله عنه الثانية على إفريقية كانت سنة (62هـ).كما يوردها صاحب «البيان المغرب» لا كما وردت في النَّص.

ثمَّ أصبح تدبير شؤون إفريقية بيد الفاطميين[1]، استطاعوا أن يأخذوا تلك الأراضي الباقية بيد الرومان وضموها إلى ملكهم. وخلال هذه المُدَّة كان قائد القوات الافريقية الجنرال "جان" والرُّوم الذي ظلوا مستقرّين في إفريقية

/6/ بعثوا بمكتوب إلى ملك الروم في القسطنطينية يشتكون فيها مِن المسلمين ويستنصرونه ويطلبون منه الحماية بصفته قائدا للأمة المسيحية وهكذا ابتليت إفريقية في هذه المدة ببلاء الروم الذي نفصِّل خبره الآن.

[الرُّوم الجنويون]

الروم والجنويون فرع مِن أمّة ترجع أصولهم إلى الجنس الإيطالي والجنويين هم الذين يعودون في الأصل إلى الجهة الغربية مِن إيطاليا، عُرفت منذ القدم بجمهورية جنوة؛ ذلك أنّ النظام الملكي لم يكن سائداً بها، كانت عندما تُذكر جنوة تنصرف العقول لكلِّ شيء مُتعلِّق بالتجارة والسِّلع، ولهم مستعمرات في كلِّ طرف، حتّى إنَّنا نقف لهم على محلَّة داخل برج غلطة[2] إذ عندما بنوه شيَّدوا حول أطرافه سوراً.

[الرُّوم البنادقة]

البنادقة[3]: ويرجع أصلهم هم أيضا إلى الجنس الإيطالي مثلهم في ذلك كمثل الجنويين. إلاَّ أنهم ينتسبون إلى الجهة الشرقية مِن إيطاليا وينتشرون كنظرائهم من الجنويين بمستعمراتهم في كل طرف.

---

[1] كان هذا بداية مِن سنة (297هـ) وهذا بعد أن تغلَّب أبو عبد الله الشيعي على مدينة رقَّادة ودخوله إيَّاها وخروج "زيادة الله" منها فاراً.

[2] Galata Kulesi معلوم أن برج غلطة وما أحاط به كان في الأصل قبل الفتح العثماني لاسطنبول شبه قلعة مُحصَّنة مُنفصلة عن مدينة القسطنطينية وخاضعة في تسير شؤونها بشكل مباشر للجنويين. لكن بعد الفتح بمدة وجيزة أُلحِق بالمدينة وأضحى جزءً مُهماً منها.

[3] نسبة للبندقية.

كانت هذه القوة الكبيرة للإيطاليين سبباً في تأسيس وتشكيل دولة الروم، حيث استولت على كل مُستعمرات جنوة والبندقية، وكما استولت على معظم الأراضي العربية والآسياوية. فكانت بحق إمبراطورية عظيمة.

لم تكن توجد في تلك المرحلة من التاريخ دولة تضاهيها قوة وعظمة أو يمكنها أن تواجهها، لكنهم في آخر حكمهم تخلوا عن سلاحهم وقوتهم وانصرفوا إلى اللهو واللعب والملذات مِن مجون وطرب.

/7/ فكانت الفرصة مواتية للعربان ليستفيدوا مِن تراجع قوّة الرُّومان فاسترجعوا خطوة بعد خطوة جلّ الأراضي التي كان قد استولى عليها الرُّمان.

[الفتح الإسلامي لبلاد المغرب]

وهكذا تحررت جميع أراضي إفريقية ليتمكن المسلمون بعد ذلك من فتح جميع الأراضي الساحلية لبلاد إفريقية إلى أن بلغوا حدود جبل طارق، وممَّا يُروى عن سيدي عقبة رضي الله عنه أنَّه لما بلغ البحر، أدخل قدمي جواده البحر ونادى بأعلى صوته: «اللهم ربي إنّك تعلم أنَّنا لم نترك خلف ظهورنا مكانا في هذه البلاد للكفر إلاَّ وفتحناه، ولم يبق بين أيدينا إلاّ هذا البحر، ولا طاقة لنا به ولولاه لمضينا في نشر دينك»[1]

كان الكثير مِن حضر بلاد إفريقية قبل الإسلام يعتنقون المذهب الروماني[2] لكن قِيم الإسلام وما جاء به؛ حوَّل جلهم إلى هذا الدّين فأكرم به مِن شرف

---

[1] تقريبا هذا ما استطعت نقله من الترجمة العثمانية، وممَّا اشتُهر في الكتب رواية: «..يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك، اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك». انظر: تاريخ خليفة بن خياط، ، وطبقات ابن سعد في ترجمته لعقبة بن نافع، وابن كثير في البداية والنهاية، وتاريخ الإسلام للإمام الذهبي، والكامل في التاريخ لابن الاثير، وكتاب العبر لابن خلدون فجلها تناقلت هذه الروايات في شأن عقبة رضي الله عنه.

[2] يقصد الدوناتية نسبة إلى دونا النقريني، أما الدوناتية فهي المسيحية التي عرفتها بلاد المغرب ورفضت الخضوع لسلطة الكنيسة الكاثوليكية التي كان يمثلها الأسق كوسيليوس

وهم المقصودون بقولنا: الأندلسيين. لكن طائفة البدو ظلوا مُستقرين بالجبال والعديد منهم لم يدخل الإسلام[1].

[فتح إسبانيا]

بعدما ساد الإسلام وانتشر بين الحضر في الأراضي الإفريقية انتقلت رايته إلى إسبانيا إذ كانت أرضاً خصبةً لتقبُّل الدَّعوة الإسلامية.

/8/ غير أنّه وبالرغم مِن المحاولات المختلفة لم يُكتب لها النجاح، وفي سنة 92هـ قام قائد مِن الرُّوم يسمَّى "جول" (Jül)[2]بالثورة على حاكمه رودريك (Rodrik) مُستغلاً في ثورته هذه المساعدة التي أمدَّه بها العرب المسلمون من بلاد المغرب، أدت هذه المساعدات في الأخير إلى دخول إسبانيا تحت حكم المسلمين.

في تلك المرحلة استطاع الأندلسيون أن يضبطوا الأمور داخل إسبانيا، وعلى مدار أحد عشر جيلا متعاقبا، قاموا ببناء العديد من المساجد والكثير من القصور، والعديد منها موجود إلى اليوم، وللتفصيل أكثر يمكن الاطلاع على ما دوِّن في تاريخ الأندلس.

في قرطاج. ما نجم عنه حرب مذهبية دامت سنوات عديدة وسقط فيها الآلاف ضحايا التعذيب والاقتتال من الدوناتيين في بلاد المغرب.

[1] وكأن بالكاتب هنا ينقل ما يكتبه الفرنسيس بخصوص الأهالي إذ معلوم أن معظم البدو اعتنقوا الإسلام وكانوا الحاملين لرسالته المدافعين عنها منذ قرون خلت.

[2] هو الملك يوليان حاكم سبتة، تروي العديد مِن القصص حول السبب أنَّه مُتعلِّق بابنت الكونت "يوليان" التي اعتدى على شرفها الملك "رودريغوا" فأعلمت والدها "يوليان" بما جرى، لذا قرَّر الانتقام لشرفه وتواصل مع "موسى بن نصير" لأجل إمداده بما يعينه على ذلك، وحفز "يوليان" "موسى بن نصير" على غزو إسبانيا وهو ما حدث فعلاً بعدما أخذ "موسى بن نصير" موافقة "الوليد بن عبد الملك".

[المسلمون بعد سقوط غرناطة]

ظلت مواجهات عديدة مُستمرة بين الأندلسيين والإسبان إلى غاية سنة (896هـ) ستة وتسعون وثمانمائة للهجرة[1] ، وهي في ذلك مشابهة للحالة التي كانت تعرفها إفريقية قبل أن يسودها الإسلام مثلما مضى شرحه. في الأخير وبعد هذه الحروب انقضى الأمر بانهزام الأندلسيين، فنزحوا إلى أراضي إفريقية بعضهم لطلب المساعدة وبعضهم نفيا مِن أراضيهم.

وقد عانى الأندلسيون الذين بقوا في إسبانيا مِن العذاب والبطش الكبيرين الذين لحقهما مِن الإسبان، وهكذا فقدنا العديد من البنايات والجوامع والقصور وعمَّت هذه الحسرة؛ جعلت جميع مَن في إفريقية مِن عرب يغزون سواحل إسبانيا فلا يدعون لهم راحة لا من جهة البر ولا من جهة البحر، وقد فتح الله على السكان إفريقية بالعديد من الغنائم

/9/ التي كانوا يغنمونها. وفتح الله على العرب بالعديد مِن الانتصارات الحربية والسياسية، ما جعل الإسبان يُبدون هلعهم وقلقهم مِن ظهور قوة جديدة -نتيجة ما استفادته إفريقية من نزوح الأندلسيين- في سواحل إفريقية.

[أطماع شرلكان في بلاد المغرب]

بعد وفاة ملكة إسبانيا إليزابيث تولى بعدها زوجها فرديناند[2]حكم إسبانيا لوحده، ويشهد أنّه عبر التاريخ لم يُشتهر اسم لدى عرب إفريقية كاشتهار اسم هذا الطّاغية لبطشه وجبروته. ولأجل حسم المعركة مع عرب إفريقية، وكفّ تحرشاتهم وهجوماتهم على إسبانيا؛ قررّ الطَّاغية مهاجمة سواحل إفريقية وإخضاعها، فشكَّل مِن أجل ذلك جيشاً قوِيًا وبسرعة هجم بأسطوله البحري على ميناء المرسى الكبير المحاذي لمدينة وهران.

---

[1] في النسخة التركية (893هـ) وهو خطأ ظاهر.

[2] في الأصل شرلكان وهو خطا ظاهر، إذ المعلوم أنَّ زوج "إزابلا" هو "فرديناند" أمَّا شرلكان فهو مشهور بالهزيمة التي مُني بها عند "واد الحراش" سنة 1541م.

المرسى الكبير ميناء متين وحصين، ومحميٌّ بشكل جيّد في مواجهة أيّ هُجُومٍ بالمدافع، لذا لم يبادر الطاغية بالهجوم على هذا الميناء مِن البحر، بل فضل أنَّ ينقضَّ عليه مِن جهة البر.

نجح الطاغية في الاستيلاء على هذا الميناء وميناء بجاية، كما استولى أيضا على ميناء (كولت/Goullete)[1] التي تقع قبالة تونس وما يقابلها مِن قلاع وبعض الأجزاء في أرض الجزائر أصبحت تخضع لسلطة هذا الطاغية. كما تسيطر قوة مِن مملكة جنوة على ميناء مدينة جيجل (مدينة ساحلية في بلاد الجزائر)

الإخوة بربروس

/10/خلال نفس هذه المرحلة كان المجاهدون المسلمون يحصِّلون الكثير مِن الغنائم في البحر المتوسط، وجمعوا الكثير من الأموال والسفن التي ترجع غالبا للإسبان أو الإيطاليين، وأصبح من الصعب جدا على السفن المسيحية أن تتجوَل في بحر المتوسط من غزوات المجاهدين.

كانت سفن المسلمين تتمركز بموانئ "جربة" و"طرابلس" و"تونس" وغالب مَن يركب البحر في هذه الغزوات مِن أهل الأندلس الذين هُجِّرُوا مِن أراضيهم وقد اتَّخذوا مِن ميناء شرشال في الجزائر قاعدة لغزواتهم.

في الأصل كان أهل إفريقية يخوضون العديد من الحروب غير المنظمة، وقد وجد مزيج من الغزاة البربر والأندلسيين بالإضافة إلى العديد مِن الأجانب، اتَّفق البربر على انتخاب رجلٍ منهم لكي يكون حاكما عليهم فيما يشبه الإمارة أو المملكة صغيرة[2].

---

[1] ويقصد بها مدينة القل.

[2] في الأصل ذكرها المصنف بقوله: (دره بكى/ dere beyi) ويقصد بها المسؤول عن المقاطعة الإدارية الصغيرة في التاريخ العثماني.

لأنه كما مرّ بنا فإنَّ إقليم إفريقية ينقسم إلى عدة مقاطعات مثل: طرابلس وتونس، وماروك[1]، وقسنطينة، وبجاية، وتلمسان، والعديد من المجموعات اختارت لنفسها كيانات مستقلة /11/ كلٌّ منها تختار لنفسها حاكماً على رأس القبيلة، ومنذ نشأت هذه الكيانات وهي في صراعات لا تكاد تنتهي مع نظيرتها في المنطقة.

وسط هذه الحالة مِن الفرقة والخلاف ظهر على الساحة باربروسا، كان مِن السهل عليه أن يخضع هذه القبائل لسلطته. هذا الاسم: بابا عروج (*Baba Oruç*) كان الاسبان يلفظونه خطأً (باربروشا) ومعناها بالتركية صاحب اللحية الحمراء[2]، كان برفقة بربروسا أثناء بزوغ نجمه أخيه خير الدِّين، واستطاعا معا الاستحواذ على العديد مِن السفن المسيحية التي كانت تجوب البحر محمَّلةً بالسلع والبضائع المختلفة، فأصبحت بذلك أسماء هاذين البطلين تبثُّ الرُّعب في قلوب الأوروبيين، وأصبح مِن الصعب على السفن التي تحمل الأعلام الأوروبية أن تتجوَّل في عرض البحر المتوسط كما كان سابقاً.

ولحماية أنفسهم نشر الإخوة بربروس أنّ ما يقومون به في البحر هو مِن أجل قوَّة الدَّولة العثمانية واسترسلوا قائلين:" ما نفوسنا إلاَّ شيء هيِّنٌ في خدمة هذه الدّولة العلية، وما مهمتنا إلاَّ أن نبذل أنفسنا لحماية سفن الدولة العثمانية مِن أي خطرٍ يترصَّدها مصدره سفن لصوص البحر[3]"

---

[1] المغرب الأقصى غالبا ما يكتبه بهذا الشكل.

[2] لا يستخدم هذا المعنى في اللغة التركية، بل في اللغة الإيطالية.

[3] يوجد فرقٌ جلي بين "لصوصية البحر" وبين "القرصنة" فالأولى كما يُوضِّح "أحمد توفيق المدني" يُقصد بها عملية سلب ونهب يقوم بها مغامرون في عرض البحر وهي التي تعرف باللغة الفرنسية بـ (Piraterie) في حين أنَّ القرصنة هي نوع مِن أنواع الحروب البحرية التي تقع بين الدُّول المتعادية، والتي يكون الغرض منها ضرب اقتصاديات العدو، لذا فالقرصنة ذات نظم وقوانين ولها تقاليد معروفة لا تحيد عنها الأعراف ولهذا كانت

هذان الأخوان كانا بطلين نادرين في الشجاعة والغيرة على بلاد الإسلام وكان مِن ثمرة ذلك أن وجب الإشارة إليهما بالبنان والتعريف بهما في كل زمان بهذا التفصيل: في أواخر القرن الخامس عشر، وفي فترة سلطنت "بايزيد خان الثاني"، في جزيرة ميدلي بائع أحذّية[1] مِن بين جُند الصبايحية اسمه يعقوب له أربعة أولاد هم: إلياس، إسحاق، عروج، خيرالدين (له اسم آخر يعرف به هو خضر) كان أكثرهم فطنة وشهامة "عروج".

/12/ بعد وفاة أبيهم يعقوب، قام عروج[2] واصطحب معه كبير الإخوة إلياس مدفوعا بولعه بركوب البحر بالانطلاق من جزيرة ميدلي رفقة عدد من البحارة إلى عرض البحر بعدد مِن السُّفن، يمنّي نَفسه بالحصول على الغنائم، إلاَّ أنّه لم يكن محظوظا، إذ بينما هو يبحر بسفنه اعترض طريقه أسطول فرسان رودس، فدخل معهم في مواجهة انتهت بسقوط أخاه إلياس شهيدا، في حين وقع هو وعدد من رفاقه في الأسر، وبعد مدة من الزمن استطاع عروج أن يفرّ بنفسه مِن الأسر إلى (قره مان) (*Karaman*) ومنها انتقل إلى مصر.

وبعدد صغير مِن السُّفن عاود الخروج إلى البحر مِن جديد، في هذه الكرَّة تيسَّر له الحصول على الكثير مِن الغنائم، ما جعل ذكره ساطعا في الآفاق.

سنة بعد ذلك توجَّه عروج إلى السُّلطان مولاي محمَّد الحفصي والتمس مِنه أن يسمح له باستغلال أحد موانئ تونس مقابل أن يدفع له خُمس الغنائم التي يُحِّصلها. قبل السلطان الحفصي بهذا العرض، وقدَّم لعروج أحد الموانئ المتاحة لهذا الغرض كما سيأتي تفصيله.

الحكومات الأوروبية وغيرها تسلم القراصنة أوراقاً رسمية لممارسة القرصنة وتمنحهم صبغة شرعية تميّزهم عن لصوص البحر.

[1] في الأصل العثماني كتبت بابوشجي وبالتركية الحديثة pabuç أي حذاء ولحقتها الأداة (çu) وهي للدلالة على المهن فأصبحت الكلمة مركبة تعني صانع الأحذية.

[2] في اللغة التركية الحديثة يلفظ "أروج/Oruç" أي صيام، لكننا سنستغني باسم عروج عن "عروج" لشهرة الأول في بلاد الجزائر واعتماده أكثر من الثاني.

انضمَّ خيرُ الدِّين إلى جانب أخيه عرُّوج مرَّة أخرى/13/ وحصَّل العديد مِن الغنائم مِن السفن البحرية الإسبانية والإيطالية. مع ازدياد وكِبر حجم الغنائم التي نجح الإخوة بربروس في تجّصيلها بدأ تفكيرهم في تأسيس مملكة خاصة بهم ليتخلصوا بذلك من دفع ضريبة الخُمس مِن الغنائم إلى حاكم تونس الحفصي. وهكذا اتَّجهوا إلى بجاية وعزموا على اتَّخاذها مركزاً لنشاطهم.

وبجاية خلال هذه المدة كانت تحت يدّ الإسبان. في سنة ثمانية عشر وتسعمائة (918هـ) [1512-1513م] ركب عروج ريّس البحر في أربعة سُفن إلى بجاية، عند وصوله إليها رمي بالكور مِن قلعة بجاية حيث يوجد الإسبانيول فأصابت إحدى هذه الكور عروج ريّس في ذراعه لذا اضطرَّ خيرُ الدّين مِن أجل مداواة الجرح إلى إرسال عروج ريّس إلى تونس.

أصبح خير الدين القائد الأعلى في الأسطول لذا قرَّر أن يقصد سواحل إسبانيا لسماعه بما يلقاه المسلمون هناك مِن بطش وتعذيب، وسخَّره الله له مِن أسباب القوَّة ما يسَّر له إنقاذ أكثر مِن ثمانمائة[1] مِن المُسلمين الأندلسيين الذين أخذهم الكفرة الإسبان أسرى عندهم.

فَقَوِيَتْ بهم شَوكة خيرُ الدِّين ومن معه وعدَّهم نَفراً مِن جُنده، هجم هؤلاء الغزاة على قلعة مايوركا مِن أعمال إسبانيا انتصارا للمسلمين؛ فغنموا ما فيها مِن ذخيرة ومؤن، كما زادهم الله تمكينا فأسروا عَدداً مِن السَّفن، وعاد خيرُ الدِّين ومَن لزمه مِن المجاهدين في غِبطة ومسرَّةٍ إلى تونس يجاور بها أخاه عرُّوج ريّس.

[1] ذكر الأستاذ خليفة حماش في ترجمته رقم سبعمائة وهو خطأ لعله سبق قلم من الأستاذ لأن الأصل كتبت «...سكز يوز قدر إسلامي ...» أي ما أثبتناه في المتن.

[فتح جيجل]

/14/ كثيراً ما تواجه الجنويون عند إخراجهم عِمارتهم للبحر مع عمارة عروج، وبعد جملة مِن الوقائع بين الفريقين، مَنَّ الله على عروج بأسر ست سُفُنٍ مِن سُفن الجنويز، وأحرق عددا منها وعندما شفي من إصابته التي سبق ذكرها رجع عروج إلى ميناء "جربة" وانشغل بإصلاح وترميم أسطوله.

سنة تسعة عشر وتسعمائة (919هـ) وعشرون وتسعمائة (920هـ) [1513-1514م] انطلقا معا أي: عرُّوج ريّس وبجانبه خيرالدين بابروس معاودين الكرة إلى جيجل.

جيجل (مدينة على ساحل الجزائر) خاضعة لسيطرة الجنويين، اقتربت سفن الإخوة بربروس مِن جيجل وكان قد سبق الاتفاق مع العرب والبربر على أن يتقدَّموا مِن البر باتّجاه البحر بمجرد اقتراب سفن عرُّوج؛ وذلك حتّى ينشغلوا عن السُّفن التي تتربَّص بهم مِن البحر، فما إن تقدَّمُوا هجم عليه هو مِن البحر وأخذهم مِن قُرْبٍ.

لم يُذكر أنَّه شُوهد خلاف حول اقتسام الغنائم بين الغزاة مِن العرب والبربر وسفن الغزاة[1] من البحر، بل اقتُسِم ما فيه بالقسطاس بين المجاهدين، كما جُهِّزت إحدى السُّفن وحُمِّلت بعددٍ مِن الهدايا ومعها مفاتيح مدينة جيجل وبُعِث بها إلى الحضرة السلطانية بالباب العالي،/15/ وقد كان سلطان ذلك الزمان حضرة السلطان ياووز سليم، ولم يمض إلاَّ نزر يسير مِن الوقت بعدها حتى انتقل إلى رحمة مولاه عرُّوج ريّس. بعدها انتقل لقب "باربروسا" إلى خير الدين.

[1] الغزاة هنا يقصد بهم من كان مع الإخوة بربروس، وتستخدم لفظ "الغازي/Gazi" أو "الغزاة" في الثقافة التركية دلالة على المجاهدين.

في هذه المرحلة أي سنة اثنان وعشرون وتسعمائة (922هـ)[1] [1516-1517م] ونتيجة للظلم والجور الذي عانى منه أهالي الجزائر مِن الإسبان ولأجل الخلاص مما يفرضونه على أهالي مدينة الجزائر مِن ظلم رأى سالم التومي أنَّه لابد مِن الاستعانة بمن له القدرة على الدفاع على المسلمين ورفع تلك المظالم عنهم وصرَّح قائلاً: «على قدر أي قوَّة أوفرها ستبقى دون معنى بدون القوة البحرية لخير الدين بارباروس؛ لذلك إذا أردنا تحرير المدينة فنحن في أمس الحاجة إليه، ودونه لن ننجح أبداً في تخليص المدينة»

اتَّفق أعيان المدينة وعلماؤها على سداد رأي سالم التومي ورجاحته، بل وضرورة العمل به، فأجمع القوم مع خير الدِّين على رأي واحد هو هجوم خيرالدين ومَن معه مِن المجاهدين على الإسبان جهة البحر على أن يهجم أهل المدينة على الإسبان مِن جهة البَّر. وشرع القوم في إعمال ما اتفقوا عليه.

استطاع خيرالدين ومن معه من المجاهدين بهذه القوَّة الكبيرة أن يخلّصوا المدينة مِن الإسبانيول، كما نصح الإسبانيول الموجودين في برج الفنار[2] بالاستسلام وتقديم أسلحتهم فما كان لهم مِن شيء إلاَّ أن فعلوا ذلك

[1] في النسخة الحديثة باللغة التركية كُتبت سنة (933هـ) وهو خطأ ظاهرٌ.

[2] أحد الأبراج الأُوَل التي بنيت في الميناء القديم لمدينة الجزائر زو ما يعرف بالأميرالية حاليا، حيث شيد بشكل هندسي دائري في نهاية الرصيف الذي أنشأه خيرالدين بربروسا بعد تهديمه لحصن البنيون الذي كان أنشأه الإسبان قبالة ميناء مدينة الجزائر.يرتكز البرج على قاعدة دائرية قطرها 60 متر. ويحيط به خندق عرضه خمسة أمتار، للتفصيل أكثر انظر: جلال ج. (2021). برج الفنار بميناء مدينة الجزائر القديم (الأميرالية حاليا) (دراسة أثرية معمارية فنية). آفاق علمية، 13(5)، 109-127.
https://www.asjp.cerist.dz/en/article/167583

صاغرين[1]. إلاَّ أنَّ هذا الانتصار لم يكن ليسمح بجلوس أسدين في عرينٍ واحدٍ[2] فبدأ الخلاف بين خيرالدين وسالم التومي /16/ ليوجد سالم التومي ميّتاً بالسُّم[3]. وفر ولده إلى الإسبان، حاول الاسبان استغلال هذه الفرصة واسترجاع المدينة والتَّخلص مِن خيرالدين نهائيا فجهَّزوا عشرة ألف مِن جُندِهم بنية مهاجمة مدينة الجزائر، لم يستطيعوا دخول ميناء المدينة لحصانته فطافوا بسفنهم ناحية الصخور؛ وتمكَّن بعض الملاعين مِن دخول البر، وبمجرد أن وطأته أرجلُهم شرعوا في السَّلب والنَّهب بغير وجه حق.

لكن خيرالدين ومن معه من المجاهدين من أتراك وأندلسيين والعرب خرجوا إلى الإسبان ليتصدوا لهم غير أباهين بما قد يلحقهم مِن قتلٍ.

أمّا بالنسبة للأندلسيون الذين يقيمون في إسبانيا، زيادة على الرحمة والشفقة التي أحاطهم بها العرب[4] ومع وفاة حضرة السُّلطان العظيم ياووز سليم وصعود خلفه السلطان سليمان خان فقد حاول أن يحافظ على حقوق هؤلاء المسلمين خاصة منهم مَن وصل إلى سواحل بربارِيا، بل عمل على مساعدة مسلمي الأندلس للانتقال مِن إسبانيا، وتحالف السلطان سليمان في هذه الفترة مع ملك فرنسا البروتستانتي[5] فقد كان بدوره ناقما على طاغية إسبانيا وإمبراطور ألمانيا شارلكان، وأخذ منه العهد على عدائه /17/ واستُدعِي

---

[1] هذه الواقعة مُتأخرة نِسبياً عن التاريخ الذي ذكره المؤلف ففتح "حصن البنيون" كما هو معلوم تأخَّر إلى غاية سنة 1529م.

[2] يقصد المؤلف أنَّه يصعب وجود حاكمين لمدينة واحدة، أي أنَّ الاشتراك بين "خير الدين" و"سالم التومي" في حكم المدينة يستحيل.

[3] توجد رواية أخرى لوجود "سالم التومي" ميتًا في الحمام، وقيل أنَّ قاتله هو "خير الدين باشا" سنُفصِّل في الأمر لاحقاً.

[4] يقصد بهم سكان بلاد المغرب.

[5] يقصد على الأرجح فرنسوا الأول.

خيرالدين باربا‌روسا عن طريق سنان جاوش[1] إلى دار السعادة العلِيَّة وجناب الحضرة السُّلطانية لأجل رأيه في الموضوع.

قام الإسبان بهدف تجنب حدوث التحالف وانضمام خيرالدين إلى الدّولة العلية؛ وبغرض قطع الطّريق أمام خيرالدين -حتى لا يصل إلى جناب الدّولة العثمانية- قام الاسبان بنشر خبر نية طاغية إسبانيا عبور البحر؛ لأخذ بلاد بربا‌ريا مِن يد خيرالدين.

في ذلك الحين كان يوجد حسب بعض التقديرات ما يقارب سبعة آلاف مِن الأسرى المسيحين، وكان من بينهم الكثير من فرسان رودس، سعى الطاغية إلى التَّحيل لإطلاق سراحهم لأنه كان يعلم أن القتل لا محالة ينتظرهم. كما فكَّر أنَّه بعد تحريرهم سيستعين بهم على أخذ الجزائر وإحكام السيطرة عليها، مثلما اهتمَّ أيضا بتعزيز قواته المتواجدة في القلاع؟

بعد أن أوقف خيرالدين سيطرة الإسبان على برج الفنار وضمه إلى الميناء أعلن انضمام الجزائر لجناب الدولة العلية، ورفعت الدعوة على المنابر للحضرة السلطانية العثمانية.

كما قامت ثورة في تلمسان ضد الوجود الإسباني هناك، وطلب سكان تلمسان نجدتهم وحِمايتهم مِن هؤلاء الطّغاة الإسبان الذين لا يرفعون السيف من على رقاب المسلمين.

ترك خيرالدين باربا‌روسا خادمه[2] حاكما على الجزائر وانطلق قاصدا استنبول/18/ دار الخلافة العثمانية، انطلق خيرالدين في أربعين سفينة حاملا

---

[1] يعرف أيضا بسنان باشا، رجل دولة وعسكري ألباني في الجيش الانكشاري، تقلد عددا من المناصب العسكرية والإدارية الهامة في الدولة العثمانية، نسب له فونتير دي بردي كتاب غزوات خيرالدين وعروج وترجمه تحت عنوان :" Histoire des Freres Barberousse Arroudj Et Khaireddine" كان قائدا للحملة العثمانية لاسترجاع تونس سنة 1574 توفي على الراجح سنة 1596.

[2] يقصد به ابنه بالتبني حسن آغا.

هدايا دار الخلافة، وقبل وصوله استنبول غزى على جزيرة سردينيا فظفر منها الغنائم والذخيرة، ثمَّ زاد على ذلك فهاجم بعض سواحل الكفار الجنويز ومكَّنه الله منهم، وفي طريقه زاده اللهُ مِنَّةً إلى مننه السابقة فأخذ عدداً مِن سُفن لصوص البحر، قام بعدها بإرسال ما غنمه إلى دار الخلافة حتى تزداد قوَّة إلى قوَّتها، وحينها التقى مع الأسطول العثماني الذي كان يتزعمه القبطان أحمد باشا، والذي أرسل في مهمة إلى قورون، انطلقا معا مِن نفرين التي التقيا بها إلى إسطنبول، وهناك سلَّم خَيرُ الدِّين لحضرة السلطان مفاتيح الجزائر.

سلَّم القبطان أحمد باشا مفاتيح أحد القصور التي تقع بميدان الأحصنة[1] لإقامة خيرالدين ومن الغد في اليوم الثاني دخل خيرالدين على الحضرة السلطانية فابتُهج به ولقيَ مِنهُم مَا سَرَّه. من أجل ملاقاة خادم الدولة وصدرها الأعظم سر عسكر البر والبحر الصدر الأعظم إبراهيم باشا، سعى خيرالدين إلى ملاقاته غير أنّ الصدر الأعظم كان في حلب، لذا اضطر خيرالدين إلى المشي إليه هناك، وعندما وجده أنعم عليه الصدر الأعظم بمنحه رتبة باي لر باي الجزائر، وبعد أن قضى مراده من هذه الرحلة عاد خيرُ الدِّين بعدها إلى إسطنبول.

كان قد أنشأ للدّولة العلية إحدى وستين قطعة بحرية مِن نوع كادرغا[2] وألحق بها خمس قطع بحرية كانت له وانضم لها عددٌ آخر من السفن حتى بلغ عدد سفن الأسطول كاملة أربعا وثمانين سفينة انطلق بها للقاء القبطان أحمد

---

[1] وهو موجود إلى اليوم قبالة المسلة المصرية في ساحة مسجد السلطان أحمد.

[2] تكتب باللغة التركية kadırga ويقصد به القوداس. وهي سفينة حربية تستخدم غالبا في عمليات القطر، تستخدم المجداف في التحرك، تحمل على متنها 50 مجدفا موزعين على جهتين. اشتُهر استخدامها في البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الثامن ميلادي، وبقيت مستخدمة وتتطور إلى غاية القرن السابع عشر، عندما تراجعت مكانتها لصالح السفن الأكثر تطورا.

باشا، توجد هذه المعلومات بحيثياتها في "تاريخ خير الله أفندي" في المجلد الحادي عشر عند كلامه عن "مشاهير العثمانين" وأوردها في رسالة تامة.

مِن أجل صعوبة فتح تونس رأى "خيرالدِّين" أنَّه يجب أن تشتِّي سُفن الأسطول العثماني في ميناء حلق الوادي بتونس ولهذا يجب فتحه؛ مِن أجل ذلك لم يحبذ "خيرالدِّين" التربّص في البحر بل فضَّل المشي قُدماً إلى تونس وفي أثناء ذلك توفي محمَّد الحفصي حاكم تونس مُخلِّفاً أميرين: السلطان حسن والسلطان رشيد، جلس السلطان حسن على عرش تونس وبربريا باعتباره الأكبر سنا كما هي العادة.

أما الأخ الأصغر السلطان "رشيد" فقد صار واليا على بلد العناب، وكان يلقى معاملة حسنة من أخيه السلطان حسن، لكن سيرة أخيه السلطان رشيد مع الإسبان لم تكن ترضيه، بل كان يراها سيئة لا تليق بهما./20/ وفي غفلة من السلطان حسن تعاظم نفوذ الإسبان؛ حتَّى أنّ كلمتهم أصبحت هي الأعلى. وإذا قالوا لشيء هكذا يكون كان كما أرادوه، وبالنظر إلى هذه الحالة وما كان يحدث في الجزائر إذ كان قد قُتِل سليم التومي، وسيطر خيرالدين باشا على الجزائر واستعان بما يَقدُم إليه مِن دعم مِن جانب الحضرة السلطانية، إذ كان يأتيه في اليوم الواحد خمسمائة مِن [قجه/جندي] عثماني وجلس على حكم الجزائر بأمر من السلطان الأعظم.

هذه المرَّة بدخول خير الدِّين إلى تونس سيجد في استقباله أهالي تونس الذين ضاقوا ذرعا بما أحدثه سلطانهم الحسن الحفصي، ويريدون التَّخلص من جوره، لهذا قبِل خيرُ الدِّين دُّخول المدينة ولأجل التخلص من هذا السلطان وحفظ المدينة من يد الإسبان، وفكّر خيرالدين في دخولها رفقة السّلطان رشيد الحفصي أخ السلطان حسن.

فلما سمع السلطان حسن بذلك غيَّر طريقة تعامله مع الأهالي وجنح إليهم حتَّى يساعدوه على الفرار من وجه خير الدين وأخيه السلطان رشيد، لكن لما سمع بأن أخيه لم يأت مع خير الدين في عمارته وأنهما لم يصلا إلى اتفاق خير

الدين؛ تجددت عزيمته وقويت شوكته، وحدَّثته نفسه بهزيمة خير الدين فخرج إلى حربه، لكن السلطان حسن لم يصبر على الصمود طويلاً وفرّ هارباً. بعدها أمر خيرالدين باشا بذكر جانب السلطان سليمان في الخطبة على المنابر /21/ وأعلن دخول تونس حوزة السلطنة العثمانية وأصبحت بذلك واحدة من الممالك المحروسة.

والسلطان حسن المذكور لم يكتف بأفعال السوء التي مارسها وقت حكمه بل سعى قليل النخوة والمروءة إلى أعداء الدِّين من الإسبان الصليبيين ليساعدوه على استرجاع ملكه، وقد وجد الطاغية الإسباني شارلكان في استنجاد هذا الخائن به مراده؛ حتّى ينتقم مِن السُّلطان سليمان الذي أذاقه الذل والهوان، وحتى لا تضيع هذه الفرصة من بين يديه فقد أكمل استعداده من أجل مساعدة الخبيث، فجمع الطَّاغية مِن البرتغال والإسبان ما يقرب مِن الثلاثمائة سفينة عليها أربع وعشرون ألفا مِن الملاعين أرسلهم إلى أحواز تونس أمَّا خير الدِّين ومن معه من التونسيين قاموا بإغلاق أبواب قلعة تونس وميناء حلق الوادي، وفكر في أن تكون جهة محمية جيدا بالمدافع بينما ينطلق من الجهة الأخرى الهجوم.

كانت التعزيزات التي عند خيرالدين قليلة جدا إضافة إلى أنّ جعفر باي السلطان الحفصي الذي وضعه على تونس مال إلى جنب السلطان حسن الحفصي ونقض عهده. لهذا رأى خيرالدين أنَّه من العبث الدفاع من هنا بل الأحرى العودة لبجاية، ومنها تنظَّم الصفوف وتنطلق الحرب مِن جديد،/22/ وهكذا دخل السُّلطان حسن الحفصي تونس مِن جديد وعاد ملكا عليها.

تذكر الروايات الصليبية أنَّ خيرالدين بربروس قُتل في هذه المواجهة هكذا يذكر، أما روايات إخباريين المختلفة فإنها تثبت كذب ما افتراه الصَّليبيون. والخبيث حسن الحفصي بعد أن عاد إلى الملك قام باغتيال جميع أنصار أخوه السلطان رشيد انتقاما منهم.

قدِم خير الدِّين باشا إلى بجاية ومنها خرج إلى الجزائر، بعد هذه الواقعة اتجه خيرالدين باشا إلى دار الخلافة العلية وأعطى عهدا لجناب السلطان العثماني ألاَّ يهدأ له بالٌ حتَّى ينال مِن شرلكان أينما كان، بينما نشر الأخير أنباء نصره في كل بقاع الممالك النصرانية.

بعد مدة قصيرة خرج خيرالدين باشا من الجزائر بعمارة بحرية غزى بها على جزيرة مايوركا، فمكنه الله من أسر ألفين من النصارى، ثم ضم الجزيرة للجزائر، وأخذ النَّصارى الإسبان في مقابل دعمهم لسلطان تونس ميناء حلق الوادي، /23/ ونُصِب على رأس قلعة حلق الوادي مجموعة من خمسة آلاف مِن النَّصارى الإسبان، هكذا بسط النصارى الإسبان لعنهم الله أيديهم على كلِّ الساحل وما يشمل من طرابلس، وحلق الوادي، وجربة، والقيروان.

أثناء عزم خيرالدين على الخروج مِن أجل استعادة تونس سنة 948هـ، جهز شارلكان قوَّة عظيمة لكن هذه المرَّة كان مُراده الجزائر؛ مِن أجل أن يظفر بها ويطرد المسلمين منها مذلولين خائبين كما كانت تحدِّثه نفسه-طبعا ماعدا مَن وافقه على فعله منهم-ولما بلغ خيرالدِّين الأمر تحمَّس لنجدة الجزائر وعدَّها فرصة سانحة للقضاء على النصارى، خاصة أنّه في هذه المرَّة اتفقت الدَّول النَّصرانية إيطاليا وصقلية ونابولي على محاربة الجزائر، واستجلبوا أقدر جندهم وخيرة عساكرهم وتحت أيديهم أفضل الأسلحة والجند في غاية التنظيم، وفي الطرف الآخر الجزائر محاصرة لوحدها.

خرج في هذه الحملة جميع أعيان إسبانيا وأكابرها حتَّى أنَّ فرديناند كورتيز (الاسم لمن احتل المكسيك) ومعه ثلاثة من أبنائه.

من إيطاليا ثلاثة من أكثر رجال الحرب شجاعة وبسالة وشهرة من آل كالون وآل دوريا وآل سبينوزا وجاءوا هم أيضا بالعديد مِن العساكر، انظمت كل العساكر الموجودة إلى الأسطول الإسباني /24/ ومنح شرف قيادته لأشهر وأعظم قادة البحر الصليبين آنذاك أندري دوريا/Andrea Doria.

عمل بابا الكنيسة الاسبانية كثيرا على الوقوف في وجه خروج هذه الحملة لكنه لم يستطع الوقوف في وجه الملك شارلكان الذي ساق الجيش زمرا زمرا باتّجاه الجزائر لمحاصرتها.

ضمت العمارة سبعين حراقة، وما يقارب المائة سفينة صغيرة وصلت للانضمام للحملة، انطلقت السفن مِن السّاحل وعلى متنها العساكر وشرعت في الخروج إلى البحر.

كان سفن الإسبان والألمان والبرتغاليون والإيطاليون والمالطيون تحمِل اثنين وعشرين ألفاً مِن المشاة وألفاً ومائة مِن الفرسان، عندما حاولت السفن أن تُنزل الجند إلى البر حاول أهالي الجزائر اعتراض سبيلهم، لكنهم لم يوفقوا في ذلك بسبب تواصل قذف الكور مِن جهة سفن النّصارى.

والحاصل أنّهم قاموا بمحاصرة مدينة الجزائر مِن كل الجهات، ورغم أنّ العرب حاولوا مهاجمة الأسطول مِن الطَّرف الأيسر للمدينة إلاَّ أنَّهم وجدوا أنفسهم في مواجهة الطّاغية وهو يقود الجيش بنفسه، استطاع الطَّاغية التَّقدم إلى المناطق الخاضعة للقائد "سيدي يعقوب" وقام هناك ببناء قلعة للمراقبة[1].

/25/ بهذه الصُّورة أصبحت مدينة الجزائر كلّها محاطة بحصار ممهّدٍ لغزوها، وبينما الحال أن قوات النصارى الملاعين منتشرة تترصَّد الهجوم على المدينة وأخذها، تدخلت مشيئة الرحمان فكان مِن حكمة الله أنَّ أرسل الصواعق مِن السَّماء وجلجل الرعد في كلّ الأنحاء، وبدأ المطر ينهمر من السماء، فكأنَّما هو مِن شدَّته طوفان نوح عليه السلام جاء ليُغرق هؤلاء الكفرة، ومن شدّة الهول أصبح النّصارى الذين أتوا معا لا يعرفون بعضهم

[1] ذكرها مسلم بن عبد القادر في كتابه المسمى "أنيس الغريب والمسافر" وقال إنَّ اسمه برج الطاووس وسُمي بعد ذلك بحصن الامبراطور انظر: مسلم بن عبد القادر، أنيس الغريب والمسافر ص 13.

البعض، والسّفن التي كانت في البحر تداخلت في بعضها وفوجئت بحالها وما أصابها، أما العساكر الذي دخلوا البر فإنهم افتقدوا خباءهم وبقيت هذه حالهم من هطول المطر من أول الصباح إلى الليل، بل لم تنقطع تمام إذ زاد الأمر سواء على سوء حالتهم إذ اشتدّت الرياح العاصفات والأمطار العاتيات في الليل، وتساقطت سواري السفن الراسيات في البحر فغرقت، وسيقت بعض السفن التي تعطَّبت فألقى بها الرّيح إلى جهة البر.

مع كل تلك الأحوال افتقد النصارى الزاد، فازدادوا سواء على سوء واندهشوا لما انته إليه حالهم، وكيف تكدَّرت أحوالهم، وكما سبق ذكره فقد ترك خيرالدين باشا خليفته على الجزائر حسن باي، فخرج مع عساكر المسلمين وما عنده من جند الباب العالي فهجموا على الملاعين يأسرون منهم ويقتلون حتى تركوهم مفجوعين.

في الطرف الآخر نجد العساكر الذي قدموا من مالطا/26/ يهمون بالانصراف، أمَّا ملك إسبانيا شرلكان وجميع جنده مِن الألمان فقد كان حسن باي مجبرا على الخروج إليهم، وحسب ما سمعنا من روايات فإنَّ الألمان خسروا في هذه العاصفة مائة وخمسون سفينة بداخلها ثمانية آلاف من عساكر النصارى، وحتَّى السُّفن التي بقيت فأنَّها كانت في حالة يرثى لها من العطب وسوء الحال.

في هذه الأثناء أرسل الأميرال أندري دوريا إلى شارلكان يذكره بالحالة السيئة التي وصل إليها الجند وترجاه بضرورة الانسحاب وترك هذه الحرب، وطلب مِن الطَّاغية أن يرسل بعض السفن إلى جهة برج تمنفوست من أجل إنقاذ عساكر النصارى هناك، ومع سوء الحال فإنّ الطاغية امبراطور إسبانيا شارلكان رفض الانسحاب من المواجهة. في هذه الحالة امتد نزول الامطار والبلاء من السماء وانعدم الغذاء، فاتجه الجُندُ إلى ذبح خيولهم وتقسيم لحمها، في الأخير تحمل الأميرال القرار واتجه بالسفن إلى ناحية تمنفوست منها شرع النصارى في ركوب السفن فرارا مما لحقهم، وفي هذه الأثناء كانت بجاية (انتقلت مدينة

بجاية لتصبح قطعة مِن الجزائر، لبجاية ميناء غاية في الروعة) تحت أيديهم فتركوها ولاذوا بالفرار.

قام شارلكان بتوديع مختلف جنرالاته وقادته ثمَّ تفرَّقوا، يروى أنَّه أصبح راهبا وأنَّه دفن بالجزائر. في أثناء هذا الهجوم كان يعيش بمدينة الجزائر مُتجولاً مثل الدراويش أحد أولياء الله الصالحين اسمه "ولي داده" يرفع دوما على كتفه درع الحرب، عند بداية هذا الهجوم استنجد بصلاحه ودعواته أهالي الجزائر فذهب إلى الشاطئ وضرب بعصاه البحر وفجأة بدأت العاصفة المذكورة على ما يُروى.

/27/ في بادئ الأمر كان عساكر النَّصارى يمنُّون أنفسهم عند مهاجمة الجزائر بأن يقوم أهالي الجزائر بمساعدتهم؛ لأنّهم في الواقع ما جاؤوا إلاَّ بطلب مِن أهالي الجزائر إلى طَّاغية إسبان يرجون مساعدة منه كما شُرح لهم. وقد قيل إنّ الطَّاغية بعد ذلك وفي طريقه إلى جزر الكناري قام برمي سلاحه إلى البحر، وقد ذكر في تلك الحالة عند هبوب العاصفة كيف اصطدمت سفن النَّصارى بعضها ببعض وبدأت في الغرق، وكيف تساقطت الصواعق في كل الأرجاء، انشقت السماء بماء منهمر أغرق سفن وعساكر الأعداء، وهكذا ساءت حالهم وانتكست أحوالهم وتلفت آلاتهم وانقلب الطَّاغية مذموما مخذولا وبسبب هذا المآل رمى الطّاغية سلاحه والتزم الرهبنة كما مرَّ.

الفصل الثاني: بيان أحوال الجزائر قبل فتح خير الدين باشا لها

أُسِّست الجزائر في قديم العهد من طرف قدماء الروم، وسمَّوها (أكوزيوم) بمعنى مدينة الجبل، وقام بارباروس بعد قدومه إليها بزيادة تنظيمها وتوسيع عمارتها.

/28/ وبعد الرومان شهدت الجزائر حروباً عديدة وأصبحت خرابا، بعد ذلك وفدت إليها قبيلة (بني مزغنة) العربية واتخذتها مسكنا لها.

في تلك المرحلة ولأن المدينة كانت محاطة بالبحر مِن جهات عدّة؛ اتّخذ لها اسم جزائر بني مزغنة، ونجد أنّ المدينة اشتهرت بهذا الاسم ولازمها على امتداد ستة قرون، وفي القرن الخامس عشر زادت الهمة والمحاولة من أجل تعمّير المدينة أكثر، خاصة مع وفود العديد مِن مهاجري الأندلس.

وقد اتّفق الأندلسيون بما لهم مِن علوم دينية وتمدّن وحضارة وما انتشر بينهم مِن مهن جلبوها من الأندلس على أن يعملوا لأجل جعل مدينة الجزائر قادرة على دفع الغزاة الإسبان، ولحماية أنفسهم من الإسبان ولكي تكون الجزائر قلعة للمسلمين؛ قاموا ببناء صرحين وهما مشاهدين شامختين إلى اليوم في الجزائر، الأوَّل متَّصل بالجامع الكبير، والثاني قلعة باب البحر. وكلاهما يقابل ميناء الجزائر. مِن أجل تحصين المدينة فإنهم حاولوا بناء أبراج في كل مكان للدفاع عنها، لكن في الأخير قدم الإسبان وبنوا أيضا قلعة برج الفنار[1].

ثمّ لما مكن الله خيرالدين من فتح الجزائر فقد ربط ببرج الفنار بالجزائر صرف خيرالدين جُهداً عظيماً وصبراً جليلاً في إنشاء ميناء مدينة الجزائر ولأجل تنظيم شؤون أهالي الجزائر نصَّب خير الدين شيخ البلد.

[1] سبق الإشارة إليه في أحد الهوامش السابقة.

لما فرغ من تنصيب شيخ البلد رجع إلى مجلس البلد وعساكر الإنكشارية فقام بضبط أسماءهم وبناء محلات لإقامتهم، ثمّ قام بإرسال محلة إلى كل جهة من المدينة لحراستها، وخصّص في وسط المدينة بناء تدار منه البلد كلها سمّاه (دار السُّلطان).

في زمن "خير الدين باشا" في سنة واحد وثمانون وتسعمائة 981هـ اتسع عمران المدينة كثيرا، حتَّى أنَّه خلال هذه المدة أنشأت اثنا عشر ألف دارٍ وكان قد بلغ عدد قاطنيها ستين ألف نفسٍ[1].

/30/ بلغ عدد جوامعها بين كبير وصغير أربعة ومائة، وأنشأ ثلاثين مُستشفى، وأهالي الجزائر ليسوا مِن أهل الصنعة والحرفة لهذا ندر وجدهم وهذا عيبٌ منهم. لهذا فغالب الصناعات من خياطة وطرازه وحياكة وصياغة من حرف اختصَّ بها اليهود، أمّا أحسن وأشهر عمّال في أعمال النسج والحياكة وخياطة الحرير فنجدهم في تونس وطرابلس، كما نجد بعض النساء تختص في خياطة الألبسة والمنشفات والأحزمة الحريرية.

ولعلم خيرالدين باشا بما للأندلسيين من تمدُّن وفهم وعلم بأمور الحضارة والسياسة والتنظيم؛ فإنَّه كثيراً ما كان يستعين بمشورتهم في التَّدبير والتَّنظيم وبالجملة فتنظيم المدينة وتدبير أمرها وصوغ سياستها الراقية إنما منبعه من مشورته للأندلسيين. هكذا أسس نظام هو الأحسن، ومثلما أوردنا سالفاً فإنَّ خيرالدين قد استُدعِيَ إلى جناب الحضرة العلية والعتبة الشهانية، وبعده اختار رياس البحر صالح ريس لقيادة محلة الجزائر، وجعلها في فترة حكمه أكثر قوَّة مِن ذي قبل.

---

[1] ويورد ديغو دي هايدو الأسير الإسبان المحرر من المدينة في كتابه طوبوغرافية الجزائر أن عدد منازل المدينة في النصف الأول من القرن السادس عشر بلغ 12200 منزل بين كبير وصغير.

/31/ بعد إنشاء وتوسيع ميناء الجزائر، ظهرت تجارة بين الدولة العلية والدولة الفرنسية، وتمّ إمضاء عهد نامة[1] بين الحضرة العلية والدّولة الفرنسية أكدت التعاون التجاري بين البلدين، في تلك الأثناء كانت الكثير مِن الحروب قائمة بين الملك فرنسوا الأوَّل وملك إسبانيا شارلكان ما حمل فرنسا على التَّقرب والاتفاق مع الدولة العلية بما يحفظ مصالحها.

كانت المعاهدة في زمن جانب السلطان الأعظم سليمان، ونص على شمول هذه المعاهدة كل أراضي وممالك الدولة العلية، وبمقتضى هذا فالجزائر قطعة من هذه الممالك؛ فزادت التجارة بين الجزائر وفرنسا وامتدت هذه التجارة إلى غاية مدينة قسنطينة.

إلى القرن الثلاثين (كذا)[2] كانت مرسيليا تعد مملكة منفصلة ومستقلة بحكومتها ونجد أنّ لها تجارة جيدة مع إفريقية، في الأخير أصبحت مرسيليا جزء مِن الدولة الفرنسية، ولهذا فقد عاملتها الحضرة العلية بما تعامل به الدولة الفرنسية ودخلت في المعاهدة المذكورة آنفا.

نجد في مارسيليا العديد من التجار، استطاع نفران منهما تأسيس عمل جيد لهما في مدينة عنابة، أنشئا بناءً كبيراً بها، وشرعا في استخراج المرجان مِن الساحل. وعند قيامهما بذلك يرسلا مقدار ممَّا استخرجاه لباشا الجزائر يكون بمثابة ضريبة لأعمالهما. ومن أجل توسيع العمل أكبر فإنهما طلبا إذناً مِن الدّولة العليّة حتَّى يُحصِّلاَ هذا الامتياز، وقد تحصَّلُوا على امتياز صيد المرجان حقيقة، ودام لهم هذا الأمر إلى سنة أربعة عشر ومائتين وألف 1214هـ.

---

[1] كلمة مركبة من جزئيين عهد بالعربية وهو ظاهر الدلالة ونامة ويقصد بها قانون، أُطلقت الكلمة في المرحلة العثمانية لتدل على معنى الاتفاقية أو المعاهدة بين طرفين أو أكثر. ويقصد بها هنا الاتفاقية الخاصة التي منحت بها الدولة العثمانية لفرنسا عدداً مِن الامتيازات التجارية.

[2] لعله يقصد السنة الثلاثين من القرن السادس عشر.

وبهذا الشكل تحصّل أهالي مرسيليا على امتياز توسيع تجارتهم، وخلال هذه المدة لم يكن قد تم الاعتراف بأي ملك خارج ملك فرنسا، ومِن أجل ذلك أُرسل مبعوثٌ إلى الباب العالي من حاكم مارسيليا التمس مِن الباب العالي أن تعترف به امبراطوراً على مارسيليا ليكون في خدمة الدولة العلية، كما سيكون في خدمة باد شاه فرنسا شارل الحادي عشر[1]. لكن أظهرت مملكة مارسيليا نوعاً مِن التمرد ضدّ سلطة الملك الفرنسي، ما حمل الباب العالي على إرسال خطاب إلى حاكم مارسيليا جاء فيه: «بلغنا تمردكم وعدم طاعة سيّدكم، فليكن في علمكم أن تجارتكم في إفريقية مرتبطة بطاعتكم له، /33/ وإلاّ أمرنا بسحب جميع ما بأيديكم مِن تجارة في أراضينا» وفي وقت قصير أذعنوا لحضرة السلطان وأعلنوا طاعتهم لملك فرنسا الجديد (هذه التجارة امتدت في الجزائر إلى آخر حكومة الإسلام في هذه الأرض، وكان لانخراط اليهودي المدعو (بكري) في تجارة المرجان والديون نتيجة الضرائب المترتبة عنها أثر كبير سنأتي إلى تفصيلها لاحقا)

في مطلع هذا القرن أي القرن السادس عشر قام خيرالدين بتوجيه جهده إلى ناحية وهران لمحاصرتها، وأثناء عزمه على ذلك جهزت الدولة العلية عمارة لضبط جزر البحر وطلبت من الجزائر إرسال أسطولها للمشاركة في هذه العمارة، بكل حزم وسرعة انتخب خير الدِّين مِن أسطوله في الجزائر خيرة السُفن وانتقل بعزيمة ونية صادقة للغزو والجهاد، ظهرت في الحرب حنكته وكياسته ونال شرف الغلبة والانتصار.

[1] لا يوجد في تلك المرحلة حاكم باسم شارل الحادي عشر في فرنسا لذا لعله يقصد شارل التاسع الذي حكم سنة (1560-1574) أو أنَّه قصد بقوله الحادي عشر من فئة Les Galois أي قصد به Francois II ولعل الأرجح هو الرأي الأول.

في هذه الأثناء، كانت تونس تحت يد الإسبان لذا قام سليمان باشا وجنده وقوَامهم ستة آلاف /34/ فرد باسترجاع مدينة تونس ثمَّ قَدِم باش كومندان سنان باشا بقوة عظيمة وقام بوضع كامل البلاد التونسية تحت يده ونظمها مثل الجزائر وصك العملة بها، وأهالي تونس ليسوا مثل أهالي الجزائر، إذ أغلبهم ميّالون للتِّجارة لهذا نجدهم موفقين في التجارة أكثر من الجزائريين، ولهذا وضع نظام إداري خاص مرتبط بطريقة خاصة بالنظام التجاري.

وقد فتح الله على أهالي الجزائر خلال هذه المدة من الزمن بما لم يفتح لغيرهم، فكانوا كلما غزاهم النصارى الإسبان أظفرهم الله وأعزهم بنصره امتدَّت حروب الجزائريين والإسبان سنوات عديدة كان النصر في غالبها لأهالي الجزائر.

اعتاد رياس البحر[1] الجزائريون أن يقوموا بملاحقة سفن لصوص البحر غير أنَّ دولة الانجليز كانت ترى بأنَّ رياس البحر لا يلحقون فقط سفن اللصوص وإنما يستولون على سفن قراصنتها أيضا، بهذه الذريعة اتجهت عمارتها إلى ميناء مدينة الجزائر سنة اثنان وثلاثون ومائتين وألف (1232هـ) [1816م] حاملة السنجاق الأبيض للمفاوضة، واحتراما لهذا السنجاق سمح رياس البحر لهذه العمارة بالاقتراب إلى الميناء ولم يُتعرَّض لها.

بمجرد أن قَرُبَت رست إحدى سفن هذه العمارة بالميناء، خرج أهالي الجزائر من كبار وصبيان لمشاهدتها، نزل أحد العساكر منها إلى باشا الجزائر/35/ حاملا له خطابا جاء فيه: «أنتم تخالفون اتفاقنا، لأنّه وبحسب اتفاقنا مع الدولة العليَّة فإنَّه يجب أن لا تقوموا بأي حركة عندما تقابلون سفننا» غير أنَّ باشا الجزائر لم يلتفت إليهم. أمّا العمارة فإنَّها أنزلت العلم الأبيض الذي دخلت به الميناء، ورفعت مكانه علم الحرب والغزو، ثمَّ أشارت للأهالي الذين يراقبون

[1] استبدلنا كلمة قراصنة برياس البحر.

العمارة بأنَّها ستبدأ بإطلاق الكور على المدينة، لكن الأهالي كانوا يجهلون هذه الإشارات.

وهكذا شرعت العمارة في قنبلة المدينة ورمت بالكور على الأهالي الذين كانوا هناك فأصبحوا مُحاصَرين من كل مكان، وسقط العديد من الأهالي قتلى هذا الغدر، ثمّ بدأت المدافع تردّ من الجزائر على السفن وانضم باشا الجزائر بنفسه للدّفاع عنها. امتدّت هذه المعركة قدرَ يومٍ كاملٍ. ليلا قام الانجليز بحرق عدد من سفن الأسطول الجزائري، وبسرعة أخذ القادة الجزائريون سلاحهم وعادوا للقتال؛ لاعتقادهم أنَّه لم يبق الكثير على سقوط الأسطول الإنجليزي وانهياره، وهم أيضا احترق لهم العديد مِن السفن الكبرى، عند هذا الحد لم يكن يمكن للحرب أن تمتدَّ أكثر من هذا، فلا أهالي الجزائر /36/ بقيت لهم الطَّاقة على التحمل ولا عمارة الانجليز بقيت لها القدرة على المواجهة. خلال هذه الحرب شهدت العديد مِن المباني والجوامع الخراب وأصابتها المدافع بالكور فتركتها خراب بعد عِمارةٍ، كما تكدَّست أجساد الشهداء قُبالة باب البحر ولم يُقدر على دفنهم.

عندما أوقف الانجليز القصف بالكور وأثناء تفكيرهم في طلب المفاوضة ورد إليهم رسولٌ من عمر آغا باشا الجزائر مُسرعا يُلحُّ في طلب الاتفاق؛ ففرحوا بذلك؛ لأنَّ الاتفاق أصلاً كان سيحصل منهم لا محالة، فوافقوا مِن ساعتهم وبدأوا التفاوض، فانتهوا إلى اتفاق جاء فيه: «أنَّ لِعمارة الانجليز أن تأخذ كلَّ الأسرى النَّصارى الذين بيد المسلمين في مدينة الجزائر[1]، كما تقبل الجزائر بفداء الأسرى الاسبان الذين بيدها، وتدفع الجزائر مصاريف العمارة وجميع تكاليف الحرب.

[1] تذكر بعض وثائق الأرشيف العثماني التي وصلت الباب العالي بعد اغتيال عمر آغا أن عدد النصارى حينها كان ثلاثة آلاف أسير قام بإطلاق سراحهم جملة واحدة، وهو مما جلب السخط من الانكشارية على عمر اغا فقاموا بإعدامه.

بعدما حققت عمارة الانجليز مرادها وأخذت المال والعديد من الأشياء فتحت أشرعتها ومضت إلى بلادها.

سنة أربعين ومائتين وألف 1240هـ [1824م] في زمن حسين باشا أيضا جاءت عمارة ترفع سنجاق الانجليز وأعلنت الحرب على الجزائر لكن دونما قتال عقد الصلح. في السنة نفسها أعلنت الحرب ضد فرنسا /37/ لم يصل الطرفان إلى نتيجة محدَّدة، سنة بعد ذلك جهّزت فرنسا عمارة كبيرة لمحاربة الجزائر، غير أنّ الجو لم يساعدها، لذا لم يستطيعوا الاقتراب من ميناء الجزائر، وبقيت العمارة تقصف الجزائر مِن بعيد طيلة ثلاثة أيام دون أن يأخذوا منها شيئا.

بعدها بعام قامت فرنسا بتجهيز عمارة كبيرة عظيمة متكاملة جاءت للحرب لكن أخذت تبحث عن أمور جديدة أكثر من المعاهدة.

سنة سبع وثمانين وألف 1087هـ [1676م] بعد أخذ جيجل التي كانت في يد الاسبان بالحرب ثمّ أتبعت بعد ذلك بفتح مدينة الجزائر، إلى هذا التاريخ كان تعيين وإرسال الباشوات يكون من جناب الباب العالي، أما مَن لم يتم إرسالهم ينعقد لهم فصلا في التعريف بهم، طوال ستة وتسعون ومائة سنة نجد أنَّ اختيار الحاكم يتم بين المشهورين من الباشوات مِن طرف الأهالي والعساكر؛ لأنَّ خيرالدين -كما مرَّ ذكره- وضع مجموعة مِن العادات والتَّقاليد في اختيار مَن يُسيّر شؤون الإيالة: بحيث يجتمع أهل الرأي والعساكر فيختارون من له القدرة والحنكة والشجاعة لتولي أمور الإيالة؛ ولأجل أن يحظى بالقبول مِن الباب العالي ويستلم رموز الولاية، يقومون بإرسال مبعوث بسفينة مملوءة بالهدايا إلى حضرة العلية؛ فيُجهّز حضرة السلطان الوافدين عليه من الجزائر بالكيلنج والقفطان وفرمان التعين. وفي اليوم الذي تعود السفينة إلى الجزائر تستقبل برمي البومبا وتنظم أنواع مختلفة من الاحتفالات تدل على البهجة والسرور، ويكون حينها الباشا الجديد يتربع على كرسي مرصّع بالنجوم، وفي

أثناء دق الطبول وارتفاع أصوات الزرنة يقوم الأهالي والمقربون بتهنئة الباشا الجديد وعقد البيعة له.

غير أنَّ طيب الحال لم يدم، إذ بسبب ما كتبه الله مِن البلاء على الدولة العلية ومشاكل لا تبقي ولا تذر؛ صرفت وجهها عن الاهتمام بانتخاب الباشوات الأخيار. وتحكَّمت الطائفة الإنكشارية باختيار من يضمن بطشها ومصالحها في الجزائر، دون أن يستشيروا في أمرهم هذا العلماء والأعيان من أهالي الجزائر فخالفوا بعملهم هذا ما شرّعه خيرالدين باشا في اختيار الحاكم، فأشاعوا بذلك ظلمهم وقتلهم الأنفس بغير حق، واغتصبوا أموال الأبرياء.

غير أنّ الباشوات الذين انتخبوا وفضلوا الإدارة المستقلة لأمور الإيالة ظلوا عاجزين، وسنعقد لهم فصلا خاصا.

الفصل الثالث

لكيلا يحدث أي لبس في الوقائع التي سنشرع في الحديث عنها في هذا الفصل، عزمنا أن نبدأ الحديث عن مجتمع مدينة الجزائر وتركيبة ساكنة الجزائر من أهالي وعرب وقبائل، إضافة إلى أننا ارتأينا -فضلا عمّا مضى- ضرورة الكلام عن المذهب الذي كان سائدا بين الأهالي.

مثلما ذُكِر في الأعلى، بعض أهالي الجزائر هم من الأندلسيين المهاجرين من إسبانيا بعد سقوط بلاد الأندلس، اختاروا أن يوطِّنُوا أنفسهم بهذه المدينة زيادة على هؤلاء نجد طائفة من النوميديين وجزءاً مِن المسلمين والعرب الذين كانوا يقيمون بمصر ثمّ وفدوا إلى الجزائر.

إذ أنَّ الجزائر في أكثر مناطقها مأهولةٌ مِن العرب والبدو. تفرَّق العرب في الأراضي الواسعة المحاذية للصحراء الكبرى واتخذوها مستقرا لهم. ونقف أيضا على قسم كبير من سكان الجزائر اتَّخذ من الجبال مسكنا لهم، وهؤلاء في الغالب هم من القبائل النوميدية/40/ ممَّن بَقِيَ مِن قبائل النوميد يستوطن هذه الجبال أطلق عليهم الفرنسيس اسم "بدوان/*Bedouis*" أي البدويين. كما مرَّ بنا سابقا بعد الفتوحات الإسلامية لتلك البلاد، ازدادوا شرفا باعتناقهم لشرعة الإسلام واختاروا أن يظلُّوا بتلك الديار في ناحية الجبال.

لكن بسبب عدم إحاطتهم بفرائض الإسلام فقد كانوا يميلون إلى اعتماد كل ما يرون فيه اليسر، فمن ذلك على سبيل المثال أنهم في الوضوء لا يقومون بغسل أرجلهم، ولا يلتزمون في نكاحهم بما هو مشرّع من عقد، بل جرت العادة بينهم أن يأخذ الرجل المرأة التي تعجبه مقابل مبلغ من المال ويبيعها أو يغيرها وقت ما أراد ذلك. توجد أمثلة عديدة من جنس ما ذكرنا من مخالفة الشرع المبين كانوا يقومون بها. لا نرى داعياً لذكرها هنا.

لكن لهذه القبائل تحت راية الغزو والجهاد بسالة وشجاعة لا تغيب رؤيتها فيقابلون من يعاديهم بغلظة وشدة وحركة لا تفتر ولا تتعب. بل إنّهم كانوا يقطعون هذه الجبال التي يقطنونها منذ الزمن الروماني مع صعوبة المرور بين جبالها وأغوارها كمن يتحرك في صحراء مستوية لاعوج فيها ولا أمتا.

أما مأكولاتُهم فكانت ممّا يخرج ينعه في تلك الجبال مِن التين وزيت الزيتون والعنب، وفواكه الأشجار التي يعتنون بها بمهارة نادرة يتحصَّلون منها على محاصيل كثيرة ووفيرة. /41/أمَّا القمح والشَّعير وما شابهها مِن حبوب فغالبا ما يتحصَّلُون عليها عن طريق تبادل ما يحصدونه مع العرب، وهذه القبائل غاية في الذكاء والفطنة، فما يكادون يتعرفون على شيء أو يرونه إلاَّ صنعوا مثله، بل وأحسن منه. لا يكاد يفلت شيء من بين أيديهم. لديهم أحسن أنواع البارود ويصنعون جل أنواع الأسلحة. أسلحتهم مثل أسلحة الجنويين خنجر شيش وسيف، سيوفهم مثل الحراب طويلة ودقيقة.

لسان هذه القبائل يختلف عن اللسان العربي، لهذا يقال اللسان القبائلي للذي يتحدَّثه الشخص البدوي مثلا عندما يقال بالعربية: (كيف أنت) و(كيف حالك) يرد القبائلي (امكضلت طوقدي)[1] وهذه اللهجات لا تتشابه مع العربية كثيرا.

عيونهم غالبا ما يكون لونها أزرقَ مائي، شعرهم أحمرُ اللون، ألوانهم في غاية البياض، لكن بسبب كثرة تعرضهم للشمس تغير قليلا لون بشرتهم الأبيض. نجد عند بعض المهتمين بأنفسهم من هذه القبائل شبه كبير من الإنجليز، بناتهم لا تتدارى أبداً عن الفتيان مثلا، بل غالبا ما يَقمنَّ بأعمالهن معَ بعضٍ وقد ساد عندهم التَّجوال والتنزه مع بعض مثلما كان يعمل الفتيان.

يشغل مناصب القضاء والفصل بين المتنازعين الشيوخ وكبار السن وأحكامهم نافذة لا جدال فيها، وعلى الجميع الالتزام بها وطاعتها.

[1] - أمكيثليط في اللغة الأمازيغية.

/42/ هذه القبائل كثيرا ما تدخل في حروب بينها لا لشيء إلا لأن أحد أفراد قبيلة ما قد تجاوز مضارب قبيلته لقبيلة أخرى، فتقوم الأخيرة بقتله وفورا ينشب نزاع وحرب بين القبيلتين، إذا لم يتدخل شيوخ القبيلتين حينها بسرعة لفض النزاع لن يظهر أي أفق لنهايته.

أما العرب في الجزائر فإنهم بمجرد أن وفدوا إلى بلاد الجزائر انطلقوا إلى سنجق قسنطينة، وهي مساحة كبيرة تمتد على التلال والهضاب والأراضي الشاسعة من الجزائر إلى قسنطينة وتمتد أراضيها المترامية من هناك إلى غاية مشارف الصحراء الكبرى، واستوطنوا جماعات جماعات مع عشائرهم وأطفالهم تلك الرياض من الأراضي الخصبة متخذين من الخيام مسكنا لهم، تميزت خيام السلطة عن غيرها بكبرها وجمالها واتساعها، حتى أنَّ فيها شبهٌ ممّا في الحرملك والسلاملك.

يقيم العرب معا في تلك الخيام، وحسب ضرورات معينة يغيرون مضاربهم إلى أماكن أخرى، ولأن أراضي بلاد الجزائر كانت خِصبة وبها عددٌ مِن الجداول والأنهار التي تكفي لرعي ماشيتهم فإنَّ سكان الجزائر على عكس سكان طرابلس لم يحتاجوا ليكونوا كثيري التِّرحال. ولكي تبقى جميع هذه القبائل العربية خاضعة لحكومة الجزائر وتطيع أمرها، كان باشاوات الجزائر يقومون بصفة منتظمة بإرسال من يتولى شؤونها من البايات والقواد.

/43/ التنظيم الذي نقف عليه بين الأعمال وتقسيمها إلى كل مِن: المتصرفية والقائمقام والإدارة تشبه كثيرا ما نجده في نظام الولاية، لذا فعندما نسمع الوالي فإن المقصود هنا هو (الباي) وكانت توجد عواصم لهذه البايات هي: قسنطينة، وهران، والتيطري. وهي مستقر الباي ومقر حكمه.

أما المناطق التي تسمى متصرفيات فكانت تخضع للقواد، في حين القائممقاميات والإدارات الصغرى كانت مخصصة لشيوخ القبائل، وكل الأراضي الواسعة التي يقطنها العرب كانت منظمة بالشكل المذكور آنفا.

أما أولئك الذين يقطنون الجبال فضبط أمورهم الأمنية وغيرها تركت لهم، لأنهم غير ملتزمين بدفع الضرائب لحكومة الجزائر ولا يخضعون لسلطتها، ولا تترتب عليهم أي تكاليف عدا التزامهم بقطع الخشب للحكومة عند الضرورة لبناء السفن الحربية. يأتي الكثير منهم لمدينة الجزائر للعمل في بساتينها لكنهم لا يملكون الحق في حمل أسلحتهم في حين سُمح للعرب بالدخول مسلحين إلى المدينة/44/ ذلك أنهم لا يستنكفون عن دفع الضرائب لحكومة الأوجاق.

أما البلديون أو أهل البلد فهم سكان مدينة الجزائر أنفسهم، ينقسمون إلى أربع فئات منها: السكان الذين ينحدرون من أصل أندلسي واستوطنوا البلد. والعرب المتحضرون "الحضر" وأولاد الترك الذين يُسمَّون "الكراغلة" والترك ذاتهم.

أما العرب والأندلسيون فمذهبهم مالكي، والكراغلة والترك مذهبهم حنفي ولا يوجد في مدينة الجزائر غير هاذين المذهبين. ولأجل ذلك فإنّ لسكان مدينة الجزائر مفتييان ومحكمتان وقاضييان، ويتم لكل فئة النظر في دعاويها عند مفتيها وقاضيها، فإن كانوا من العرب والأندلسيين كانت المحكمة مالكية وكان المفتي والقاضي مالكياً أمَّا إن كانوا من الترك والكراغلة فتنظر دعاويهم في المحكمة الحنفية. وإذا لم يقتنع المدعون بالأحكام الصادرة عن المحكمتين يرفعون دعواهم إلى "المجلس الكبير".

يتشكل هذا المجلس من الرجال الذين يجتمعون في "الجامع الكبير" كل خميس، وهم من العلماء المعينين والمعزولون أيضا يمكنهم حضور اجتماعات الجامع، وهناك يؤذن للمدعين أن يرفعوا تظلُّمهم إلى المجتمعين ليبتوا فيه. وهناك ينظر المجتمعون في النص الذي اعتمده القاضي في إصدار حكمه أو أي سند في إصدار الحكم وبعد ذلك /45/ يصدر المجلس حكمه بالتأييد أو بإبطال الحكم.

كانت مدينة الجزائر تخضع لإدارة "شيخ البلد" وكانت مهمته الأساسية هي الحفاظ على نظافة جميع المدينة داخل السور وتنظيم أسواقها، كان لشيخ البلد مقرا لإقامته، وفي هذا المقر يعقد اجتماعاته مع مساعديه وينظر في أمور المدينة.

أما الكراغلة فمعظمهم مدفعجية، لذا كانت جميع أمور المدافع من تجهيزات ومستلزمات وكور وحاجيات تحت مسؤوليتهم، كان يعطى لكل واحد من المدفعجية الكراغلة رغيف خبز، لأنهم مقيدون في دفتر الجندية بعائلاتهم فقد كان معظم أفراد عائلاتهم يستفيد من مثل ما يقدم لهم، كما يتحصلون على رتبة نظير مشاركتهم في المحلات أو رباطهم في القلاع والحصون.

كانوا يرافقون الترك في محلتهم لتحصيل الضرائب خارج المدينة، وكانوا شبيهين بفرقة المدفعجية المحلية. ومع إمكانية ترقي الكراغلة في المناصب إلاَّ أن ذلك ظل محدودا ونادرا، وأعلى درجة يمكن للكرغلي أن ينالها في ترقيته هي درجة الآغوية أو ما تُعرف باسم "مقام الكرسي/صندالیه مقامی" /46/ وهي الرتبة النهائية لهم فلا يحق لهم بعدها أن يأملون في رتبة الباشوية [التي تتيح لهم حكم الجزائر] وإنما يحالون بعد ذلك على التقاعد. مع أنّ هؤلاء الكراغلة هم أبناء من الصلب الترك إلا أن الترك ظلوا مرتابين منهم؛ ذلك أنّ الكراغلة كانوا على قدر كبير من الذكاء ولهم تربية حسنة وهم أصحاب علم ومعرفة، ويتقنون لغة العرب وقواعدها، ويقرؤون ويكتبون بشكل جيد، ولهذا كانوا متفوقين على الترك الذين كان أغلبهم من الجهلة الذين قدموا من الأناضول واستقروا بالجزائر، ما جعل علاقة الترك بالكراغلة تتسم بالبرودة.

الفصل الرابع

الجزائر وخير الدين باشا

أحوال حكومة الجزائر، وترتيب شؤون الحكم أثناء ولاية خيرالدين باشا

في حكومة الباشوات أي مع رئيس الحكومة الباشا، نجد أنَّ أهم منصب وأرفع مقام هو مقام (الخز ندار)[1]، ثمَّ يأتي بعده في الرتبة "الأغا" وهو قائد العسكر بمعنى أنه في مقام "السرعسكر" ويدعى أيضا آغا العرب. وبعده نجد "وكيل الخرج". وهو مسؤول على جميع أمور العمارة الحربية البحرية، كما يخضع له أيضا جميع ريَّاس البحر، والطوبجية وإدارة القلاع والحصون مناطة به أيضا بعدما كانت في بادئ الأمر تقع تحت إدارة أحد الكراغلة أبناء الترك فحتى بوجود الطوبجي باشا فلا يُقطَعُ أمراً إلاَّ بعد مشورته أو إذنه.

إذا نزلنا في الرتب أكثر نحو الأسفل نجد "خوجة الخيل" هذا المنصب على قدر كبير من الأهمية، إذ أنَّ كل حيوان مِن المواشي والأغنام تساق للبيع يجب التأكد منها والتعرُّف عليه من طرفه، بهذا الشكل كان يستحيل بيع أي حيوان مسروق داخل البلد،/48/ أتاح هذا القدر مِن النفوذ والسلطة -اللتين تمتع بهما خوجة الخيل-أن يُنزِل بالسَّارق العقوبة المناسبة له؛ فور القبض والتأكد من المسروق.

يأتي بعد مَن مَضى ذكرهم مِن حيث أهمية المناصب في البلاد من يسمون بـ"البايات"، وهؤلاء نجد أن مقامهم كان خارج مدينة الجزائر. كانت لهم حظوة كبيرة لكن بقي مقامهم أقل شأنا ممَّن سبق ذكرهم؛ لأن تأثيرهم بسيط داخل ما يجري بالمدينة. نجد ببلاد الجزائر أربعة مِن "الباي" اثنان منهم شرقا واثنان منهم غربا، هذه البايات أو المقاطعات الموجودة في مركزها مُدن أعطيت لها تسمية "الولاية"

[1] أطلق عليه لفظ الخزناجي خلال الفترة العثمانية.

هذه "البايات" هي: "ولايات" "التيطري" "وهران" "قسنطينة" سباو" والذي ذُكِر أولاً أُطلِق عليه لفظ (الباي لار باي)[1] إذ أنه كان الأكبر[2]، مِن حيث كثرة الواردات القادمة إليه، يضع تحت إمرة هؤلاء البايات بقدر ما هو محتاج إليه ومتوفر تحت قيد المتصرف، وما تمَّ ذكره مِن منصب الباي ظل مُخصَّصاً لجملة الترك الموجودون في البلاد دون غيرهم.

/49/ بل نجد أنّ الكراغلة الترك كانوا يستحيل أن ينالوا أو حتَّى يقتربوا من هذا المنصب، ومرَّة واحدة فقط نجد أحد مِن الكراغلة هو "الحاج أحمد باي" يشغل هذا المنصب في بيلك قسنطينة، وسنأتي فيما هو قادم للحديث بالتفصيل عن توليه هذا المنصب.

داخل البلد جميع الأمور أنيطت بـ"شيخ البلد"، يقوم شيخ البلد بتعيين مجلس يضم كبار وأعيان البلد، ويتخذ مكانا مخصوصا لهذا المجلس، وبهذا الشكل من التنظيم سارت أمور الحكومة بشكل إداري سديد ومميز.

هذه الصورة من الترتيب أُخذت من ذلك الشكل الذي كان في الأندلس فخُصِّص لكلِّ أمرٍ ذي نفعٍ ترتيب ومصلحة وإدارة اهتمت به حصراً، على رأس كل منها أمين، بهذا قيل "قايد العيون" و"قايد الوصفان" و"قايد الزبل"

---

[1] كلمة مُقسَّمةٌ إلى ثلاثة أجزاء: "باي" ويقصد بها لغة "السيد" أما اصطلاحا فتطلق بمعني كثيرة منها "الأمير/صاحب الشأن/المقدَّم" اللاحقة "لار" وتستخدم للجمع وكلمة "باي" الثانية يقصد بها "السيد" أيضا كما سبق، فيصبح معناها الحرفي "سيد السادة" لكن معنها الدلالي أو الاصطلاحي خلال تلك المرحلة فهو "أمير الأمراء" وهنا يُطلق ويراد به معنى (مركز البيالك)

[2] - لعل مقصود المؤلف هنا هو "دار السلطان" التي عُيِّن بها "الباي لار باي" وكانت تُجبى إليه الضرائب أمَّا "التيطري/التيتري" فكان أقلَّ البايليكات أهمية، ولعلَّ المؤلف هنا اعتمد ما ذكره الشَّريف الزهار وهو خطأ ظاهر بدوره.

أمَّا قايد العيون، فاهتم بمراقبة كلّ العيون ومنابع جريان الماء، سواء تلك التي بداخل المدينة أو خارجها. في حين قايد الوصفان، اهتم بكل ما له اتصال بالجواري والعبيد والخدم ومع هؤلاء الذين اعتقوا أو حرّرُوا يرسلون إلى قايد الوصفان /50/ حتى يُعيّنهم حسب درايته في الأماكن التي يفيدون فيها. كما يعمل على تزويج الجواري بمن يناسبهم من الخدم، ولهؤلاء الخدم صناعات مخصوصة بهم لا يُسمح لأي كان أن يقوم بها.

كصناعة القِفَف وطلاء البيوت، لأنَّ مدن بلاد الجزائر كثيراً ما كانت تحتاج إلى صباغيين لصباغة الجُدُر البيوت والمنازل لذا لم يكن ينقصهم العمل أبدا أمّا الجواري فإنَّهنَّ غالبا ما كنَّ يشتغلن بالحمامات، كما كُلِّفن بصناعة الخبز وبيعه. كل جارية بمجرد أن تصبح خادمة لسيدتها تحرص على تجهيز وترتيب كل حمام تذهب إليه سيدتها، لهذا نجد أنَّ الأعمال التي تقوم بهن الجواري والخِدمات التي تقدمهنَّ لا تتيح لهنَّ الحصول على أوقات فراغ.

أمَّا قايد الزبل، فهو ناظر النظافة، يعمل على المحافظة على نظافة المدينة في الداخل، لذا نجد معه عدداً كبيراً مِن الخدم، يحافظ بواسطتهم على بقاء المدينة في حلة بهية ونظيفة على الدوام.

وهكذا نجد كل هذه المهام تقع تحت رقابة وسلطة شيخ البلد، وبهذا فإنَّ كلَّ ما يرتبط بالمدينة من مهام لحفظها في الليل أيضا يعود إلى شيخ البلد ولأجل القيام بهذه المهام المتعدِّدة/51/ نجد عدداً كبيراً مِن الحراس والغفر بمعية شيخ البلد.

بعد ذلك تحوَّلت هذه المهام لتصبح في يد الإنكشارية، وبسبب إهمالهم وجهلهم تحوَّلت النظافة التي كانت تعرف بها المدينة إلى عكسها تماما ففقدت جمالها وانعكس حالها.

بمجرد أن تحصن خيرالدين باشا بالجزائر بدأ في العمل على ربط وإلحاق كل مِن الجزائر وتونس وطرابلس بالدولة العلية، وجعلها تحت إدارتها تحت مسمّى "ألوية ممتازة" خلال هذه الفترة كان يرسل إلى الدولة العثمانية من

هذه الجهة سنويا العديد مِن السُّفن المعبأة بالهدايا والأموال؛ في المقابل في أي وقت وبقدر ما تحتاج هذه المناطق من مُجندين وأسلحة وسفن كانت الدولة العلية تمدُّه بها على الفور.

وقد استفادت الدولة العلية كثيرا مِن السند الذي كانت تمدُّها به العمارة الجزائرية، فمن ذلك مثلاً ما تمَّ أيام حرب "مورة"الشهيرة[1]، إذ وفدت عمارة عظيمة مِن الجزائر لمساندة القوَّة العثمانية.

عُيِّن -فاتح الجزائر-خيرالدين باشا بمنصب عالٍ بالدولة العلية هو: قبطان باش، لذا قام/52/ بربط ثلاث سُفنٍ جزائرية مِن تلك التي بقيت من واقعة "مورة" معه مباشرة، في هذه الواقعة احترق كلّ مِن الأسطول الجزائري والأسطول العثماني[2].

ظل أوجاق الجزائر يتميز بحظوة ومكانة أكبر مِن تلك التي تحصَّل عليه كلَّ مِن أوجاق تونس وأوجاق طرابلس، إذ كان يشتهر كل أوجاق باسمه فيقال "تونس وطرابلس" لكن يقال لأوجاق الجزائر "سلطان الجزائر"، بل إن تونس بعدما أُلحِقت بالدولة العثمانية وأصبحت أوجاق مستقلا ظلت -إضافة إلى الضرائب التي تقدمها كل سنة للدولة العثمانية- تقدم ضريبة مخصوصة للجزائر وهي سُفُنٌ معبَّأة بزيت الزَّيتون، الأمر الذي ترك نوعا مِن البرودة والحساسية بين أهالي البلدين، بل حتّى أنّه حدث بين أوجاق تونس وأوجاق الجزائر حربان كانت فيهما الغلبة لأوجاق الجزائر.

ظل باشاوات تونس وطرابلس تحت السلطة، عكس الجزائر التي بقيت خارجا، غير أنّ هذا الانفصال هو أحد الأسباب الرئيسية التي أدت لاحقاً إلى سقوط الجزائر في المصيبة الكبيرة./53/

---

[1] لعله يقصد حرب اليونان الأولى 1820.

[2] المقصود بها حرب اليونان الشهيرة التي بدأت سنة 1821 كما ذكرنا انفا، وانتهت هذه الحرب سنة 1830 باستقلال اليونان عن الدولة العثمانية. وكانت زول خطوة في مسار تفتيت الدولة العثمانية.

الفصل الخامس

شرح تفاصيل الأحداث التي جرت بين الجزائر والفرنسيس وسبب الأزمة الموقف الذي اتخذته حكومة إيالة الجزائر من إعلان الفرنسيس الحرب عليها تفاصيل حول حياة آخر ديات الجزائر "حسين باشا"

مثلما شرحنا في الفصول السابقة، حدثت في الجزائر ثورة داخلية نظير سوء إدارة الحكام لهذه البلاد ومخالفتهم الطريق القويم الذي سلكه خير الدين باشا في تسييره شؤون الأوجاق، وانتهى الأمر في زمن حضرة السلطان "محمّود الثاني" سنة (1246هـ/1830م) إلى أنْ أعلن عساكر الفرنسيس الحرب على البلاد.

في تلك الأثناء كان القائم بشؤون الأوجاق "حسين داي" باشا الجزائر[1]، لذا قبل أن نشرع في التّكلم عن الأحداث التي عرفتها البلاد في زمانه كان واجبا علينا أن نتحدَّث عن هذا الحاكم بدايةً.

[1] تولى حسين داي باشاوية الجزائر خلفا للداي علي باشا سنة 1818. انظر ما ترجمه أبو القاسم سعد الله عن حياة حسين داي آخر باشوات الجزائر أثناء زيارة الباشا لباريس سنة 1831 في الجزء الثالث من كتابه أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر.

حسين باشا، هو أحد أولئك الناس الجهلة[1]، الذين لا يعرف لهم نسب. وُلِد بإحدى المدن اسمها دينزلي[2] تابعة لولاية آيدن[3]، /54/ لما قدِم مع أخيه إلى الجزائر كان يشتغل في أيامه الأولى في الصيد، لكن بقدرة قادر أضحى في منصب خوجة الخيل[4] في المدة نفسها كان عمر باشا الخزندار قد قُتل، وهنا حدث اتفاق بين حسين باشا والرجل ذو المقام العالي وصاحب النفوذ في الجزائر "ابن المفتي" على أن يتزوج حسين باشا ابنته ويساعده الأخير في توليته منصب الخزندار، وقد تحقَّق له ذلك؛ فأضحى من أصحاب الباشوية، وفي الأسبوع

[1] في حين ينقل جال أغسطين الضابط الفرنسي الذي التقى حسين باشا وحواره في باريس أنه كان شخصا محترما ولينا وبشوشا عكس ما حُكِي عنه. ويروي الزهار في مذكراته أن حسين باشا كان رجلا عاقلا متدينا محبا للعلماء والأشراف الصالحين.

[2] دنزلي تكتب بالتركية (Denizli) هي إحدى المدن الصغرى اليوم في الجمهورية التركية تقع في الجنوب الغربي لتركيا تبعد عن مركز ولاية آيدن بحوالي 85 كلم، وعن العاصمة أنقرة 450كلم فيما تبعد عن اسطنبول بحوالي 575 كلم.

[3] آيدن وتكتب بالتركية الحديثة (Aydın)إحدى الولايات الهامة الساحلية في تركيا يرجع تأسيسها إلى العهد الإغريقي، تقع في الجنوب الغربي لتركيا لذا فهي تطل على بحر إيجه يحدها شمالا مدينة إزمير فيما تحدها جنوبا ميلاس، تبعد عن العاصمة أنقرة 550 كلم فيما تبعد عن اسطنبول بحوالي 640كلم. في حين أورد جال أغسطين في مقالته عن حسين داي وكان قد قام بحوار معه أثناء زيارة حسين باشا باريس سنة 1831 أن حسين باشا ولد في فيفري 1768 في صندوقي/ صندقلي على بعد مراحل من مدينة كتاهية.

[4] كان حسين باشا ضابطا في الجيش الانكشاري في فرقة المدفعية في إسطنبول ومنها انتقل إلى الجزائر وانضم للجند الانكشاري فيها ثم تدرج في رتب الجندية إلى أن تعرف على داي الجزائر عمر باشا الذي (قل بعد حملة إكسمورث على الجزائر سنة 1817) قربه إليه ورقاه في المناصب المختلفة إلى أن تقلد منصب خوجه الخيل زمن علي خوجه.

الأوَّل بعد ذلك، وحتَّى قبل أن يستتب له الأمر في منصبه أمر بقتل ابن المفتي المذكور[1].

بعد مدة وجيزة عندما قامت مجموعة من العساكر بالتمرد وقتل عدد من قادتهم كما قتلوا الباشا[2]، وبعد ذلك بدا لهم "حسين" وكأنَّه رجل عاقل مقدام وشّجاع. لذا اجتمعوا على تنصيبه في أثناء ذلك باشا على الجزائر، وأقيمت مراسيم الاحتفال بتنصيبه على ما كان مُتعارفاً لديهم؛ فأُحضر لذلك مِن اسطنبول "الكلنج والقفطان" وأُطلقت لذلك المدافع.

خلال استمراره في باشوية الجزائر مدة ثلاث سنوات نال احتراما كبيرا فأصابه الغرور لذلك ما منعه مِن أن ينصت لغيره، واختال في عظمته، فأصبح لا يلقى سمعه لأحد، وأضحى مُعجباً بعقله وحسن تدبيره، ومن غرائب أحواله وفد عليه أحد الموطنين الإيطاليين من "ليفورنو" وهو يهودي -قد ذُكِر فيما سبق- اسمه "بكري"، كان قد مرّ الوقت المحدد له ليدفع ما عليه من ديون لحكومة الأوجاق نظير ضرائب استفادته من تجارة المرجان؛ لكنه صرّح للباشا حسين بقوله: « **الآن لا طاقة لي للدفع، إذ المال في أيدي بعض الأهالي من سكان فرنسا بمجرد أن أحصله سأدفع**...» وتعهَّد بذلك.

من ساعته كتب حسين باشا باسمه إلى ملك فرنسا بكتاب ضمنه طلب هذه الأموال؛ ولأجل الحصول على جواب سريع أرسل بهذا المكتوب من ساعته إلى قنصل فرنسا بالجزائر ليدفعه إلى سيده، بعد شهر من ذلك أي في شهر رمضان قام القنصل بزيارة الباشا، وكان حينها في عظمة كبيرة مفترشا منضدة ترفعه عمن هو دونه، ويحمل بيمينه مروحة مِن ريش الطَّاووس مُغلفةً بالذَّهب.

---

[1] لعل المقصود هنا هو الحاج مصطفى بن الشيخ ابن مالك وهو صهر الداي علي باشا وليس صهر الداي حسين ولعل الأمر التبس على المصنف.

[2] المقصود هنا هو الداي "علي خوجه" باشا الجزائر (1808-1818م).

حضر القنصل إلى جناب الباشا وما كاد يجلس حتى بادره الداي موبخا: «..**كنتُ قد أرسلت لسيدك مكتوبا في شأن تحصيل مال اليهودي، وطلبت جوابه في الحين، والآن مرَّ شهرٌ ولم يصل لجنابي شيء من سيدك**..»[1] /56/ أو بمثل هذا السؤال مع استعلاء، رد على التعنيف الذي طاله بقوله : «...**لسيدنا المُعظَّم عدد من الباشاوات مثل الذين لديكم، وهم بدورهم لديهم عددا مِن المسائل ينتظرون الرد عليها. وعلى حسب عادتنا سيقدم هؤلاء الأجوبة عندما يحين دورها، وفي موعدها، ولما يُجاب على طلبكم سيصلكم الرد لا محالة**..» رد القنصل على الباشا بمثل هذا الكلام لأنَّه لا يُحسن إلاَّ القليل مِن التركية. حينها غضب الباشا كثيراً، وكان يمسك بيده مروحة، فصرخ قائلا: «**كيف يمكن أن يكون الباشاوات الذين لدى سيدك مثل الباشوات الذين لدي**؟» وضرب وجه القنصل بالمروحة التي كان يحملها بيده، مع هذا لم يقل القنصل شيء، بل قام مِن ساعته مِن مقامه وخرج مُسارعاً[2].

---

[1] توجد مثل هذه العبارات فيما أورده حسين باشا في رسالته الأخيرة إلى الباب العالي والتي قمت بنقلها مِن اللغة العثمانية إلى اللغة العربية ونشرتها في مجلة أسطور للدراسات التاريخية العدد 15 سنة 2022. بعنوان:"ترجمة لأربع رسائل بخصوص الحصار الفرنسي للسواحل الجزائرية 1827-1830".

[2] أورد حسين باشا مساراً آخراً لهذه الحادثة وتطور الأمور في رسالته التي أرسلها إلى الباب العالي بسبب الحصار الفرنسي للسواحل الجزائرية. انظر: خيرالدين سعيدي، "ترجمة لأربع رسائل بخصوص الحصار الفرنسي للسواحل الجزائرية 1827-1830" في مجلة أسطور العدد 15.كما ذكر حسين باشا في لقاءه مع جال أغسطين أن ما حدث في هذا اللقاء كان كالتالي:«...وعند نهاية شهر رمضان جاءني دوفال في زيارة رسمية كما هي العادة. وقد شكوت إليه عدم تلقي جوابا عن الرسائل الأربع التي بعثت بها إلى ملك فرنسا. فهل تتصور بما أجابني على ذلك؟ لقد قال :«إنَّ للملك أمورا أخرى يقوم بها عوض أن يكتب لرجل مثلك» إن هذه الإجابة الخشنة قد أثارت دهشتي. ذلك أن الصداقة لا تعطي حق الإهانة. ثم إنني رجل كبير السن ويجب لي الاحترام، وفوق ذلك كله فقد كنت دايا! وقد لاحظت أن دوفال قد تجاوز الحدود. ولكنه استمر في توجيه كلام خشين ومهين لي. فأردت

في تلك الأوقات كان الأوجاق يضع تحت إمرة القناصل صندل في البحر لخدمتهم وتنقلاتهم، وكان موجودا في الميناء على الدوام[1]، بُعثت إشارة لهذا الصندل فاقترب من ساحل المدينة أخذ القنصل الفرنسي وانطلق به إلى بلده من ساعتها خرج إلى الساحة خبر الحرب التي ستكون مع الفرنسيس[2].

لما نميَ لأهالي الجزائر خبر ما حدث؛ وتيقنوا بقدرة فرنسا على هزيمتهم حزنوا لذلك، وفشت أحاديث القيل والقال بين الناس في جنبات المدينة، واتُّهم في ذلك الشيخ "حمدان بن عثمان خوجة"، ولكن ما ذلك إلاَّ بسبب بعض الدسائس التي دسَّها بعض المنافقين على والدي رحمه الله، لذا استُدعي إلى قصر الجنينة مِن حينه وسُؤل عن الخبر، فأجاب المرحوم بقوله:« لم أُحدِّث أحداً بشيء ممَّا قيل، -وإنَّما كان سبب زيارته لفرنسا كما هو معلوم التِّجارة- إن قلت شيئا فإنما هو أنَّ مملكة فرنسا في الحقيقة دولة قوية عسكريا وبحريا وكم من مُدن هذه المملكة هي أكثر مِن مدينة الجزائر قوّة وترتيبا وتمكينا» هكذا تكلَّم وشرح حقيقة ما شهده مِن تنظيم فرنسا وقوتها وبالتفاصيل الدقيقة مُحذرا الباشا.

أن أجبره على السكوت لكنه تعنت مع ذلك مع ذلك فصحت فيه: «أخرج أيها اللئيم!» لكن دوفال تحداني بالبقاء فوصل الأمر بي إلى الخروج عن الطوق. واحتقارا له رميته بمروحتي على وجهه. تلك هي الحقيقة الكاملة.

[1] العديد من المعلومات التي أوردها علي رضا باشا نقف عليها في المراسلات التي وصلت الباب العالي أثناء الحصار الفرنسي على الجزائر، للتفصيل أكثر انظر: خيرالدين سعيدي، "ترجمة لأربع رسائل بخصوص الحصار الفرنسي للسواحل الجزائرية 1827-1830" في مجلة أسطور العدد 15.

[2] - تذكر عدد من المراسلات التي أرسلها الداي حسين إلى الباب العالي الكثير مِن التفاصيل المختلفة في هذا الشأن، انظر: خيرالدين سعيدي، "ترجمة لأربع رسائل بخصوص الحصار الفرنسي للسواحل الجزائرية 1827-1830" في مجلة أسطور العدد 15.

لكن مع كلّ هذا فإن الباشا لم يُلق بالاً لا للتَّحذير ولا للنصائح التي قيلت له، بل لم يلتفت لذلك أصلا، وَلجَّ في عتوه، ومن ساعته أعطى الأوامر للباشوات والمدفعجيين بأن يتحضروا للحرب، سواء حدث شيءٌ أم لم يحدث أمَّا الفرنسيس فإنهم لأجل أن يحيطوا بالجزائر أرسلوا إلى بحر الجزائر عشرة مِن الفرقاطات وكرفاطة واحدة لمنع دخول السفن إلى الجزائر، حينها لم تجد السفن الجزائرية التي كانت في البحر من مكان تلتجأ إليه إلاَّ ميناء الإسكندرية؛ لذا أُجبِرت على الذهاب إليه وهناك ظلت تحت وصاية وسلطة والي مصر حينها "محمَّد علي باشا"[1]/58/، ولم يبق في الجزائر حين الحرب إلا بعض السفن المهترئة التي لا يُعتد بها، في هذه الأثناء أرسل "محمّد علي باشا" سفينة خاصة لأجل التوسُّط للسلم مع الفرنسيس، وإقناع "حسين باشا" بذلك مقدما له عددا مِن النّصائح.

ولأجل تقديم هذه النّصائح؛ قامت فرنسا بإرسال أخ لأحد قناصلها في مصر سِرّاً من أجل لقاء محمّد علي باشا[2]، والذي شعر وكأنّما فرنسا تريد أن تقدم اقتراحا ما قد لا يرضي الباب العالي، لذا تحرك من القاهرة إلى الإسكندرية وخلف مكانه ابنه إبراهيم باشا. والحقيقة أنّ هذا الشخص الذي أُرسِل إلى "محمَّد علي باشا" قد قام بتقديم مذكرة إلى "إبراهيم باشا" حينها لأنه لم يلتق

---

[1] أرسل الباب العالي إلى "محمد علي باشا" في طلب السُّفن الجزائرية التي كانت راسية في موانئ الإسكندرية وهو ماتم فعلا حسب الوثائق الأرشيفية في أرشيف رئاسة الجمهورية التركية في قسم الوثائق العثمانية.

[2] المقصود بهذا الكلام هو الكابتن "أودير" الذي تذكر المصادر الأرشيفية المختلفة أنه أُرسِل في: 19 أكتوبر 1829م من أجل المساهمة في إقناع "محمَّد علي باشا" بجدوى مشروع الاستيلاء على بلاد البربر، فيما يذكر "آرجمونت كوران" أنَّ: "محمد علي باشا" قد أَعلَم القنصل الفرنسي السابق الموجود بالإسكندرية "دروفيتي Drovetti" باستعداده للاستيلاء على أوجاق الجزائر إن طلبت منه فرنسا ذلك. انظر آرجمونت كوران، ص 47؛ جورج داون، **مشروع محمد علي باشا لاحتلال الجزائر**، ص 39.

"محمَّد علي باشا" مفادها: أن تقوم مصر بتأديب داي الجزائر[1] وستُقدِّم فرنسا إلى مصرَ عشرين سفينة مِن السفائن الكبار لأجل هذا العمل، وبعد أن تنتهي مِصر من تأديب حكام الجزائر ستتخلَّى فرنسا عن هذه السُّفن لمحمّد علي باشا، إلاَّ أنَّ "محمّد علي باشا" تحرَّج مِن هذا العرض[2].

/59/ إذ رأى بأنّ مساعدته لفرنسا ستجعله يقف في نظر المصريين ضد الإسلام وهذا ما سيسقطه مِن أعينهم ولن يبقى له اعتبارٌ بينهم[3]، لكنه وعد

---

[1] يتحدَّث كوران عن سعي السفير الفرنسي في الباب العالي قيمينو على إصدار أمر من السلطان إلى والي مصر "محمَّد علي باشا" للخروج من أجل تأديب والي الجزائر بمساعدة من الأسطول الفرنسي، إلاَّ أنَّ رئيس الكتاب حينها "برتيف أفندي" رفض تقديم مثل هذا الطلب إلى السلطان العثماني "محمود الثاني" ووعد بأن يرسل مبعوثاً مِن الباب العالي إلى الجزائر على أن يمر الأخير في طريقه إلى مصر ويُطلع واليها على ما يجري ويأخذ برأيه في المسألة. انظر أرجمنت كورن، السياسة العثمانية اتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ص 45 47.

[2] فيما تذكر بعض المراجع أنَّ "محمَّد علي باشا" رحب بالفكرة إذ أنها كانت تتيح له السيطرة على المنطقة الممتدة من مصر إلى الجزائر، وبالتالي الاستفادة من الضرائب الناتجة عن التجارة في هذه المنطقة وقطع الطريق أمام أطراف أخرى؛ وهذا أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت السفير الانجليزي في الباب العالي سنة 1830م (غوردن) يُراسل الباب العالي في شأن المعاهدة التي وقعت حسبه بين والي مصر "محمد علي باشا" والسلطات الفرنسية والتي تتيح لوالي مصر تأديب داي الجزائر بدلا عن فرنسا بمساعدة الأسطول الفرنسي، ما كان من شأنه أن يسمح لمحمَّد علي بالسيطرة على الجزائر إضافة لكل من طرابلس الغرب وتونس، الأمر الذي اعتبرته انجلترا يُهدِّد مصالحها في البحر المتوسط بشكل مباشر، لذا اقترحت الوثيقة إسراع الباب العالي في إرسال مندوب الدولة العثمانية إلى داي الجزائر مِن أجل رد الاعتبار للقنصل الفرنسي في الجزائر بعد ما لقيه من إهانة على أن يمر نفس المندوب إلى مصر ويُعلِم واليها أنَّه لا توجد أي نيّة لاستخدام القوَّة ضد داي الجزائر. انظر الوثيقة المرسلة من غورد إلى الباب العالي في الأرشيف العثماني.

[3] تُعد مسألة موقف "محمَّد علي باشا" مِن العرض الفرنسي لتأديب داي الجزائر إلى الكثير مِن البسط، فقد نشر عدد مِن الباحثين ما يؤكد تحمس "محمَّد علي باشا" للفكرة، فيما

بدلًا مِن ذلك أن يُرسل سفينة إلى الجزائر للسعي إلى السلم، وهكذا أُرسِلت هذه السفينة. وقد تم تحصيل ماورد هنا من معلومات تخص تعامل مصر مع الأحداث من رجل ذي مقام عال كان له فضل ترجمة المذكرة السابقة.

قابل "حسين باشا" الشخص الذي أُرسل مِن طرف "محمد علي باشا" لإسداء النصح بالرفض قائلا: «كلّ رجل حر في قراره وله ما يبرره، إذا ما عليك إلاّ أن تهتمَّ بشأنك وتنتبه إلى مملكتك، فليست لي أدنى حاجة إلى نصيحتك» ظلت السفينة من ليلتها في ميناء مدينة الجزائر، إلاَّ أنه وفي وقت السحر سمع حسين باشا قرع الطبل على متن هذه السفينة فصاح أنّ ما ذلك إلاّ نوعاً خاصاً مِن ضرب الطبل عند الكفار، وفي جوفه خبر ما تكلمنا به، فليرفعوا مرساتهم ويقلعوا مِن ساعتهم» وبعث إليهم بالأمر، وبسبب هذا ركب القبطان ومن معه السفينة وأقلعوا بشراعهم إلى الاسكندرية، ولما وصلوا إلى محمد علي باشا شرحوا له بالتفصيل ما قاله حسين باشا وما لقوه منه وكيف عاملهم.

/60/إذ وعلى العكس تماما من القدر الكبير في كلامه عن الحرب والتحضير لها فإن الواقع لا يوحي بذلك، إذ لا يوجد أي شخص مُتجهِزاً لها بالفعل بالرغم مِن توسُّل الكثير من قناصل الدول الأوروبية للباشا من أجل ثنيه عن قرار الحرب فإنّه لم يُعِرْ كلامهم أي قيمة، بل ظل معاندا في عتو ويردد في كلِّ مرّة قوله :«..بل سأحارب..»

إضافة لتصرف الباشا بهذا الشكل زادت الأحداث التي سنذكرها لاحقا مِن قلق سكان وأهالي الجزائر.

نفى عددٌ آخر ذلك، واعتبروا الحديث عن نية محمد علي باشا تدليس على الرجل لا غير. وقد وقفنا على ما يؤكد هذا الرأي ضمن وثيقة داخل الأرشيف العثماني بعث بها "محمَّد علي باشا" إلى الصدر الأعظم يُوضِّح له فيها أنَّه لا يفكر في مخالفة أي أمر مِن أوامر الدولة العليَّة، كما يُؤكد مِن جهة أخرى أنَّه ردَّ بالسلب على العرض الفرنسي للتَّدخل في الجزائر وصرّح للفرنسيين بقوله: «..أنتم مسيحيون أما نحن والجزائريون فمسلمون وما تقولونه لا يتلاءم مع ديننا ودولتنا...» مثلما نقف عليه في الوثائق العثمانية التي اطلعنا على بعضها.

في هذه الأثناء نجد آغا العرب في الجزائر هو "يحى آغا" وهو رجلٌ حريص جِدّاً، نشأ في الجزائر، ويتفق مع الأهالي بشكل جيّد جدّاً، والغريب أن نجد من أصدقاء الأهالي الجزائريين وتربطهم بهم علاقة حميمة هو قنصل الفلامينك (هولندا) وعندما وفد إلى "يحى آغا" أخبره بأنّه قد وقع بين يديه تدبير عساكر فرنسا لدخول الجزائر في حالة لم يحدث بينهم وبين الباشا الصلح، فأخبره بأنّ عساكر فرنسا سيدخلون الجزائر مِن شاطئ "سيدي فرج" ومنه سيأتون مدينة الجزائر مِن بابها الخلفي، وبحسب هذا أفهمه أنه لابد على مملكة الجزائر أن تقوم بتحصين هذا الثغر جيّداً.

/61/مِن ساعته انتقل "يحى آغا" المذكور إلى "سيدي فرج" وأمر بالشروع في الحين في بناء برج باتجاه البحر، في حالة ما سعى عساكر فرنسا إنزال سفنهم، كان على من في البرج مقارعتهم حتّى يُعيقوا هذه السفن في حالة نيتها فعلا في الاقتراب مِن الشاطئ بما سيهيئه مِن مدافع في هذه القلعة، ولمَّا سَمِع الباشا بما يُقيمه "يحى آغا" مِن شأن هذه القلعة استشاط غضبا وأمر مِن ساعته بعزل آغا العرب "يحي آغا" وتعيّن صهره "إبراهيم آغا" في منصب آغا العرب[1] حيث إنّ "إبراهيم آغا" هذا كان أكثرَ جهلاً مِن الباشا نفسه.

---

[1] لعل هذا بسبب أن "الباشا" كان يعلم بخبر تحضير الفرنسيس أنفسهم للنزول في هذه الجهة فحاول أن يباغتهم، وأن يوهمهم بأنَّه لا يعلم خططهم، هذا ما يفهم من جمع الدلائل المختلفة، إذ أنَّ الباشا نفسه أخبر الحاج أحمد باي أثناء زيارته مدينة الجزائر لدفع الدنوش «أنَّ الفرنسيس يودون النزول بعتادهم وأسلحتهم بسيدي فرج حسب ما نقلته أعين الباشا نفسه في كل من مالطا وجبل طارق، وبحسب إحدى الكتب المطبوعة التي وصلت إليه» أو أنَّ الباشا حسين داي علم بهذا الخبر بعدما وصله من يحي آغا وعرضه بعد ذلك على الحاج أحمد باي. بهذا الخصوص يمكن مراجعة ما ذكره الحاج "أحمد باي" في مذكراته:

- Ahmed bey: Les Mémoire de Ahmed bey, Tr Mercal Emerit, Revu African, Volum 93, année 1949, P 71.

أمّا "يحى آغا" المذكور أعلاه فإنَّه في اليوم الثاني مِن إبعاده شرفه الله بأن كتب له الشّهادة على يد أحد الرجال الذين أرسلهم الباشا لقتله غدرا[1]. ولما سمع أهالي الجزائر بما حصل ضربوا أكفهم حزنا وأسفا على ما فرَّطوا في جنب الرجل.

عاد قنصل الفلامينك مرة أخرى إلى "إبراهيم آغا" المذكور وأعاد شرح الأمر له ناصحا إيَّاه بقوله:« تيقن أنَّه إن نزلت فرنسا بقوتها العسكرية الكبيرة إلى البر فإنها ستكون حرب لا محالة فابقوا منتبهين لهذا» ومع أنّ "إبراهيم آغا" لم يقم بأي استعدادات فإنه أجابه في استعلاء:« أي اسمع أيُّها السيد لتعلم أنَّنا نتمنَّى أن تُنزِل فرنسا قوَّتها الكبيرة إلى البرّ؛ فإن لدينا مِن القوَّة ما لا يحصي عددها إلاَّ الله، ولْتَعلم أنَّه لدينا فرسان شجعان لو أَطلقنا لهم العِنان لأبدوا عساكر فرنسا في قصير الزمان» /62/ بمثل هذه الأجوبة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وهي أجوبة لا يطرب لها ولا يستعملها شخص كالقنصل، صرف الأخير وجهه عن "إبراهيم آغا" يلقي خطواته ولسان حاله يقول: «لا يربح العاقل شيئا إذا تحدّث مع مَن لا يقبل أو لا يفقه الكلام»[2]

---

[1] برَّر "حسين باشا" هذا الاغتيال بأن يحي آغا كان يحيك الدسائس للباشا بعد عزله من وظيفته.

[2] يتحدَّث الحاج "أحمد باي" عن اجتماع قام به مع كل من صهر الداي "إبراهيم آغا" وحاكم التيطري "مصطفى باي" وحضر الاجتماع كل من "خوجة الخيل" و"خليفة باي الغرب"، وذكر فيه أنَّ "إبراهيم آغا" اقترح على الحضور أن يقوموا ببناء حصون في منطقة "سيدي فرج" لصد التَّقدُّم الفرنسي إن حدث، إلاَّ أنَ الوقت كان قد نفذ من الإيالة لفعل ذلك؛ لذلك تجاوز الحضور هذا المقترح. انظر:

- Mercal Emerit : Les Mémoire de Ahmed bey, revu African, Volum 93, année 1949, P 7172-.

الفصل السادس

إغراق فرنسا للسُّفن الجزائرية

وفود باخرة فرنسية من نوع كباك إلى الجزائر من أجل المفاوضات قبل بداية الحرب. رفض الباشا لأي تسويات مع فرنسا إلا بشروطه وإصراره على الحرب. تبدّد فكرة تجديد السُّفن الحربية الجزائرية

خلال تلك مرحلة وفدت على الجزائر مِن فرنسا سفينة من سفائنهم الكبار من أجل الصلح، تحمل صنجاق السّلام الأبيض، اقتربت مباشرة إلى ميناء مدينة الجزائر رست هناك، ونزل منها إلى البر عددٌ مِن الصبايحية، وأخبروا من في الميناء أنهم أتوا لمقابلة الباشا، فقدِم بهم إلى جناب باشا الجزائر فتكلَّموا معه قائلين: «يا سيدنا، لعل قنصلنا تجاوز حدود الأدب في حضرتكم -مع الأسف- لذا نرجوا صفحكم. لكن لم يكن هناك داع لأن تقوموا بضربه بالمروحة يا سيدي، وقد جئنا معه إلى حضرتكم نبغي الصُّلح، وقد أتينا بمال كثير في هذه السفينة إرضاء لكم، لكن نلتمس مِن جنابكم ألا تردون خائبين في رجاء واحد منكم، قدِّموا لنا رجلاً مِن جنابكم لنأخذه معنا إلى مملكتنا ونظهر لأهالي مملكتنا أنكم أنتم السابقون لطلب الصلح، فنُسكِّن بذلك الأهالي، فحضرة جناب مولانا دائما ما كان يرجِّح الصُّلح مع حضرتكم، وهذا سيكون فيه خير لكم»/63/ لما سمع الباشا هذه الكلمات ظنَّ أنَّما هذا خوف تملَّك فِرنسا[1]، لذا فهي تسعى لمثل هكذا صلح" فلمّا توهّم هذا وهو ينظر بازدراء

[1] أكد حسين باشا في حواره مع جال أغسطين هذه الرواية وتأسَّف كثيرا للأميرال لابريتونيير على عدم قبوله هذا العرض، وبرَّر عدم قبوله العرض حينها بما كان يسمعه من نصائح فاقدة للحكمة.

باتجاه العساكر الفرنسيس الذين في حضرته خاطبهم في عتوه قائلا: «لا أعرف لكم شيئا آخر إلاّ الحرب» وعاملهم معاملة سيئة[1].

في هذه الأثناء كان يوجد معهم السيد بيانك (Bainke) الذي قَدِم للترجمة بين الضباط والباشا (مؤلف وكاتب القاموس المُصوَّر الذي وحّد التركية بالفرنسية)[2] كنت قد قابلته صدفة في أحد المرات في فرنسا، وسألته حينها شخصيا عمَّا حدث حينها، صارحني بأنّ باشا الجزائر في تلك المقابلة تحدَّث بشكل سيء، حتَّى أنَّه أخبرني أنَّه تحدَّث بنفسه مع داي الجزائر "حسين باشا" أثناء تلك المقابلة وباللغة التركية قائلا له: «سيدي إنّ تصرفكم بهذا الشكل ليس لائقا، وإني أخشى أنَّكم قد تصبحون مِن النادمين عليه لاحقا»

/64/ لكن الباشا عاد إلى عجرفته قائلا: «لا تتوقفوا انصرفوا لا نعرف شيئا غير الحرب» ولأنَّه ظنَّ مُعانِداً في كلامه قام مَن كان في مجلسه مِن عساكر فرنسا ونزلوا إلى السفينة التي أقلَّتهم، مِن ساعته أرسل الباشا أمره إلى من في ميناء مدينة الجزائر بأن يعلموا عساكر الفرنسيس : «بأن الباشا أمرهم بأن يرفعوا مرساتهم وأن ينطلقوا إلى حال سبيلهم وأن لا يقربوا المدينة مرّة أخرى» رد ريس السفينة[3]: «إذا رفعنا المرساة الآن وأقلعنا فإنّ الرِّياح ستعيدنا إلى جانب القلعة لا محالة» أُرسِل الخبر إلى الباشا، فردَّ على ذلك بقوله: «أَمَرْنَا بأمرٍ ولا يهمنا أن نعرف دونه شيئاً آخر» أمام عناده لم يجد العساكر بأيديهم

---

[1] المقصود هنا تلك المفاوضات التي كانت بين "لابريتونيير/Bretonniere" قائد السفينة لبروفانس و"حسين باشا" سنة (1829) وكانت سبباً مباشراً في تأزم الوضع بشكل أكبر. وإصرار الفرنسيس على المواجهة العسكرية. في حين ينفي حسين باشا هذه الاتهامات عن نفسه تماما، ويورد جال أغسطين في حواره مع الباشا الذي أجراه معه أثناء زيارة الداي حسين باشا لباريس سنة 1831 وبحضور الأميرال لابريتونيير أنت اللقاء كان وديا وأنه كان رافضا لقنبلة السفينة وأن ذلك كان من عمل بعض المدفعجية وليس بأمر بمنه.

[2] Dictionnaire Turc-Francais, Imprimerie Royal, 1re edition, 2 Vol. Paris. 1835.

[3] المقصود بها السفينة "لبروفانس".

شيء إلاّ أن ركبوا السفينة وفتحوا أشرعتهم للخروج مِن ميناء المدينة، ورغم محاولاتهم الحثيثة الجادة للابتعاد عن القلاع إلاّ أن محاولاتهم لم تأتِ أُكلها وأجبرتهم الريح أكثر من مرَّة على الاقتراب مِن قلاع وحصون المدينة، وعندما كانوا يقتربون من القلعة كان مَن في القلعة يرمونهم بالمدافع؛ حتَّى يفهموهم أنَّه يُمنع عليه التَّقدم.

في هذه الأثناء تحرك بعض ريَّاس البحر ممَّن يعرفون البحر حق معرفته وقالوا لباشا الجزائر: «إنَّ ورود السفينة علينا واقترابها من قلاعنا غير مقصود ولكنهم مُجبرون على ذلك بفعل الريّاح العاتية، يا سيدي أنَّهم الآن يرفعون "صنجاق المفاوضات" /65/ وفي وقت رفعه لا يصح لنا أن نرميهم بالكور كما تعلمون، وإلاّ فإنَّنا بهذا الفعل نخرق قواعد الحرب» لكن الباشا صرخ قائلا: «إذا أوقفتم رمي الكور عليهم أمرت بقتل المدفعيين الذين بالقلاع» وأصرَّ على قوله[1]. فشرعت المدفعية في الرمي مِن جديد إلى أن أصابت إحدى الكور قمرة السفينة، فقام ريس سفينة الفرنسيس بإغلاق فوهات كوره ومدفعيته، وبهذا كان يومئ بأنَّه مهما كانت الكور المصوبة نحوهم فلن يردُّوا عليها.

---

[1] نفى الداي حسين باشا الجزائر هذه الرواية جملة وتفصيلا في اللقاء الذي أجراه مع الضابط جال أغسطين في باريس، بل قال حسين باشا بخصوص هذه القضية أنَّه لما سمِع قصف المدافع لم يفهم ماذا جرى ويقول في ذلك:«...لقد أسرعت بالنظر إلى جانب بطاريات البحرية، فرأيت ما كان يحدث، وعندئذ أمرت أحمد [خادم الباشا] أن يذهب لوقف القصف الذي شرع فيه دون تقدير العواقب، ويمكنك أن تسأل أحمد ما دام موجودا معنا، وكم كانت مسيرة أحمد طويلة رغم أنه لم يكن هناك سوى شارع قصير جدا عليه أن يقطعه، وكان على أحمد خادمي المخلص القديم أن يقطعه بسرعة بالتأكيد وخلال قطع تلك المسافة كنت ألطم رأسي وفخذي وأقول: يا حسرتاه علينا.! يا للعار! نطلق النار على سفينة جاءت للتفاوض! إن ذلك هو ما يؤدي إلى خراب المدن! فيا لأولئك الملعونين!» تعمدت إيراد رواية حسين باشا بنفسه حتى لا يحكم القارئ على حسين مباشرة من متن الكتاب دون أن يدافع حسين باشا على نفسه من هذه التهم، ولعلنا نعود إلى حسين باشا مستقبلا بدراسة مستقلة.

لم يتوقف الرمي من البرج إلى أن مرَّت السفينة على طول البر الذي فيه القلعة، وفي نهاية تمَّ بنجَاحٍ وصولها إلى السُّفن الأُخر لكن في حالة مُهترئةٍ.

بعد عدَّة أيام وفدت عمارة كبيرة مِن فرنسا وأخذت في حصار الجزائر، إلى درجة أنَّه لم تستطع أي سفينة، بل حتَّى صندل مِن الصغار الدخول إليها. وظلت هذه السفن تحاصر الجزائر مدة شهر، أحس الباشا حسين حينها بأنّ شرفه قد مُسَّ، فأمر مِن ساعته بجمع كل السفن الموجودة في الجزائر مهما كان حجمها كبيرها وصغيرها وأمر الريَّاس بإرسالها لمهاجمة العمارة الفرنسية وأرسل في أزقة المدينة بالدلال ينادي في النَّاس أن أجيبوا داعي الجهاد في سبيل الله.

/66/ فشحنت السفن بالعساكر، وفتحت أشرعتها واتجهت في صوب العمارة الراسية قبالة بحر الجزائر، اجتهدت هذه السفن أن تبحر تحت الريح لكن العمارة الفرنسية قد رمتها من بعيد بالكور والبومبا فلم تستطع الاقتراب منها حتَّى. استمرت المواجهة إلى أن أضحت سُّفن الإيالة محطمة وخربت صواريها وعطبت أشرعتها، وبعد صعوبات جمَّةٍ تمكَّنت بعض هذه السُّفن مِن العودة إلى البر بعدما قُدِّمت لها المساعدة، لكن وصلت في حالة مُهترئةٍ لم يبق منها إلاَّ هياكل السُّفن. لم يكن مِن الممكن تقديم المساعدة لكل الجرحى ومن سقط من الغزاة ممن لا يحصي عددهم إلاَّ الله، وهكذا أدى التدبير السّيء الذي سلكه داي الجزائر "حسين باشا" إلى أن وصل الأمر إلى هذا المآل ولله الأمر من قبل ومن بعد[1].

[1] والغريب في الأمر أن باشا الجزائر "الداي حسين" في مراسلاته إلى الباب العالي روى رواية غير التي بثها صاحب التصنيف، بل ذكر "حسين باشا" أنَّ الله نصر سفن الإيالة وأنَّ الإيالة لا تحتاج أي عون وستحل الأمر بنفسها مع الفرنسيس، وجل ما طلبه الإذن بتجنيد بعض الجنود من أزمير كما جرت العادة. وهو ما أذن به الباب العالي. للتفصيل أكثر انظر: خيرالدين سعيدي، "ترجمة ودراسة لأربع رسائل باللغة العثمانية عن الحصار الفرنسي

للسواحل الجزائرية"، مجلة أسطور للدراسات التاريخية، العدد 15، فيبراير 2022 صص. 245-266.

الفصل السابع

هجوم عساكر الجيش الفرنسي برا على مدينة الجزائر، شرح المواجهات على قلعة الإسبان أو برج "مولاي حسن"

أتى الخبر بإرساء عساكر فرنسا الذين وفدوا في عمارة عظيمة بميناء "سيدي فرج" والذي يبعد أربع ساعات عن مدينة الجزائر، من ساعته أمر الداي حسين باشا صهره إبراهيم آغا/76/ بأن يجمع العرب ويتجه على عجل إلى تلك الناحية من البلاد ليقابل عساكر الفرنسيس، كما أعطى الباشا الأمر بأن يُرسل الخبر إلى البايات وإلى قبائل العرب بأن تجمع ما أمكنها وأن تسير إلى الجزائر في الحال من أجل مقابلة عساكر الكفار[1]، لكن نجد أنه بسبب بعد البايات عن الجزائر بعشرة إلى خمسة عشر يوما فإنه ما كاد يصلهم الأمر إلاّ وعساكر الكفار تتقدم ببطء في البر إلى المدينة ومن حينها شرعوا في رمي الكور.

مثلما سبق الحديث عنه لم يجد عساكر فرنسا عند تقدمهم من القلاع من يقاتلهم إلاّ تلك القلعة التي كان قد أنشأها "يحى آغا" رحمه الله، وقد ظلَّ هذا البناء غير مكتمل بسبب أوامر الداي الجزائر "حسين باشا" كما سبق ذكره زيادة على ذلك فإنَّ ما وجد هنالك من مَدافع كان قديما وضعيفا لا يُعتدُّ به فما هي إلاّ أشياء غير مجدية لا نفع يُرجى منها، لذا لم تستطع هذه القلعة أن تحتمل ما رُمِي عليها مِن مدافع العمارة الفرنسية.

---

[1] في حقيقة الأمر توجد مراسلات من أحمد باي إلى الباب العالي ينفي فيها هذا الأمر، بل يقول بأنَّ الباشا أمرهم بأن لا يتقدَّموا إلى الجزائر إلاَّ بما تعودوا أن يتقدَّموا به مِن الجنود والعساكر، وكل ما طلبه مِن باشا الجزائر أن يحصِّن ميناء عنابة مخافة أن يطرقه العدو الفرنسي. للتفصيل أكثر في هذه المسألة انظر: خيرالدين سعيدي، "قراءة في المهمة السرية للمير آلاي كامل باي إلى قسنطينة سنة 1836م" مجلة عصور جديدة، المجلد 11، العدد 2، السنة 2021، صص. 357-379.

في مدَّة قصيرة من الزمن تمكَّنت عساكر الفرنسيس مِن الخروج بأسلحتهم والدوبلى إلى البر، وعند هجومهم على القعلة مكنهم الله ممَّا فيها مِن الذخيرة والأسلحة، ودون أن ينظروا إلى شيء آخر شرعوا في بناء متارسهم، في الوقت الذي ظل فيه آغا العرب "إبراهيم باشا" مُندهِشا ممّا ترى عينه، تجمَّع ورجاله الذين تسلَّلوا إلى داخل الغابات، ، /68/ وتحدَّثوا عن الكيفية التي سيحاربون بها.

فلما شهد عساكر الجزائر ما حل بإبراهيم آغا من خوف وهلع؛ ورأوا أنّ الأمر سائر إلى الضياع والخروج من بين يديه، أرسلوا مِن حينهم إلى داي الجزائر وأخبروه بالأمر، وأعلموه بأنَّهم يرفضون بأن يكون إبراهيم آغا أميراً عليهم، إلاَّ أنّ الباشا ركب رأسه ورفض عزله، بل جل ما قام به أن قام بنصحه وتهديده وأشاع بين العساكر تهديداً ووعيداً باسم الباشا لمن يعصا منهم أوامر إبراهيم آغا.

بعد يومين ممَّا حدث شرعت قبائل العرب في الوصول، لكن ذلك لم يكن يغني شيئا؛ إذ لم يكن لديهم لا السلاح ولا البارود، لذا طلبوا من الباشا أن يزودهم بالسلاح والبارود[1]، فأجابهم بقوله: «بعد هزيمتنا من قبل الفرنسيس فقدنا معظم ما كان بين أيدينا من سلاح، إذ استولى هؤلاء الكفرة على معظم ما لنا من أسلحة..» كان الباشا يظن بأنّ إعطاء الأسلحة للعرب وبقاءها بأيديهم بعد دحر الفرنسيس سيؤدي إلى الفوضى في المدينة، وزيادة على هذا التفكير الغبي، فإنّ مَن كان أتى مِن الغزاة مُسلحاً بسلاحه لم يعطوه إلاّ اثنتا عشرة

[1] ورد في مراسلة من الحاج أحمد باي إلى السلطان العثماني تصوير بليغ لهذا الأمر جاء فيه: «...فطفق الوالي لسوء تدبيره يستجمع القبائل والأعراب، ولات حين استجلاب وحينما قدموا شرذمة بعد شرذمة كان العدو قد حفر خنادقه وأنزل عساكره ورتب مواقعه وصادف عساكر المسلمين مشتتين بدون بارود ولا زاد فتقرب إلى البلاد وملكها دون كبير قتال والأمر لله...» انظر: الأرشيف العثماني

- BOA. **I. DUIT. G 25/139**.

خرطوشة لا غير، فقال عندها المجاهدون من قبائل العرب: «.. عدونا على بعد أربع ساعات من هنا، عندما نكون في الحرب معهم وينفذ ما عندنا من طلقات قليلة هل سنعود إلى هذا المكان من جديد لأخذ غيرها! إننا نريد ما يكون فيه كفاية لنا وفي الحال». فقيل لهم «إن صناديق الذخيرة لدى إبراهيم آغا/68/ وهو سيزودكم بها هنالك عند انتهاء ما عندكم من ذخيرة»[1]

وفي طريقهم أخذت العرب ما كان في أيدي إبراهيم آغا من ذخائر، وانطلقوا في الهجوم والقتال مع عساكر فِرنسا إلى غاية العصر، وكان عساكر الفرنسيس قد قاموا بتعليق ونشر صحيفة وألواح باللغة العربية في كل الأماكن وفي ثنايا كل الطرق، ومما جاء فيها :«...يا سكان مدينة الجزائر، ويا أيُّها العرب والقبائل اعلموا أنَّما نحن مُكلَّفون مِن قبل الدولة العليَّة بمهمة رفع الظلم الذي سلَّطه عليكم عساكر الانكشارية، وليكن في علمكم أنَّنا ما قمنا به وما سنقوم به لن يكون إلاَّ لأنّ هؤلاء الجند قد قاموا على سيِّدكم السُّلطان الأعظم ونقضوا عهدهم؛ لذا قَدِمنا إلى هنا مِن أجل تأديبهم، ولهذا وجب عليكم أن تكونوا لنا عوناً. عليكم أن لا تحاربونا، بل عليكم أن تكونوا إلى جانبنا، وأن تساعدونا لأنّنا خَدَمُ الدَّولة العليَّة والحضرة السلطانية. هذه الدولة التي نسأل الله أن يحفظها من أي نقص إلى يوم القيامة. كما أنّه لا طاقة لكم بالوقوف في وجه عساكرنا» وممَّا تضمَّنه هذا البيان مِن: تهديد، ووعيد، وتطمين، وتسكين. جعل الأهالي في حيرة مُندهشين. وبالرغم مِن أنَّهم كانوا يفكرون فيما ورد في هذا البيان غير أنّه لم يحملهم على التراجع عن الحرب، وكان العرب والقبائل في ازدياد، لكن لم يكن لهم عِلمٌ بفنون الحرب، ولا بالنظام العسكري الحديث

/70/ ولم تكن لهم ذخيرة إلاّ النزر القليل الذي كان في تلك القعلة، حقيقة كان "يحي آغا" قد أنشأ قبل مقتله فرقة جديدة من المدفعجية، ولكي يُتمَّ

[1] راجع ما كتبه عن هذه الوقائع حمدان خوجة في القسم الثاني من كتابه المراءة الفصل الثاني 154.

مراده فقد استعان بمدربين ومهندسين خصيصا من مصرَ. اضطرت هذه الفرقة إلى الخروج للحرب وهي لم تستكمل بعد تجهيزها. وما هذا إلاّ لأنَّها مجبرةٌ على ذلك؛ بسبب الحاجة إليها، مع ما كان من سعي هذه الفرقة برميها المدافع إلاّ أنّ عساكر فرنسا لم تترك لها أي فرصة أو متسع من الوقت؛ فقد كانت ترمي هي الأخرى المدافع بدون انقطاع، فاضطر معها عساكر الجزائر إلى اتخاذ القرار بالابتعاد عن المواجهة.

وحينها بالتدريج شرع الفرنسيس في الاقتراب من مدينة الجزائر، حقيقة اجتمع من العرب والقبائل ما تجاوزه عدّه المئتا ألف رجل، وقد ضاقت بهم الأرض مِن كثرتهم وهم يرفعون أصواتهم بالجهاد في سبيل الله، لكن لم يوجد أمل مع غياب قائد قادر فعلا على الأخذ بأيديهم، يذهبون إلى ساحة المعركة مجموعات دون تنظيم إلى ساحة الجهاد وغرضهم أن لا يتركوها لعساكر الغزاة فلما شهد عساكر فرنسا ذلك زادوا في رمي الكور والمدافع، فوقع لذلك كثير من الشهداء /71/ ولما يأت المجاهدون للمساعدة في ساحة القتال هذه يسقطون قتلى لنار الغزاة، وحالهم في هذا كحال الطائر الذي يقع في المصيدة إذ كان عساكر الجزائر لما يتقدَّمُون إلى الغزاة يتساقطون في ساحة الوغى بكل يسر ودونما عناءٍ.

ولغياب التنظيم بين عساكر الجزائر؛ تمكَّن الغزاة الفرنسيس في النهاية مِن إحكام السيطرة والاستيلاء على مدينة الجزائر في ثلاثين ألف من العساكر دون كبير عناء.

أمَّا العرب والقبائل، الذين سبق الحديث عنهم؛ فإنَّهم سقطوا بالجملة شهداء في سبيل الله بسبب عدم تقديم حكومة الأوجاق للأسلحة والذخيرة لهم في الوقت المناسب، ما حمل الكثير منهم على دخول ساحة المعركة بالعصي لأخذ أسلحة الذين سقطوا شهداء.

باختصار، في الوقت الذي كان عساكر الفرنسيس يتقدمون خطوة بعد خطوة إلى مدينة الجزائر من جهة، كانوا يقومون بإنشاء التحصينات العسكرية أيضا أثناء تقدمهم.

في اليوم الخامس من بداية الحملة أضحى الجيش الذي شكله إبراهيم آغا لا يكاد يقدر على شيء، إذ كلما قابل الجيش عساكر الفرنسيس في جهة من الجبهات إلاّ وخرجت مِن تحت يديه مواطن جديدة لصالح الفرنسيس، عاد أثناء هذا إبراهيم آغا إلى مدينة الجزائر وعندما شرح ما حدث لباشا الجزائر فهم الداي حسين أن صهره لم يكن أهلا لهذا العمل. في هذه الأثناء تسلم مفتي الجزائر سيدي "محمّد بن العنابي" رياسة عساكر الجزائر/72/ حقيقة بالرغم من فضل وعلم سيدي "محمّد بن العنابي" إلا أنّ جهله لفنون الحرب جعله مجبرا على إطاعة الأوامر، وظل يسعى شاحذا لهمم الأهالي لأجل محاربة عساكر الغزاة.

غير أنَّ الفرنسيس مدعومين بقوة كبيرة من الجند والعتاد كانوا يقتربون من السيطرة على قلعة الإسبان التي كانت تعرف باسم "برج مولاي حسن" والذي يوجد بأعلى قمم مدينة الجزائر، وإن تمكّن عساكر فرنسا مِن أخذ هذه القلعة فقد استطاعوا بالفعل أخذ المدينة كلها؛ إذ أنّ القلعة تشرف على المدينة كلها، ومن هذه القلعة تصبح المدينة كلها تحت فوهة المدافع. هذه القلعة أنشأها الإسبان في أحد حروبهم في الجزائر، وقد عاني أهالي الجزائر كثيرا قبل أخذ هذه القلعة من أيدي الإسبان، وبعد أخذ القلعة عملوا على تقويتها أكثر فجعلوها بحق قلعة عظيمة وقوية.

في الأثناء نفسها التي كان عساكر فرنسا يتقدمون باتجاه القلعة، كانت التحصينات الفرنسية تنشأ على جميع النواحي، إذ أنه وحتى لا يسمح للبومبا التي كان يُرمى بها من أعلى القلعة، ومِن أجل إيقاف مَن كان في أعلى هذه القلعة تمّ خلال يومين تجهيز هذه التحصينات العسكرية، ومن أجل الاحتراس والتخلص تماما من الخطر الكبير لكور البومبا التي كانت تُرمى من أعلى القلعة

أنهوْ إنشاء كامل تلك التحصينات. بعد الفراغ من هذه التجهيزات، فجأة سمع انفجار كأنّما هو دوي رعد في السماء /73/ لدرجة أنَّه لم يكن ممكنا للرَّجل مِن العساكر في القلعة أن يخرج ويضع الكور في ماسورة المدفع، امتلأت القلعة بالجرحى والشهداء، حتى لم يبق رجل له القدرة الكافية على تجهيز المدافع.

في هذه الأثناء نزل مَن ظلَّ في القلعة إلى بابها ولما سعوا للخروج قال لهم الأمير على القلعة: «لا سبيل لذلك» ومنعهم، غير أنّهم أدركوا أنّه لا مدد سيقدم إليهم من طرف باشا الجزائر، كما أنهم أيقنوا بأنّهم إن سلموا أنفسهم سيكونون كالخرفان بين أيدي عساكر فرنسا، ففكروا في أن يشعلوا النار في البارود الموجود بالقلعة حتى ينسفونها نسفا وتسقط القلعة كأنها لم تكن شيئا مذكورا، فأخرجوا من مخزن الأسلحة ما وجد فيه من بارود كان في القلعة وجمعوه، في هذه الأثناء كان عساكر فرنسا يهاجمون القلعة وبدأوا في السعي الحثيث لإسقاط باب القلعة، حينها قام المدفعجي باشا بإيقاد النار في البارود الموجود، وبسبب الكمية الكبيرة الموجودة من البارود طار نصف القلعة في الهواء، ورجت الأرض بمدينة الجزائر من هول الانفجار.

وحينها كل أجساد الشهداء ومن وجد في القلعة من الجرحى مع من أحاط بهم من عساكر الفرنسيس الذين كانوا يهاجمون القلعة عند الباب طارت أبدانهم في السّماء.

الفصل الثامن

تسليم الباشا مدينة الجزائر للفرنسيين

شرح دخول عساكر فرنسا منتصرين إلى مدينة الجزائر

بمجرد أن انقشع اللهيب الذي أحدثه انفجار البارود في الهواء شرع عساكر الفرنسيس مستعينين بالأربطة والأحزمة التي لديهم في بناء وتجديد التحصينات العسكرية مرّة أخرى، ونصبوا المدفعية، وحولوا جميع المدافع باتجاه مدينة الجزائر، أما باشا الجزائر فإنه لما يمعن النظر بعين الحقيقة إلى مآل الأمور الواقعة يجد أن كل أمل له في تدارك الأمور قد انكسر، حينها بعث الدلالين في استدعاء العلماء والشيوخ والأعيان والضباط إلى الجامع، حضر الجميع وظلوا يترقبون وصول الداي.

قدم الداي إلى الجامع وهو يمسح دموعه بمنديل يحمله في يده، فلما وصل إلى حضرتهم حدثهم قائلا: «يا أبناء ها قد رأيتم ما حل بنا نتيجة هذا البلاء فأشيروا علي برأيكم، وما قلتموه أنفذه من ساعته» /75/كان من بين المجتمعين أحد الضباط ممن شهد العديد من الحروب والمواجهات فتقدَّم إلى مخاطبة الباشا قائلا: «...كان عليك قبل أن تعلن الحرب أن تستشير الناس حينها، كان عليك أن تعلم الناس بما ستعمله في تلك الأثناء، لكن بعد أن بلغ الوضع هذا المبلغ تريد منا أن نجد لك حلا! ماذا يمكننا الآن أن نقول؟ وَصِيَتُنا أن يتم قتلك، ألا تعلم بأنه لا طاقة لنا للدخول في حرب مع دول كفرنسا وإنجلترا. حتى في زمن أسلافنا أنهم إذا أعلنوا الحرب مع فرنسا أو إنجلترا وهي بجانب باب البحر صباحا لم يحل المساء إلاَّ وقد وجدوا حلاً، هكذا وُجد مكتوباً في كتبهم. لو أنّك طلبت مشورتنا في الوقت المناسب لكنا أريناك تلك المغازي» مثل هذه الآراء والأقوال سيقت، ولما وصل الكلام إلى حضرة بعض العلماء والعقلاء قالوا: «لا فائدة تُرجى من هذه الأقوال الآن» انتهت المشورة بالاتفاق على اجتماع كل أهالي مدينة الجزائر ممن بلغ الخامسة عشر ولم يتجاوز

السبعين من العمر في الصباح الباكر من يوم الغد، على أن يقوم الجميع بمهاجمة برج الإسبانيول "مولاي حسن" /76/ لذا نفض الجميع من مجلسهم إلى بيوتهم وأهاليهم يودعونهم ويطلبون الصفح عما يكون قد بدر منهم.

في المساء من اليوم نفسه اجتمع من جديد أهالي المدينة بجانب المدفعجي باشا بمحاذة "برج السردين" وأعادوا عرض القرار الذي اتخذ صباحا للمناقشة، وفي الوقت نفسه خرج كل من ليس على رأس عائلة إلى قلاع المدينة للحراسة، فلم يبق غير أرباب الأهالي والعائلات، فلما اجتمع هؤلاء القوم قالوا: «..إنَّنا إذا ما قمنا بمهاجمة عساكر الفرنسيس فإنَّنا لا نَأْمن بطشهم، ولامحالة سيعلن عساكر الغزاة الحرب على مدينة الجزائر، وسيحرقونها ويستبيحون نساءنا ويقتلون أطفالنا؛ لذا بدا لنا أن نسعى إلى التفاوض معهم، وأنْ نسعى إلى الهدنة معهم وترك الحرب، بل ونرضيهم كما أرضينا من قبلهم الانجليز» وهكذا اتخذوا قرارهم.

في الليل قدم أهالي مدينة الجزائر إلى قصر الباشا، فخرج إليهم وقد امتلأ غما ممّا آلت إليه الأمور، فأعلموه بقرارهم في شأن مفاوضة الفرنسيس وألزموه بأن يبعث من يخبر الفرنسيس بذلك من ساعته، وعلى الفور أرسل الباشا في طلب من يتقن لغة الفرنسيس، كان يوجد من اليهود من يتقن لغة الفرنسيس بيد أنه مع بداية الحرب فروا إلى جناب الجيش الفرنسي.

كان يوجد أيضا أخي المرحوم حسن[1] تعلم لسان الفرنسيس من رحلته مع والدي إلى فرنسا فيما مضى من الزمن، كما وُجِد أيضا سيدي "محمد بوضربة"

---

[1] وقفنا في الأرشيف العثماني على رسالة نادرة من "حسن خوجه" إلى والده "حمدان بن عثمان خوجة" بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، يستفسر فيها "حسن" والده عن حاله وأحواله وعن خبر عزل "رشيد باشا" و"أحمد فتحي باشا" وولاية "سعيد وطاهر باشا" ولأهمية هذه الرسالة أدرجنها في ملاحق الكتاب.

- BOA: I.HR. Do11. G553. Tarih 22 R 1257.

مِن ضمن مَن عُدَّ عالماً بلسان الفرنسيس[1]. بعدما أُحضر المذكورون آنفا أرسلوا إلى عساكر فرنسا. حاملين بأيديهم راية التفاوض، اتجه الوفد مباشرة إلى مقابلة المارشال بورمون (هذا الشخص عين برتبة جنرال في عهد الملك شارل) تحدّث معهم الجنرال دي بورمون قائلا: «لو تأخرتم قليلا لكنا قمنا بتسوية مدينتكم بالأرض، وجعلنا عاليها سافلها، تمعنوا جيدا في قواتنا ثمّ ارجعوا إلى ملككم فأخبروه عنها»

فتحدَّث أحد رجال الوفد قائلا: «لقد قدمنا من جناب الباشا، أعلمونا بمرادكم ومطالبكم نوفيها إليكم، ومن الآن لا داعي للتَّقدُّم، عليكم أن تعودوا أدراجكم..» فقال الجنرال: «إنما أنا مُكلَّفٌ مِن طرف الدَّولة العلية بأخذ هذه المدينة، ولا أَبرحُ مكاني هذا حتى تأتيني الأوامر بذلك؛ لذا سأمكث بمحلة الجيش الإنكشاري، وسأتحرك وفق ما يَقْدُم إلي من أوامر جديدة..» فعاد الوفد المفاوض إلى الباشا معلمين إياه بما جرى وتقرَّر، أعاد الباشا إرسالهم مرَّة أخرى، قائلا: «سنقبل بذلك، بشرط أن يخطَّ هذا الكلام حرفيا، وألا توضع اليد على أموال الأهالي ولا يمس عرضهم وشرفهم، وأن تبقى المساجد ومقابر المسلمين على حالها فلا تمسوها بسوء»[2]

بعدما أُعلِم الجنرال بتوصيات الباشا، وأعلن قبوله بذلك، كتب في ذلك كتابا مُضَمَّنُه: «...إنّ المدينة من جديد هي مدينة عثمانية، وما أنا إلاّ مجرد

---

[1] الكلام نفسه أورده والد صاحب الكتاب حمدان خوجة في كتاب المرآة.

[2] وهو فعلا ما ورد في اتفاقية تسليم المدينة أي بهذه الشروط كما يوضحها النص الذي أدرجنها في ملاحق الكتاب (الملحق4) ، إلا أنه لم يثبت احترامها تماما كما هو معلوم، وقد وضع المؤلف في ذلك فصلا سيأتي لاحقا في بيان نكث الفرنسيس لعهودهم مع الجزائريين. انظر:

- Expédition d'Afrique. Prise d'Alger par l'armée française, le 5 juillet 1830, à deux heures après midi. Nouvelles officielles، Impr. d'A. Veysset (Clermont-Ferrand), 1830.

خادم لهذه الدولة، دخلت المدينة منتظرا أمر الدولة العلية، وأثناء هذا أنا لست متصرفا في شيء بها أو مغيرا حاله. وللباشا الحرية في أن يذهب من المدينة إن أراد ذلك. ثم قدم إليهم الكتاب وأضاف إليه شرط آخر يقول فيه على أنه في اليوم القادم بعد الظهر لي أن أدخل المدينة»

لم يكن أهالي مدينة الجزائر على علم بخبر دقائق هذه المفاوضات بين الباشا والجنرال؛ إذ كان سكان المدينة مشتغلين يتفكرون فيما سيؤول إليه أمرهم وأمر أبناءهم وكأنما هي أهوال القيامة، فالقوم يمشون في الطرقات حاسري الرؤوس حفاة الأقدام والنساء ملتحفات بلباسهن يجبن الأزقة ينتحبن والجميع يسأل عمَّا حدث لكن لا أحد يجيب، من كان بداخل القلعة يسأل عمن هو خارجها وماذا فعل؟ ومن بخارجها يسأل عن حال أهليه وعشيرته بداخل المدينة، يطوفون حول أنفسهم وهم يصيحون وحالهم كحال المجانين، /79/ في هذه الأهوال في وقت الظهيرة[1] بدأ عساكر الفرنسيس في دخول المدينة في كِبَرٍ وعُتُوًّ يقرعون طبولهم وينفخون في مزاميرهم، في حين ظل الأهالي في سكون يَلْزَمُون دُورَهُم. في حين ذهب الباشا ماشيا للقاء الجنرال. ما إن وصل إليه حتى قدم له مفاتيح خزينة الإيالة، وكانت مليئة عن آخرها بالهدايا والعطايا والأموال، وقد أعطى الجنرال للباشا الحرية في أخذ ما يريد منها، وعندما دخل الباشا إلى الخزينة حمل معه ما يستطيع حمله من المجوهرات الثمينة وخرج منها متجها إلى دار السلطان القديمة، أي داخل القلعة (القصبة) وقام بتسليم الحكم إلى الجنرال، من ساعتهم سارع عساكر الفرنسيس لتوطين أنفسهم في المواطن التي كان يرابط بها عساكر الجيش الانكشاري.

---

[1]- يذكر الجنرال دي بورمون في أول تقاريره من مدينة الجزائر إلى الملك الفرنسي دخوله المدينة على الساعة الثالثة بعد الزوال. انظر:

- Expédition d'Afrique. Prise d'Alger par l'armée française, le 5 juillet 1830, à deux heures après midi. Nouvelles officielles، Impr. d'A. Veysset (Clermont-Ferrand), 1830.

الفصل التاسع

ذكر نكث الفرنسيس لشروط الصلح بعد الاستلاء على المدينة

/79/كما سبق كتابته، فإن المارشال دي بورمون بعدما أن أحكم السيطرة على مدينة الجزائر، شرع أولا في تحويل المساجد إلى كنائس، كما قام بجعل بعض المساجد الصغيرة خمارات وضيعة. حتّى أنّهم أتوا على أوّل مساجد الجزائر (جامع السيده) وهو جامع شريف في غاية الجمال، فقاموا بهدمه[1] وحلَّ محله ميدان فسيح.

---

[1] كان مسجد السيده من أشهر وأجمل مساجد الجزائر حينها، ذكر أوث في رسومه التخطيطية الخاصة بالجزائر بقوله: «...لقد كان جامع السيده/La Mosque de La Dam (Djamaa es seyda) أجمل مسجد امتدت إليه يد الخراب للحاكم الفرنسي في الجزائر». ونقف في ملحق كتاب "المرآة" لحمدان خوجة على عدد من المراسلات والشكاوى إلى وزير الحربية الفرنسي المرشال (صولت/Soult) بخصوص ما كان يحدث من تجاوزات في الجزائر، واستعرض "حمدان خوجة" في إحدى تلك المراسلات ما حلَّ مِن خراب بمسجد السيده قائلا: «..**لقد هدموا جامع السيده وأخذوا ساريته وأبوابه ورخامه،...كما هدموا ثلاث أو أربع مساجد صغيرة كانت حوله بدعوى تشييد الساحة** ....» مطالبا بالتعويض عن هذه الأضرار واحترام معاهدة الاستسلام التي نصت على احترام الدين الإسلامي ودور العبادة. لكن وزير الحربية رد على ذلك بقوله: «.. **عندما وعدنا باحترام الدين الإسلامي فإننا لم نلتزم مطلقا بعدم مس تلك الأماكن لأي سبب من الأسباب**...» للتفصيل أكثر راجع:

- A. Otth, ***Esquisses africaines***. 29 Planches.
- Hamdan-Ben-Othman-Khoja: ***Le Miroir*** (Aperçu historique et statistique sur la régence d'Alger) tr H.D. Oriental. Paris, Imprimerie de Goetschy fils et compangnie, 1833, P329.

وسبب هدم هذا الجامع خبر أفشى به اليهود إلى الفرنسيس، مُضمّنه أنّ الجامع يُخفي أسفل منه خزنة بها كنزٌ عظيم، فطمعت في تلك الأموال واشتهتها نفوس الفرنسيس، ثمّ أغلقت بعد ذلك أحواز هذا الجامع بحجة الأعمال.

ليقوم بعد ذلك الفرنسيس بتهديم جميع ما بجانب الجامع من المنازل والدكاكين التي يعود ملكها للجزائريين، وحجتهم في عملهم هذا تنظيم الأزقة وتوسيعها. كان هذا الجامع مُزخْرفاً بنوعٍ فاخرٍ مِن الفسيفساء الجميل.

في تلك الأثناء أُنزِل حاكم فرنسا "شارل العاشر" من الملك، وأُجلس مكانه "لويس فيليب"، فيما قام الجنرال بورمون بنهب الأموال والمجوهرات التي كانت بالخزينة أثناء ذلك. وعلى ما ينقله الفرنسيس بأنفسهم في تواريخهم[1]، فقد احتوت الخزينة على قرابة مائة وخمسون مليون فرنك وعدد ألفين من الجواهر العظيمة وطواقم مختلفة من الأشياء الثمينة.

حقيقة حسب ما بلغ مسمعنا، فإنّ الفرنسيس لم ينقطعوا خلال ثلاثة أيام كاملة من تحميل ما كان بالخزينة من أموال ومجوهرات وأشياء ثمينة على ظهور الأحمرة ونقلها إلى بلادهم، إذ احتوت الخزينة حينها الكثير من المجوهرات والأواني من الذهب والفضة وغيرهما من المعادن الثمينة؛/81/ غالب هذه المجوهرات والأشياء الثمينة كانت الدولة غنمتها وادخرتها من الضرائب والغنائم التي كانت تُساق من العرب، وكان ضمن الخزينة العديد من المعادن

- Abdeljelil Temimi, ***Recherches et documents d'histoire Maghrébine***: La Tunisie, l'Algerie et la Tripolitane de 1816 a` 1871 (Universite de Tunis, 1971).

[1]- من ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما تذكره إحدى التقارير الفرنسية التي قيدت في ميناء طولون في 23 جويلية 1830م بأنه قد ورد من الجزائر ما مجمله خمسة عشر مليون فرنك اثنان منها تعود للخزينة الفرنسية في الجزائر وثلاثة عشر مليون الباقية هي عبارة عن ذهب وفضة وقطع نقدية مختلفة. انظر:

- Expédition d'Afrique, armée française, dépêches télégraphiques, Toulon, 23 juillet 1830, impr. de Brunet, Lyon, 1830

الثمينة والمجوهرات العتيقة التي لم يكن يُعلم تاريخ صنعها. هذه الأغراض الثمينة كانت تنقل عادة في كتمان وسرية من طرف الحمالين، وتُوضع على متن سُفن تذهب بها إلى فرنسا، وفي وقت قصير عُلِم أنَّ ما سلبه المارشال بورمون من خزينة الجزائر هو عشرة أضعاف ما صرفته الحملة الفرنسية للاستيلاء على مدينة الجزائر.

مرَّة ثانية وحسب ما ينقله الفرنسيس أنفسهم في كتبهم، فإنّ المارشال بورمون قد سرق العديد مِن الأغراض والمجوهرات الثمينة لمصلحته الخاصة لكن مثلما سيأتي شرحه لاحقا فإنّ حكمة الله قضت بأن يبدل من منصبه فلا يكون له نصيب ممَّا كان قد سلبه من الخزينة.

وُجِد عدد من الأقباط المترجمين قد عادوا بمعية عساكر الشهير "نابليون بونابرت" من مصر بعد رجوع الحملة إلى فرنسا واستقرُوا بها، وعندما قدم الجنرال المومى إليه بورمون إلى الجزائر وفدوا معه إليها، وشرعوا في القيام بكل أمور الترجمة التي تتعلَّق الجنرال. اضطر الأهالي مِن أجل حل مشاكلهم وتسيير أمورهم إلى الاستعانة بهؤلاء المترجمين؛ ولأجل حمل هؤلاء المترجمين على القيام بأعمالهم اضطر الأهالي إلى تطييب خواطرهم وتقديم الرشاوى لهم. إضافة إلى هؤلاء المترجمين كان يوجد أيضا اليهود الذين يقدمون المعلومات للفرنسيين.

/82/ على كل حال قام الجنرال بورمون بإرسال عدد من السفن إلى كل من سنجاق عنابة ووهران في طلب من تخلَّف مِن الترك في هذه المدن، فلمَّا قَدِمُوا إليه قال لهم: «..لأنَّكم قومٌ مِن الترك أرسلت في طلبكم؛ حتى أعيدكم إلى بلدكم» وبالرغم مِن وعده هذا فقد ظل العديد مِن الفقراء المعدومين مِن بينهم في الأَسر مُدَّة طويلة.

بالرغم من أن الجنرال أخذ الكثير من الأموال مِن بين أيدي الأغنياء، إلاَّ أنَّه لم يُعلَم هل أخذَ تلك الأموال إلى خزينة فرنسا أو إلى جيبه، ولحد الآن لا يُعلَم مبلغ المال الحقيقي الذي قدَّمه باي وهران في مدينة الجزائر إلى المترجمين نظير الحصول على ما وُعِد به مِن الحماية.

أمر الجنرال بورمون مناديا ينادي في أهل المدينة من الترك، أن يأمر كلّ مَن يُوجد مِن الترك في المدينة بأن يتجهَّز ويقدم إليه خلال أربع وعشرين ساعة لأجل الرحيل، بالإضافة إلى الذين تحضَّروا للرحيل فإن يوجد عدد ممَّن لم يستطع التَّحضر للسفر؛ رُوي عنهم أنّهم كانوا يأتون إلى المترجمين ويُقدِّمون لهم المال الكثير والعطاء الجزيل مقابل مهلة قصيرة جدا تتيح لهم تحضير أنفسهم للسفر؛ في الأخير بسبب هذا الفعل، استُدعِيَ عددا مِن المترجمين إلى فرنسا وكان هذا سبباً مُوجِباً لعزل الجنرال بورمون.

خلفه في منصبه الجنرال كلوزال لكنه لم يحد عن سيرة سلفه/83/ إذ بزعمه الحاجة إلى توسيع الطرقات في مدينة الجزائر؛ أجبر الأهالي على حفر القبور وإخراج ما فيها من عظام الموتى ليذرها بعد ذلك مرمية في الميدان العام عند ذلك أبلغ الأهالي أصواتهم المستنكرة لهذا الفعل الشنيع، فلمَّا بلغ فرنسا ما انتشر مِن الضوضاء بسبب هذا أسرعت إلى عزله وعيَّنت مكانه الجنرال روفيغو.

كان الجنرال كلوزال قبل عزله من منصبه في الجزائر كان قد شرع في إنشاء قسم من العسكر من أبناء أهالي الجزائر، وأعطى هذا القسم اسم (غارد دونور/ *Garde d'honneur*) فرقة الحرس الشرفي أو (محافظ ناموس بلوكى) فكان هذا القسم من الحراس على النمط الأوربي فكان لباسهم مزركش بخطوط ذهبية وعلى رؤوسهم وشاح لاهور[1]، قام العديد من الأهالي بتسجيل أبناءهم للانتساب إلى هذه الفرقة.

[1] نوع من أنواع القبعات التي كانت تصنع في مدينة لاهور الهندية خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

في تلك الأثناء قَدِمَ مملوكٌ اسمه يوسف فاراً مِن تونس إلى الجزائر[1]، قبله الأعيان كابن لهم، لما دخل فرقة حراس الشرف السالف ذكرها كان عدد مَن فيها قد قارب المائتين. قدِم خياطون من طرف الحكومة الفرنسية وقُدِّمت مقاسات الملابس لأجل هذه الفرقة، /84/ جمع أبناء الأشراف والكبار مِن هذه الفرقة في الجامع الشريف، وقيل لهم: «الآن نحن أفراد في فرقة حرَّاس الشرف، وعَملُنا يقتضي منا أن نلازم قائدنا أثناء حملاته، وأن نقف معه في حربه ضد أعداءه، بمعنى: أنه قد يتحتَّم علينا أن نقف ضد أهلنا مِن العرب وفي الأخير قد نضطر لمحاربتهم فهل توافقون على ذلك ؟» عند سماعهم ذلك أجابوا إجابة رجل واحد: «إنما كتبت أسماءنا في هذه الفرقة للسمعة والشهرة ولن نقبل أبداً أن نحارب أهلنا.» اتخذ مثل هذا القرار وأرسل مباشرة إلى الجنرال فأرسل بيان مضمنه:« لقد أضحيتم الآن أفرادا ضمن هذه الفرقة وعليه فأنتم مجبورون أن تقوموا بأعمالكم وإن اقتضت الحرب فعليكم المحاربة دون أي تردُّدٍ» فلمَّا سمعوا ذلك أسرعوا من ساعتهم إلى تقديم طلب إعفاءهم من هذا العمل، وقاموا بشطب أسماءهم من دفاتر الجند التي قَيَّدُوا بها أنفسهم في البداية، وانصرفوا جميعاً فلم يبق من بينهم إلاَّ يوسف المملوك القادم من تونس فردا، فانتهز الفرصة للتَّقرب أكثر مِن الجنرال وانطلق إليه قائلا: «سيدي إنَّ أبناء الأعيان مِن أهالي الجزائر لن يتعاونوا مع فرنسا؛ لعدم محبتهم لها، لكن أنا في الخدمة، وإن أذنت لي سيدي فأنا كفيل/85/ بأن أجد لفرنسا ما تحتاجه من الجنود.» أذن له الجنرال في العمل على جمع المجندين بعدها انتقل المذكور آنفا إلى المخامر وأماكن الرذيلة فانتقى منها عدداً من وضيعي النسب مجهولي الأصل الذين لا شرف لهم وقيَّدهم في جُنده.

[1] راجع ما ذكره عنه أحمد باي في مذكراته. ص 28. ذكره أيضا بالتفصيل مرسي في كتابه عن قسنطينة بداية من الصفحة (391).

نجح فعلا الرجل المذكور سلفا فيما كان يصبوا إليه، وتمكّن مِن تكوين فرقة مِن الرِّجال وقُيِّدُوا كعساكر، ثمَّ قدمت لهم مجموعة من الأسلحة الأوروبية المتطورة، وشرع الفرنسيس في تدريب هذه الفرقة على طريقة الأوروبيين، أمَّا اسم الفرقة فقد كان مختلفاً عن الفرقة الأولى، فاتخذت اسم (*chevaux Afrique*) بمعنى خيالة إفريقية (إفريقية سوارايسى)

إضافة إلى هذه الفرقة أنشأت فرقة أخرى للمشاة أطلق عليها اسم فوج الزواف (زخاف آلايى)، وهكذا ضمَّت هذه الفرق أفراد من العرب والقبائل ولما شُرع في تدريبها، وبمجرد أن تعلّم أفراد الفرقتين بعض أساليب الحرب وتحصل رجال الفرقتين على الأسلحة والأحصنة فَرُّوا بما في أيديهم مِن الأسلحة والأحصنة باتجاه الجبال، ولم يبق مِن الفرقتين إلاَّ سيء الذكر يوسف ومساعديه أحدهما: اسمه فوزي، والآخر مصطفى بن عبد اللطيف(في الأخير اعتذر مصطفى بن عبد اللطيف عن مواصلة العمل في الجيش وانسحب منه ثمَّ رحل إلى مكة واستقرَّ بها إلى أن وافته المنية، أمّا فوزي المذكور فقد كتب الله عليه الموت على يد العرب في الحرب).

أمَّا الجنرال كلوزال فقد كان ينقل أخباراً كاذبةً /86/ لا صحة لها وقام بالعمل على تسريبها ونشرها عن طريق الصُّحف فمن ذلك بعض الأقوال «عن الامتنان وشكر أهالي مدينة الجزائر للوجود الفرنسي» وقوله : «أنهم يأتون بأنفسهم ليقدموا طلب الانتساب إلى عسكرنا وتقديم خدماتهم لنا، وقد أخذنا مِن هذه الأسماء ونقوم في ساعتنا هذه بتدريبهم وتنظيمهم في فرق عسكرية ومِن الآن لن تكون هناك حاجة لبقاء عساكر الجيش الفرنسي، وهؤلاء النَّفر المكتوبة أسماءهم المنتظمون في فِرقٍ عسكرية لهم القدرة على الحفاظ على الأمن في الجزائر في قابل الأيام»

إضافة إلى هذا أثيرت نقطة أخرى تخص المصاريف الكبيرة على الحملة الفرنسية على الجزائر، ونوقشت في بعض المجالس مسائل عديدة منها: إذا كانت فرنسا لن تستفيد من أوجاق الجزائر فما فائدة الاحتفاظ به، هل تتخلَّى

عن الأوجاق لصالح الدولة العلية؟ أو هل تقوم ببيع الأوجاق إلى الإيالة التونسية[1]؟ كما تحدّثت هذه المجالس عن ضرورة تأمين المصاريف الكبيرة التي صرفت في الحملة على الجزائر.

هكذا قام الجنرال كلوزال من أجل أن تبقى الجزائر تابعة لفرنسا، ولكي يستفيد هو مِن تعيينه كوالي على الجزائر بتنظيم ونشر مثل تلك الأكاذيب والأراجيف، بل حتَّى لا يبلغ فرنسا ما حدث مِن فرار الجند مِن العرب مِن الانتساب للجيش الفرنسي؛ جلب العديد مِن الأوباش والمشردين الإيطاليين والنمساويين والمالطيين وحاول أن يملأ بهؤلاء أماكن الفارين من الجيش.

أمَّا يوسف الذي تحدَّثنا عنه فإنّه وقع في أسر القراصنة الجزائريين بعدما قبضوا عليه ضمن إحدى السفن الإيطالية، وقد بيع بثمن بخس إلى باشا تونس، /87/ الذي ألزمه الإقامة ضمن الحريم[2] وأعاد تأديبه؛ فحسنت بعد ذلك خصاله وخدمته بعد ذلك.

وحسب إحدى الروايات فإنَّه قام بسرقة أشياء ثمينة مِن القصر وفرّ منه إلى الجزائر. خلال تلك المرحلة كُتب ضمن عساكر فرنسا وارتقى نتيجة حروبه الكثيرة ضد قبائل العرب إلى أن قُلِّد رتبة فريق، وفي الأخير تقدَّم للزواج من فتاة فرنسية غنية، لكنها اشترطت عليه مِن أجل القبول به زوجا؛ أن يتنصَّر فوافقها إلى طلبها.

بل حتى أنه شارك في حرب القرم المشهورة، وجاء ضمن عساكر فرنسا وسلمت له قيادة إلاَّ أنَّه فشل في ذلك فأعيد إرساله إلى الجزائر، وبعد مُدَّة وجيزة ذكر موته ودفن في فرنسا.

---

[1] انظر تفصيل ذلك في بعض ما أورده صاحب إتحاف أهل الزمان ابن أبي الضياف في حق سفر مصطفى باي إلى الجزائر ولقاءه مع كلوزال في شأن شراء بلاد الجزائر من الفرنسيس. وقد بسط الحديث عن الأمر أيضا حمدان خوجه في مرآته ومراسلاته في الأرشيف العثماني.

[2] يطلق على المكان الذي تقيم فيه حريم السلطان وخدمه وحشمه.

الفصل العاشر

بيان إصرار الأهالي على طاعة الدولة العلية وطلب الحماية منها

/88/ مثلمَّا تمَّ ذكره فيما سبق، فإنَّ "حسين باشا" بعد تسليمه مفاتيح الخزينة انتقل إلى فرنسا، وهنالك أراد اشتراء الجزائر مِن فرنسا، فلمَّا بلغ هذا الخبر إلى أهالي الجزائر اجتمع عمومُ النَّاس وقدَّموا عريضة بها ثلاثمائة ختم مِن أعيان المدينة جاء فيها:« نعلمكم أنَّنا لا نقبل تماماً ببيع الجزائر إلى حسين باشا، فلو كان بالفعل إنساناً عاقلاً لما رم بنا وبمملكتنا في هذه الحرب، وما وصلنا إلى هذا الخراب. ونعلمكم أنَّه إن كانت هناك نيَّة في بيع الجزائر فنحن أولى بها مِن غيرنا، ونحن حاضرون لأن نشتريها، ونحن موافقون على أن يقسط لنا المبلغ اللازم على الأقساط التي ترونها مناسبة، فقط ليكن الباشا منا وهو باش زاده سيد إبراهيم بن مصطفى، ونرجوا منكم أن تتفضَّلُوا بطلب الحصول على فرمان التعيين مِن الدَّولة العليه، وليكن الباشا تحت رعاية الدولة العليه وليكن له النفوذ والسلطة العامة» بمجرد أن وصلت العريضة إلى الحكومة الفرنسية فهمت أنَّ أهالي مدينة الجزائر يميلون إلى/89/ الدولة العثمانية نتيجة لذلك أرسلت الحكومة الفرنسية أمر إلى الجنرال كلوزال في الجزائر بضرورة العمل على استمالة أهالي الجزائر إلى جانبه وإلى صف الدولة الفرنسية وإبعادهم عن الميل ليكونوا تابعين للدولة العثمانية.

مِن ساعته قام الجنرال بتتبع كل من جاء اسمه في البيان السالف ذكره واصطنع الأعذار لنفيهم واحدا واحدا، لكنه فهم أن تغيير أفكار أهالي الجزائر غير ممكن، حينها أرسل الجنرال كلوزال المترجمين الأقباط إلى جوامع المدينة يوم الجمعة للاستقصاء، فأعلموه أنَّ جميع شيوخ المساجد يدعون للسُّلطان فقام الجنرال بجمع كل الخطباء والشيوخ والأعيان وقال لهم: « بلغنا أنكم تدعون للسلطان العثماني على المنابر يوم الجمعة، والآن سلطانكم هو ملك فرنسا لذا من الآن فصاعداً يكون الدعاء له على المنابر» فأجابوه عن ذلك

بقولهم: «في إسلامنا إذا لم ندعوا لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلاة الجمعة تكون باطلة، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون مسلما، وخطبة الخطيب هي عن إذن الخليفة ومرتبطة به، وإذا منعتمونا من الدعاء إلى الخليفة فهذا يعني منعنا من صلاة الجمعة، وإذا كانت هذه هي الحالة فقد نكثتم العهد الذي بيننا.»

/90/ فتحدَّث الجنرال مخاطباً إيَّاهم: « بما أنّ الأمر على هذا الحال، لي رجاء منكم، ليتكم تنبهون الخطيب عندما يعتلي المنبر ألاَّ يرفع صوته بالدعاء وليكن دعائه أثناء الخطبة بصوت مُنخفِضٍ» فأجابوه: «هذا الأمر لا يمكن أن يكون أبداً، إذ أنَّ المراد مِن الخطبة أن تسمع جماعة المسلمين الأحكام الرَّبانية»

لهذا السبب عمد الجنرال إلى عزل ونفي جميع القضاة والنواب والمفتيين ومِن بين مَن نفي مفتيان اثنان هما: سيدي محمد بن العنابي[1] الحنفي وسيدي محمد بن كبابطي[2] المالكي، من أشرف وأشهر علماء الجزائر، عوُمِلوا بغاية

---

[1] الاسم الصحيح كما حققه الأستاذ أبو القاسم سعد الله هو "محمَّد بن العنابي" في حين ذكره علي رضا باشا بقوله "محمَّد بن العناب" وهو محمد بن محمود بن محمد بن حسين بن محمد الشهير بالعنابي، كان مولده بالجزائر سنة 1189هـ كان عالما موسوعيا ومن أول المجددين في العالم الإسلامي في القرن العشرين، عمل كاتبا عند الداي أحمد باشا وسفيرا للداي عمر باشا، نفاه الفرنسيس بعد احتلال الجزائر إلى الإسكندرية فولاه محمد علي باشا فتوى الحنفية في مصر، وتوفي في مصر سنة 1850م انظر:

- أبو القاسم سعد الله، محمَّد بن العنابي، رائد التجديد الإسلامي، دار الغرب الاسلامي، لبنان، 1987؛ عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، دار الوعي، 2017.

[2] هو مصطفى بن الكبابطي، قال في معجم أعلام الجزائر: «شاعر رقيق له اشتغال بالسياسة، من فقهاء المالكية ولي الافتاء بمدينة الجزائر في بداية الاحتلال الفرنسي..» عارض استيلاء الفرنسيس على الأوقاف الإسلامية لذا تم نفيه إلى الإسكندرية، أقام بها إلى زن وفته المنية سنة 1843م.

التبجيل والإجلال من طرف محمّد علي باشا والي مصر عند وصولهم إلى مدينة الإسكندرية، وعين[1] كمفتي لمصر، إلى غاية موته. في الوقت نفسه كانا يشتغلان بالفتوى مِن جهة وبنشر العلم وإعطاء الدروس من جهة أخرى.

باختصار من جهة عمد الجنرال إلى كل الأسماء التي وُجد ختمها في العريضة التي قُدِّمت إلى الحكومة الفرنسية فشتَّت شملها بعد اجتماع كلمتها، ومِن جهة أخرى سعى الباباوات ورجال الدِّين إلى تنصير الأهالي المسلمين لكن الله نكّس أمالهم وأحبط أعمالهم، بل زاد الله الأهالي قوَّة وإيماناً على إيمانهم، وأصبحوا أكثر تَعصُباً وتمسُكاً بدينهم.

/91/ بل نجد أنّ الأهالي لا ينتعلون الأحذية الحديثة في أرجلهم، بل يتجولون بالصندل اليمني، والرجل منهم لا يحلق حلاقة تشبه حلاقة شعر الأوروبي، بل يَحتقرون مَن يقوم بعكس فعلهم ويرونه يقترف العيب الكبير والأتم الجليل.

ومع هذا لم ييأس باباوات فرنسا مِن الأهالي ولم يركنوا إلى الرَّاحة، بل عَمدُوا إلى الأزقة والشوارع ينتشلون منها مَن يجدونه مِن الأطفال الصغار واليتامى، ويعملون على تعليمهم القراءة والكتابة وتنشأتهم في الكنائس، حتَّى أنَّهم كانوا يقومون بجمع الأطفال في موسم الشتاء إذا اشتدَّ البرد ويلبسونهم بدل ملابسهم الرثة ملابس جديدة كتلك التي يلبسها الرهبان.

فلمَّا بلغ خبر هذه الأحوال مسامع الأهالي تجمَّع العديد منهم مَن العرب والقبائل عند مبنى الحكومة الفرنسية قائلين: «أَرجِعُوا لنا أبناءنا مَن يتامى المسلمين، فنحن متكفِلُون بمعيشتهم، ولا شأن لكم بهم، فإن لم ترجعوهم لنا فعلموا أننا خارجون للقائكم وسيكون أمراً جَلَلاً بيننا ولا نبالي». في تلك الأثناء كانت حكومة فرنسا تعيش ضعف ومشاكل لا حصر لها، وحتَّى لا ينتشر أي

[1] يقصد "محمّد بن العنابي" الذي شغل هذا المنصب إلى وفاته سنة 1850.

عصيان ضد فرنسا قامت حكومتها بإرجاع أطفال المسلمين. لكن وصل الخبر بأنّ الفرنسيس قاموا بإرسال نفرٍ مِن أطفال المسلمين خفية إلى مملكتهم.

وحسب من اطلّع وعاين هذه الأحداث فقد اتفق الجميع هنالك/92/ على إعلام الأهالي بذلك البيان[1]. ولازالت الحكومة الفرنساوية مذ أن سلَّطها الله على الجزائر مِن أربعين حولٍ وإلى يوم النَّاس هذا، تُلبس على الجزائريين أمر دينهم ومذهبهم، وترغبهم في تركه والدخول في دينها وسلوك مسلكها، والحمد لله حمدا كثيراً أن ثبت أهل الجزائر ولم يُحقِّق للفرنسيين آمالهم ولا نولهم أطماعهم الشريرة.

[1] لعل المؤلف هنا يقصد ما اتفق عليه الناس من مواجهة الفرنسيس والخروج في طلب أبناء المسلمين.

الفصل الحادي عشر

جمع الأسلحة من أهالي الجزائر، نفي مجموعات الترك وإرسال حسين باشا إلى إيطاليا

بمجرد وصول الجنرال بورمون إلى الجزائر أرسل دلاليه في أزقة مدينة الجزائر يُعلِنون ويُعلِّقون على جدرانها أنَّ الفرنسيس ما قدِمُوا إلى الجزائر إلاَّ لأمن وراحة سكانها، وأن الفرنسيس لن يضرُّوا أحداً مِن الأهالي، وقد تمَّ الاتفاق مع الدَّولة العلية أنَّ قُدوم الفرنسيس إلى الجزائر ما هو إلاَّ لتأديب جند الإنكشارية؛ لذا لن يُغيَّر شيءٌ مِن عادات المسلمين وطريقة عيشهم والجوامع الشريفة والأماكن المباركة لن تُعامل إلاَّ بالإجلال والاحترام الحقيق بهما، وأُعلِن في النَّاس أنَّه سيجتنب المس بأي شيء مِن عقائد الإسلام وشعائره. /93/ وما على الأهالي المسلمين من الترك إلاَّ الانصاف والاجتهاد في أعمالهم ودكاكينهم وأشغالهم، وما المطلوب منهم إلاَّ أن يسلموا أسلحتهم للحكومة، وفي الوقت نفسه على التُرك العزاب الرحيل من فورهم ويُعذر ذووا العيال إلى أمد قريب يُرسلون بعدها إلى مملكتهم. وأعلن الأمر وأذيع البيان في كل مكان حتَّى تتحقَّق الرَّاحة والأمان للسُّكان.

مِن ساعتهم أركبوا العزاب من الترك في السفن فأرسلوا قِسماً منهم إلى أزمير وقسماً آخر إلى جزيرة كريت، أما ما تعلَّق بمسألة الأسلحة، فقد التمس الأهالي مِن الجنرال أن يقبل عُذرهم في عدم تسليم أسلحتهم التي حُلِّيت بالذهب والفضة أو تلك التي تزينت بالعقيق والزمرد والمرجان، وسيعملون على إخراجها مِن بين أيديهم في وقت قصير، وهذا ببيعها إلى الذاهبين إلى خرج الأوجاق. ومع التماس الأهالي مِن الجنرال أن يأذن لهم فيما طلبوه إلاَّ أنَّه أجابهم بقوله: «سلِّموا كلَّ ما بين أيديكم مِن الأسلحة إلى مَن كلَّفناه بذلك مِن عُمالنا، ولا

تبقون بين أيديكم شيئا منها، فمَن ضبطنا بحوزته شيئاً مِن هذه الأسلحة سلَّطنا عليه عذاباً شديداً»

وخوفاً مِن هذا الأمر اضطر الأهالي مِن سكان الجزائر إلى بيع ما بين أيديهم من أسلحتهم الثمينة المرصعة بالذهب والفضة وما أعلى منها من جواهر حسان إلى نفر من الفرنسيس وطائفة من اليهود بأبخس الأثمان، بالجملة فقد حصَّل اليهود معظم هذه الأسلحة، /94/ إذ عند دخول الفرنسيس إلى الجزائر انقلبت أحوالهم على المسلمين، لأنهم كانوا يشعرون بالذلة والهوان بمقارنة أحوالهم بأحوال المسلمين، ووجدوا في فعلهم هذا وأفعال أُخَرْ نوعاً مِن أنواع الانتقام وأخذ الثأر لكرامتهم.

وفي مدة قصيرة وقعت العداوة بين اليهود والمسلمين، وهكذا فإنَّ اليهود قد ألقوا عن أكتافهم الثياب السوداء التي كانوا مُجبرين على ارتدائها منذ عقود تميزاً لهم عن المسلمين، إذ كانت الألبسة المزخرفة مخصوصة بالمسلمين دون اليهود، فقابلوا المسلمين بارتداء ثياب مزخرفة ومذهبة كتلك التي كان يرتديها دايات الجزائر.

وفي أيام قليلة شرعوا في التّحدُّث بلسان الفرنسيس، فقويت بذلك شوكتهم وعظُمت تجارتهم، وعمَدوا في الآن نفسه إلى إثارة الفرنسيس على الترك، ولقَّنوا العساكر الفرنسيس بعض الكلام البذيء الفض الغليظ باللسان العربي، ما أحدث نفور الأهالي مِن التَّعامل مع الفرنسيس، وسعوا في نشر الشِّقاق والعداوة والنفاق بين الطرفين؛ وهو ما بدأ بروزه بالفعل بين الفريقين.

عند دخول الفرنسيس إلى مدينة الجزائر/95/ كان الحاج "أحمد باي" حاكم قسنطينة خارج أسوار المدينة، فجمع كل ما استطاع مِن المؤونة والأكل والسلاح مع ما وجد حوله مِن عساكر الترك والقبائل والعرب وخرج باتجاه الصحراء.

بحيث أنَّه وفي طريق العودة التي تمتد على مدار خمسة عشر يوماً مِن قسنطينة إلى الجزائر ظهرت العديد مِن المتاعب والكثير مِن المشاكل، فلمّا بلغ

الحاج أحمد باي قسنطينة بويع هنالك مِن السكان بالباشوية. حينها صك أحمد باي النقود باسمه، وشرع في تنظيم قسنطينة على القواعد التي نظمت الحكم في مدينة الجزائر.

وهكذا قبل العرب والأهالي بوجود حكومة الحاج "أحمد باي" لإدارة البلاد وقبلوا العيش تحت ظله، وباتفاق الجميع عُقدت للحاج أحمد باي البيعة.

وفي غفلة من الفرنسيس زاد الحاج "أحمد باي" قوته في هذه الجهة، فلمَّا شعر بالاطمئنان لقوته سعى لعقد سلام مع الفرنسيس، وهذا سنعقد له فصل فيما هو قادم. /96/

الفصل الثاني عشر

ذكر إرسال الجنرال روفيقو لوالدي حمدان أفندي للقاء الحاج أحمد باي حاكم قسنطينة من أجل الصلح

لم يجد والي الجزائر الجنرال روفيقو ممَّن حوله مِن الرِّجال رَجُلاً يمكنه أن يعتمد عليه ليذهب للقاء الحاج "أحمد باي" حاكم قسنطينة، فالكل كان خائفاً لا جرأة ولا شجاعة لديه للقيام بهذه المهمة. لأنّ المومى إليه كان واحد مِن كراغلة الجزائر، مثلما سبق الإشارة إليه في الفصول الماضية، ولم يُعيَّن مِن بينهم الكثير مِن الحكام.

على كل حال يعد بيلك قسنطينة أكبر بايات الجزائر ومعظم الواردات القادمة إلى الجزائر كان مصدرها هذا البيلك، وبالرغم من أنّ داي الجزائر السابق "حسين باشا" قد عيّن العديد مِن الترك حُكَّاماً لهذا البيلك إلاَّ أنَّهم لم يُوفقوا في ضبطه وتسييره بالشكل المطلوب، وفي أزمنة عديدة تمَّ إعدام عدد ممَّن عُزِل مِن حكام هذا البيلك/97/ أو قتل وهو يحكم هذا البيلك. لذا أصبح الترك يبتعدون عن تولي المناصب في هذه المقاطعة. لأن قبائل العرب في تلك الجهات غالبا لا تنصاع لتقديم المساعدة ودفع الضرائب المستحقة عليهم لمن لا يتقن لسانهم أو غير مُطّلِعٍ على أحوالهم، وفي مرات أُخَرْ يعلنونها صراحةً وبشكلٍ لا ريب فيه بأنَّهم أعداءٌ لإدارة هذا البيلك، ولأنَّ الحاج "أحمد باي" كان عارفاً بلسانهم مُطَّلِعاً على أحوالهم فقد أرسل الأهالي طلبا يلتمسون فيه مِن "حسين باشا" تعيين الحاج "أحمد باي" حاكماً للبيلك فاستجاب لطلبهم وقام بتسميته في هذا المنصب. وُفِّق الحاج أحمد باي حقيقة في مهمته في تحصيل كل الضرائب التي كانت مفروضة على العرب، مثلما وُفِّق على غير العادة في حماية نفسه مِن بلاء الإعدام الذي أدرك الكثير مَن أسلافه في هذا البيلك. لكن بعد مدة يسيرة استُغنيَ عنه بالعزل، إلاَّ أنَّ مَن خلفه مِن الترك

في منصبه لم يُوفق في إدارة البيلك؛ لذا تم عزله وكُرِّر استدعاء الحاج "أحمد باي" ليشغل هذا المنصب.

نعود لنقول أنَّه لم يوجد في تلك الجهات مِن الجزائر مَن له الشَّجاعة والجرأة على مكالمة الحاج "أحمد باي" فيما كان لحمدان أفندي سابق معرفة وفضل على الرجل[1]/98/ وقد أُعلم الجنرال "روفيقو" بذلك مِن بعض مترجميه[2]. فأرسل الجنرال مِن ساعته في طلب والدي، وأبلغه بتكليفه بمهمة الذهاب للقاء الحاج "أحمد باي" وأعلمه أنّه بصنيعه هذا سيقدم خدمة كبيرة لفرنسا في هذا الباب، لم يكن "حمدان أفندي" ليقبل بهذه المهمة لكن إصرار الجنرال على ذهابه أجبره على القبول بها مكرها[3].

---

[1] يورد "علي رضا" بأن "أحمد باي" كان مدين لوالده بمال مقداره "مائة ألف بوجو" كان قد اقتراضها منه في إحدى المرات التي قَدِم فيها إلى الجزائر؛ بغرض دفع الدنوش، ما جعل "أحمد باي" يحتفظ لحمدان خوجة بمكانة واحترام دائمين. انظر:

- Ali Effendi: Souvenirs d'un voyage d'Alger à Constantine travers les montagnes, tr F. De. Saulcy Metz, 1838, P5.

[2] وهو ما نقف عليه بالفعل وما تؤكده إحدى العبارات في الوثائق الأرشيفية المرسلة مِن طرف الحاج "أحمد باي" إلى السُّلطان "محمود الثاني" في شأن طلب ولاية إيالة الجزائر إذ وصف الحاج أحمد باي "حمدان خوجة" بالصديق ما يدلُّ على حسن العلاقة بينهما وفي هذا يقول: «...**ولما رأ العدو استحكام أمري وظهور جنبي أرسل إلى من الجزائر بعض أصدقائي؛ وطلب مني الصلح على أن يكون تحت يده عنابة والقالة والجزاير ووهران**....» انظر الأرشيف العثماني، انظر وثائق الأرشيف العثماني، الإرادة، العلبة 139 ملف رقم 25، بتاريخ 1249هـ.

[3] يذهب المؤلف مذهبا آخر في تبرير ذهاب والده في رحلته إلى "أحمد باي" في قسنطينة في كتابه الأول "مذكرات رحلة مِن الجزائر إلى قسنطينة عبر الجبال" إذ يقول بأنَّ والده عرض خدماته على الفرنسيس وبالتحديد على الدوق "دي روفيقو" حتَّى يبعد عن نفسه الشبهات التي كان يلصقها به اليهود وبعض الأعيان. انظر: علي أفندي، رحلة من الجزائر إلى قسنطينة عبر الجبال، ص 5.

لكنه طلب قبل الخروج إلى مقصده أن يُسمح له بالبقاء بضعة أيام، قام خلالها بإخبار بعض كبار شيوخ القبائل التي يمرُّ بها في طريقه بمهمته لمساعدته في الطريق.

تحركنا خروجاً إلى الطريق المقصود وكان سني حينها عشرُ سنواتٍ وجعلت سبب مرافقتي لوالدي خدمتَه في الطريق[1].

من ساعتنا أرسل خبر رحلتنا إلى شيخ جُرجرة الشهير، وبمساعدة رجاله بلغنا جبال جرجرة الشاهقة، وهنالك تقابل والدي مع شيخ جرجرة المذكور. فأقمنا عنده ثلاثة أيّامٍ فتحادث معه مُطوَّلاً في شأن سبب إرساله، ولم ينقطعا خلالها مِن تباحث الأمر وتناقشه.

وبسبب أنَّ التقدم لوجهتنا مباشرة في الطريق كان محفوفا بالمخاطر/99/ اضطررنا لاتخاذ قرار بالذَّهاب عبر الالتفاف على جبال القبائل.

حقيقة لو أنَّنا سلكنا الطريق المعهود المباشر إلى قسنطينة كنا سنكون هنالك في خمسة عشر يوما، لكن كون الطريق كان محفوفا بالمخاطر فقد اتبعنا الطريق الذي دلَّنا عليه الشيخ المشار إليه آنفا، بل إنَّه رافقنا في سفرنا مسافة ثلاثة أيام كاملة، ثمَّ بعد ذلك تكفَّل سائرُ المشايخ بمساعدتنا للوصول إلى قسنطينة. وقد صادفنا عدد مِن المشاهد الغريبة في طريقنا وجب بيانها.

Ali Effendi: Souvenirs d'un voyage d'Alger à Constantine travers les montagnes, tr F. De. Saulcy Metz, 1838, P5.

[1] دوَّن علي رضا أفندي تفاصيل رحلته مع والده عبر جبال جرجرة إلى قسنطينة في رسالة بعنوان Souvenirs d'un voyage d'Alger à Constantine travers les montagnes قام كل من الأستاذ "علي تابليت" والأستاذ "عميراوي حميده" بنقلها إلى العربية في عملين منفصلين. كما يشتغل حاليا الأستاذ فارس كعوان على نقل رحلة "حمدن خوجه" مِن اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية. وقد شرفنا بالاطلاع على مُسودَّة هذا العمل الذي يحمل في ثنايها العديد مِن التفاصيل الهامة حول عادات وطباع القبائل في تلك المنطقة والحالة السياسية العامة للبلاد خلال تلك المرحلة.

هكذا ركب شيخ جرجره وأتباعُه بغالهَم، وقد أصابتني الدَّهشة وأنا أشاهد الشيخ يركب أحد البغال التي لم يكن له ذيل ولا شعر والعادة عندهم أن البغال ذات الشعر والذيل الطويل هي من علامات الغنى عند العرب، لكني علمت أنّ ذلك النوع مِن البغال التي ركبها الشيخ ذا قيمة خاصة عند القبائل.

على امتداد الطريق كنَّا كلما وصلنا إلى أحد قرى القبائل يخرج النَّاس عن بكرتهم لاستقبال شيخ جرجرة المذكور، يأخذون البغال إلى مرابطها ويسرعون بحمل الشيخ/100/ قبل أن تحط قدماه على الأرض إلى خيمة مُخصَّصة له.

كانت هناك طائفة مِن النِّساء يتعلَّمن ويحفظن ما الذي عليهنَّ فِعلُه عندما ينتشر مرض ما. إذ كُنَّ يحملن بأيديهنَّ مقاريض يُقطِّعن بها مِن شعر البغال ما يجهزنَّ به بُخوراً لتقديمه للمرضى عند ظهور داء الملاريا.

إضافة لهذا، كنا عند كلِّ قرية نصل إليها يُقدَّم لنا مِن كلِّ خيمةٍ ألذ وأنفس ما فيها، بل قد تُملأ خيمتنا عن آخرها بأصناف الأطعمة اللذيذة. كان مِن أغرب ما رأيت، أنَّ الرَّجل إذا كان هو مَن أتى بالطعام فإنَّه لا يأكل منه. كما أنَّ القيام مِن مجلس الطعام هذا قبل إنهائه يُعد مِن المنكرات التي تمسُّ شرف أولئك الذين يقومون بتقديم هذا الطعام، بل قد يكون سببا في غيضهم وغضبهم. وبعدما عرفت هذه الأصول أصبحت عاجزا عن القيام مِن مأدبة الطعام حتَّى الفراغِ منه.

كان الشيخ المشار إليه في غاية الهمَّة والسعي والوقَّار، وكان غالباً ما يتوسَّط بين القبائل لحل الخلافات وإصلاح ذات بينهم. فكان لا يشير عليهم برأي إلاَّ استكان له الجميع/101/ ولا يظهر مَن يعترض على أمره وتدبيره. وعلى هذا المنوال ظللنا ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث قام الشيخ المذكور بتوديعنا، ووهب لأبي البغل دون ذيل، الذي كان يركبه.

أمَّا نحن وبمعونة مِن خدمة الشيخ المشار إليه فانتقلنا مِن جبل إلى جبل ومِن شيخ إلى شيخٍ مُعزَّزين ومُكرَّمين. وقد أعاننا كثيرا البغل الذي أهداه الشيخ

لوالدي؛ لأنه كان معروفا لديهم، ومِن جهة أخرى لعلمهم بالسَّند الذي حُرِّرَ لوالدي، ولاعتقادهم بأنَّ والدي أخو الشيخ؛ فقد كانوا يطلبون دعاءه.

وهكذا كان دخولنا أراضي قسنطينة مِن مدخل (بيبان الحديد)[1] وهنالك التقينا بشيخ مشهور في المنطقة يقال له "بن طوبال" وقد أكرمنا غاية الإكرام لما كنا بجنبه، لكنه ظل حائرا عندما وصلنا سالمين لما سمع عن الطريق الذي سلكناه وقدمنا منه؛ لأنَّ المرور عبر ذلك الطريق لم يكن مُمكِناً. في تلك الليلة بقينا بجنبه/102/ وحزن والدي كثيرا عندما قدم خبر مفاده أنَّ "الحاج أحمد باي" قد اتجه إلى الحدود التونسية عند "قبيلة الحنانشة" على الحدود التونسية وأنَّ كاهيته هو المتولي على قسنطينة، وقد زاد هذا في حزن والدي لأنّه كان يُوجد فُتور قديم في العلاقة بينه وبين والدي، ولا ثقة لوالدي بكاهية الحاج أحمد باي.

على كل حال سلمنا أمرنا لله وودعنا الشيخ ثمَّ خرجنا إلى حال سبيلنا، وفي طريقنا قطعنا عددا مِن البوادي والصَّحاري، إلى أن وصلنا في إحدى الليالي إلى غاية قلعة قسنطينة، وعند ضربنا على باب القلعة فُتِح لنا وساقونا على الفور إلى مَحلٍّ مخصُوصٍ بقتل الخونة.

كانت هذه الحالة موجبة لأن يشعر والدي بالخوف والذعر، فلم يكن لنا إلاَّ الاستعانة بالله ليحفظنا، قضينا ليلتنا تلك في ذلك المحل الموحش، ومِن الصَّباح أُخذنا إلى كاهية "الحاج أحمد باي" المذكور، فشرح له والدي سبب قدومنا، وقدَّم له المكتوب الذي نحمله مِن الجنرال، ومِن ساعته أخذ الكاهية "بن عيسى" المكتوب ووجَّهه إلى "الحاج أحمد باي" وعندما وصلت المعلومات إلى الحاج "أحمد باي" بعد ثلاثة أيام، أرسل في طلبنا لنقابله في مقامه. فنهضنا وانطلقنا إلى مقصدنا، وهناك عند وصولنا إلى المحلة التي بها "أحمد باي" خرج

[1] يقصد علي رضا باشا أنَّ دخوله بيلك قسنطينة عامة كان مِن جهة مدينة البيبان أو ما يعرف اليوم عند العامة ببرج بوعريريج، واشتهر من المحلة المذكورة حمام البيبان.

لمقابلتنا، فنزل من حصانه ووالدي فعل ذلك أيضا، وتقدَّم والدي لتقبيل يد الحاج "أحمد باي" لكن الأخير لم يتركه يفعل ذلك.

/103/ مِن هناك انتقلنا مباشرة إلى محلة الجيش، كان جيشه عظيماً ومهيباً، يضم هذا الجيش عشرين ألفا مِن الإنكشارية والعرب، بداخله خيام باهرة، مُقسَّمة إلى عدد مِن الغرف المفصولة عن بعضها البعض، بينها: قاعة الحريم ولها قاعة السلاملك[1] مجهزة بشكل استثنائي.

في مدخل الخيمة يوجد أسدان كبيران جدا، رُبِط كلّ واحد منهما بسلسلة مِن حديد، أمَّا في داخل هذه الخيمة فتوجد عدد مِن الأشبال تجري وتتفسح في الخيمة وكأنَّها قطط، فيما فُرِشت أرضية الخيمة بسجاد صُنع مِن جلود الأسود.

إذ أنَّ الحاج "أحمد باي" في سنين مضت كان مهوساً بصيد الأسود، وقد صاد بنفسه أربعين أسداً، لكنه قص علينا أنَّه قرَّر التَّخلي عن صيدها الآن بعد أنْ أصبح يرى بأنَّ تلك الأسود التي يقتلها تقاضيه في منامه. وكان قد أنشأ لنا بجانب خيمته خيمة لنا.

بدأوا إذاً في الاجتماع مع والدي في شأن المكتوب الذي أرسله الجنرال الفرنسي. «يا سي حمدان، معلوم أنكم أهل علم وفضل وكمال دراية، ولكم علم بشأن أحوال العرب وفي شأن الحكم والملك والسياسة، /104/ لذا أنا جاهز لأن أعمل بما تدبرونه علي في هذا الموضوع، وبالذي تراه، سواء كان رأيكم بأن أطيع الفرنسيس أو أن أقاوم حكمهم، وفي الحاصل أنا جاهز لما ترونه» فأجاب والدي ما أنا إلى مرسول إليكم، وما علي إلاَّ أنا أنقل جوابكم على ما أوصلته إليكم. لكن بما أنَّكم تقبلون بما أُشير به عليكم، ولأني اعتقد أنّ الأمر دينٌ كبيرٌ علي للإسلام والإنسانية جمعاء. الجميع يعلم أنّ هذه الأراضي

[1] أي قاعة كبيرة لاستقبال الوفود وتلقي السلام، مثل تلك التي وجدت في معظم قصور الدولة العثمانية خاصة في إسطنبول.

هي بلاد حضرت سلطاننا الأعظم. لذا سيكون جيّداً إذا كتبتم رداً على مكتوبهم بقولكم: «هم انتخبوني ووكلوني بأمر الملك هنا، وأنا لا طاقة لي على أن اتخذ قراراً بعقد الصلح معكم أو بإعلان الحرب عليكم؛ لأنَّ هذا أمر عظيمٌ لا أقطعه فيه بنفسي، ولابد فيه مِن استشارة الباب العالي، لذا فلا يسعني أن أرد بشيء الآن إلاَّ بعد إعلام الحضرة الشاهانية بجميع ما هو واقع، وإني لأرجو منكم لما تعلمونه مِن بعد المسافة وطولها بأن تُقدِّمُوا لي سفينة وأرجو أن تسمحوا لهذه السفينة أن تنتقل مِن ساحل بلاد العناب إلى الباب العالي لأخذ المشورة من هناك فيما تطلبونه، حينها فقط يمكنني أن أُجيبكم بجواب قطعي»[1]

/105/أُعجِب الحاج "أحمد باي" بهذا الاقتراح وشكر والدي عليه، ومِن ساعته أمر باش كاتب بأن يكتب جوابًا، ونهضنا جميعا سالكين الطريق لأجل الخروج إلى قسنطينة، وفي طريقنا إلى قسنطينة فهمنا كم كان الحاج "أحمد باي" جبَّاراً وغدَّاراً، إذ في أحد الأيام كنت انظر مِن الخلف، كيف تقدَّم شيخ كبير مِن الخلف إلى جنب "الحاج أحمد باي"، وهمس له في إذنه بشيء، جعل وجه "أحمد باي" يتجهَّم في لحظة واحدة، غضب كثيراً، وعندما رأى الرجال تغيُّر وجهه تراجع جلهم إلى الوراء مبتعدين، ولما رأيت ذلك تراجعت أيضا، وهكذا بقي في حالته الغاضبة منعزلا بنفسه.

ذهب في هذه الحالة من الغضب إلى خيمته التي كانت قد شُيِّدت له في المقدمة، أما نحن فقد كنا نشاهد ما يحدث من مكان بعيد في الخلف حيث كانت توجد خيام العسكر.

لما دخل أحمد باي خيمته تبعه من كان بجواره من أعيان العرب والمشايخ بكامل المهابة والإجلال، وكان أحمد باي في مجلسهم يجاملهم ويُظهر لهم المودة والاحترام وفي الوقت نفسه كان قد أوعز لحراس السِّجن بضرورة التَّجهُز، فلمَّا كان ما أراد/106/ في تلك الساعة ناده الحاج أحمد باي بصوت جهوري قوي

[1] أورد مثل هذا الكلام "أحمد باي" في مذكراته، ص 35.

فيه الكثير من الشدة والغضب: «اقبضوا على هؤلاء الكلاب» فانقض السَّجانون مهاجمين على مَن كان في الخيمة مِن الأعيان والمشايخ، فقبَضُوا عليهم كلَّهم حتَّى لم يذروا أحداً منهم، وأمر الحاج أحمد باي السجانين بقوله: « أَحْكِمُوا قيَّدهم جيداً، ثمَّ قوموا بجعل كلّ واحدٍ منهم في خيمةٍ مِن خيام الانكشارية» ورغم إلحاح هؤلاء الشيوخ في التَّوسل لأجل العفو والصفح عنهم إلاَّ أنَّ ذلك لم يغنهم شيئا، إذ صمَّ الرجل أذنيه وأرسلهم مُكبلين إلى أماكنهم. وكان عدد هؤلاء الشيوخ أربعين شخصا[1].

أمَّا أنا فإنَّه لم يغفُ لي جَفنٌ تلك الليلة لما سمعته من أحد خدم أحمد باي؛ إذ قال: «لقد جاء الأمر الليلة بإعدامهم، وستقطع رؤوسهم في مكان قريب مِن خيمتكم» وفي الصباح الباكر مِن الغد سيق هؤلاء الشيوخ واحداً تلو الآخر لنهايتهم، فسقطوا شهداء واحدا بعد الآخر. وشهد هذه الحادثة عيالهم وصغارهم، فغدى المكان وكأنّه يوم المحشر مِن هول ما حدث.

وفي الصباح لما تجمَّع النَّاس في الخيام، ظهر أنَّ سبب ما حدث هو الكلام الذي ألقى به الشيخ في الطريق في أُذنَيْ "أحمد باي" وعلمنا أنّ مفاده أنَّ هؤلاء النَّفر مِن الأعراب قد أجمعوا أمرهم على قتل "أحمد باي" وبعثُوا بذلك كتاباً إلى الفرنسيس حمل الكتاب في أسفله أختامهم وأسماءهم./107/ علمت بهذه الأخبار ونحن في طريقنا إلى قسنطينة.

---

[1] ونقف على كلام لأحد باي في إحدى مراسلاته للباب العالي يذكر فيها أنه تصدَّى لمحاولات بعض العساكر وبعض المتواطئين من الانكشارية خلعه مِن منصبه واستبداله فلمَّا ظفر بهم شدَّد حكمه فيهم وقتل رؤساءهم. يقول في المراسلة هذه: «...وعينت لجميعهم ما يكفيهم وعينت علوفات العساكر المذكورة ومرتباتهم ولسوء بختهم عزموا على قتلي، وتولية بعض المخاذيل، فأمكن الله من جميعهم وسلمني منهم، فأجليت سوادهم وقتلت رؤساءهم....» انظر: الأرشيف العثماني، قسم الإراده، العلبة 139، ملف رقم 25 بتاريخ 2 جمادى الأولى 1249هـ.

انطلقنا إذا من هناك باتجاه قسنطينة، وعندما وردنها استقبلنا الباش كاتب في خانه ضيوفاً وعندما فَرغ مِن كتابة جواب للجنرال روفيغو أخذنا ذلك المكتوب وانطلقنا مباشرة إلى عنابة، ولأنَّ الطريق مِن قسنطينة إلى عنابة كان مليئا بالأسود والفهود الضارية أرسل معنا الحاج "أحمد باي" ستين فارساً لحمايتنا. ولما وصلنا عنابة وجدنا في استقبالنا أحد الجنرالات فخصَّص لنا مَركباً ليُقِلَّنا لمدينة الجزائر، وقام الجنرال المذكور بكسوة كل واحد مِن فرسان أحمد باي ببرنوس أحمر وأهدى كل واحد منهم قطعة من حلوى السكر تطيبا لخاطرهم.

أمَّا نحن فصعدنا السفينة وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى الجزائر، ولما صرنا بها قدَّم والدي المكتوب الذي قدِمنا به من قسنطينة إلى الجنرال، فلما قرأه تجهَّم وجهه وخاطب والدي حمدان أفندي قائلا:« يجب عليك أن تعود مرَّة أخرى لأنَّ الصلح يجب أن يكون بيننا نحن وأحمد باي ولن ندخل السلطان في هذا الأمر، عليك أن تشرح هذا الأمر جيدا»

وقبل أن أشرع في ذكر الأحداث التي جرت بعد هذا الأمر من الجنرال، يجب علي أن أضع نبذة صغيرة عن عما تعلَّق بحياة والدي.

/108/ بالرغم من أن والدي ولد في مدينة الجزائر فإن والده سيدي "عثمان خوجه" كان مِن أشهر علماء مدينة بوردور[1] في إسبارطه الملحقة بولاية قونيا انتقل للجزائر، وهناك تزوَّج، وتدرَّج في المناصب ليبلغ أعلى المناصب في الجزائر وأضحى دفتردار الجزائر. فولد مِن صلبه والدي "حمدان أفندي" و"أحمد نظيف"

[1] بوردور Burdur مدينة تقع في الجنوب الغربي من تركيا حاليا، تبعد عن مدينة إسطنبول بحوالي (600كلم) بقرابة ثماني ساعات جنوبا.

بعد مدّة اشتغل "أحمد نظيف" كمُصحِّح في تقويمخانه[1]، ثم ظلّ لمدّة طويلة يشتغل مترجما بالحرمين الشريفين، قبل أن يُعيَّن بعد ذلك دفتردار في البوسنه ثمَّ في سنجق [بهانه] وترافنيك[2] ثمَّ بعد ذلك اشتغل قائمقام في إسبارطه ثمَّ وافته المنية عندما كان في منصبه قائمقام في مدينة ألانيا[3] وهناك دُفن جثمانه هو مترجم الكتابين المشهورين "ألف ليلة وليلى" و"سيف ذو يزن".

زيادة على ما اشتهر به "أحمد نظيف أفندي" مِن علم وفضل فقد حصّل وبرع في الشؤون الإدارية والسياسية مِنذ صغر سنه، واليوم مُتصرِّف نيدا[4] /109/حسن باشا هو ابن أحمد "نظيف أفندي"

بعد وفاة عثمان خوجه مال مِن أبنائه والدي "حمدان أفندي" لطريق التِّجارة، وقد سمح له ذلك بالسّفر للعديد مِن البلدان وزار أثناء ذلك إسطنبول مرتين، كما شدَّ الرَّحال أكثر مِن مرَّة لكلَّ مِن لندن وباريس وإيطاليا ومع شهرته التي طارت في الآفاق كتاجر جزائري فذلك لم يجعله يقصر في طلب العلم؛ ولهذا فقد حاز على مكانة بين أقرانه مِن العلماء، لم يعلم عنه أي تعصَّب واشتهر باطلاعه على الشؤون الخارجية. وقد سمح له هذا الأمر في آخر الزمن مِن عهد السُّلطان محمَّود خان رحمه الله وأسكنه فسيح الجنان وفي وقت حكم الصدر الأعظم رشيد باشا المشهور ألف والدي حمدان أفندي رسالة في أصول الكرنتينه والتحرُّز مِن الوباء. لأن العلماء في ذلك الزمان كان لا يرضيهم الاحتراز من الوباء؛ فلمّا ظهرت هذه الرسالة في أصول التحرز من

---

[1] تقويمخانه: وهي بمثابة الجريدة الرسمية للدولة في الزمن الحاضر.

[2] ترافنيك Travnikمدينة تقع وسط جمهورية البوسنة والهرسك غرب العاصمة سراييفو وتبعد عنها بحوالي تسعين (90 كلم).

[3] ألانيا Alanyaمدينة تركية تقع بالجنوب وتُطل على ساحل البحر الأبيض المتوسط تابعة حاليا لولاية أنطاليا، تبعد عن إسطنبول بحوالي (850كلم) جنوبا.

[4] نييدا Niğde مدينة تركية تقع بالأناضول في الوسط تبعد عن إسطنبول بحوالي (800 كلم) شرقا.

الوباء لم يعترض عليها أحد من العلماء/110/ وقد صُدِّرت بإجازات وحُلِّيت بشهادات وتقريضات أعلم أهل الزمان[1]، طبعت هذه الرِّسالة ووزِّعت في ممالك الدَّولة العثمانية، وحينها بدأ تطبيق أصول الاحتراز مِن الوباء، وجعلت نسخة مِن هذه الرسالة في كل كرانتينه وسُمِّيت "إتحاف المنصفين"

إضافة لها توجد رسالة في الخطبة حرَّرها الوالد باللغة التركية، كما توجد العديد مِن الرَّسائل والمؤلفات باللغة العربية ليس هذا محل تفصيلها وإنما سنكتفي هنا بما ذكرنا.

أُجبِر والدي "حمدان افندي" مُكرها على القبول بالعودة مرَّة ثانية إلى الحاج "أحمد باي" وقد استقللنا السفينة ومعنا مكتوب الجنرال مرَّة أخرى باتجاه عنابة، مِن هناك وبمساعدة من الحاج "أحمد باي" وصلنا سالمين إلى جنبه، فلمَّا قرأ الحاج "أحمد باي" المكتوب وفهمه التفت إلى والدي مخاطبا إيَّاه: «أنت مُطَّلعٌ على الوضع في أوروبا، وأنت تحب الخير للدولة العليَّة ولأهالي الجزائر بلا ريب، /111/ولهذا فقد فوضناك الأمر مِن كُلِّ وجه فانظر ماذا ترى، وإناَّ لمنقادون لقولك مُقرُّون له على أي صورة كان» وامتثالاً لهذا الأمر قال والدي:« في مكتوبكم للجنرال لا داعي لذكر الدولة العلية فهذا أمر سيثير ريبته، ولأجل تحقيق الصلح معكم ما عليهم إلاَّ السماح ببسط سلطانكم على عنابة وتسليمها لكم، وفي أثناء المفاوضات أرسلوا رجلاً مِن عندكم لاسطنبول للتباحث في الأمر»[2] أُعجِب الحاج "أحمد باي" بما سمعه مِن والدي وأمر به

---

[1] للتفصيل أكثر حول موضوع هذه الرسالة وما تعرَّضت له راجع ما كتبناه في شأنها في أطروحتنا للدكتوراه عن "الأوبئة والمجاعات في الجزائر خلال العهد العثماني(1700-1830م)" والتي نشرت لاحقا في كتاب بعنوان في "الأوبئة في الجزائر العثمانية" عن مركز التاريخ العربي للنشر في إسطنبول تركيا.

[2] توجد عدد مِن المراسلات في الأرشيف العثماني التي وردت مِن "الحاج أحمد باي" إلى الباب العالي في شأن ما حدث في الجزائر، وما أرسل للحاج "أحمد باي" في شان التفاوض

ثمَّ أمر كتابه فكتب بذلك كتاباً وختمه بختم القاضي، ودفع به مع وكالة لوالدي "حمدان أفندي" بعد ذلك عدنا لعنابة ومنها ركبنا البحر إلى الجزائر فلمَّا وردناها سمعنا أنَّ فرنسا عزلت الجنرال "روفيقو" وقد رحل إلى فرنسا في أسوء حال. وبيان سبب هذا العزل المفاجئ فيما يلي:

أنَّ هذا الجنرال أثناء حربه مع قبائل العرب المحاذية للجزائر تحصَّنت إحدى القبائل في مغارة موجودة بالمكان ورفضت الخروج منها، فلمَّا وصل خبر تحصُّن هذه القبيلة في المغارة أمر الملعون مِن ساعته بإشعال النار في مدخل المغارة المذكورة؛ /112/ وبسبب أمره هذا مات جميع مَن كان في المغارة مختنقاً وكان جُلُّهم مِن الصِّغار والنِّساء والشيوخ، وبسبب هذا ثار الأهالي ضد الفرنسيس وهم يرددون: «هذا ظلم والطغيان لم يُر مثله حتَّى في زمن الترك [أهذا هو الأمان!] والفرنسيس يدَّعون أنَّهم أمَّة حضارة وبنيان فما هذا الفعل الخارج عن الإنسانية!» وأعلنوا ذلك بأعلى صوتهم رافضين هذا التَّصرُّف والظلم والطغيان فلمَّا بلغ السطات الفرنسية ما حدث؛ اتَخذت حكومة باريس قراراً بعزل الجنرال المذكور، وبعدها بمدَّة وجيزة ابتُلي بمرضٍ شديدٍ. وقيل أنّ سبب ذلك أنَّ الجنرال أراد أن يشقَّ طريقا جديداً وكان هذا الطريق يمرّ عبر قبر وضريح لأحد الأولياء الصَّالحين في الجزائر اشتهر باسم "ولي داده" وأراد الجنرال أن يهدم الضريح؛ ولأجل ذلك استدعى علماء البلد ومشايخها وقال لهم: «ليكن بعلمكم أنّه سيمر طريق عبر هذا المكان فأخرجوا عظام "ولي داده" وخذوها إلى مكان آخر» فردَ عليه العلماء بقولهم: «ولي داده رجل عظيم ونحن لا طاقة لنا بالاقتراب مِن قبره ولا نبشه، لكن الأمر إليك فافعل ما تريد، فنحن طوع أمرك فهو قدر الله علينا» فانتفض الجنرال قائلا: « قطعاً لن أتردَّد في هدم

معه وهي موجودة في الأرشيف العثماني ولأهميتها فقد قمنا بترجمتها وتحقيقها وتصدر لاحقا في عمل منفصل.

هذا القبر،/113/ وسبب عرضي الأمر عليكم أن لا يُقال لاحقا أنَّنا خالفنا شروط الصُّلح التي بيننا، وإلاَّ فإنَّه ليس لي أي حلّ آخر» [فقالوا له]: « أي شروط هذه التي احترمتموها وقمت برعايتها! أكثر مساجدنا جعلتموها كنائس واتخذتم مِن صغارها مخامر، ولأجل شق الطرقات هدمتم بيوتنا ولم تعطونا حقها ونبشتم قبورنا وجعلتموها تحت أرجلكم فأخبرنا هل بقي من مخالفة للشروط لم تقوموا بها؟» غضب الجنرال لما سمع مقالهم غضبا شديدا، وأمر بعزلهم مِن مناصبهم.

وأثناء ذلك وفي الوقت الذي أمر بهدم قبر الولي الصالح حدث أمر عجيب إذ انتفخ لسانه [والتهب] ولم يعد بمقدوره حبسه في فمه. ولما عرض نفسه على الأطباء أعلموه أنَّها أعراض مرض الزّهري، وبعدما عُزِل رجع لفرنسا لكنه لم يعمر طويلا إذ قضى الله أمره بعد ثلاثة أيام. وهكذا اعتُقِدَ أنّ ما جرى هو جزاء لعمله، أمَا عظامه فقد أُرسِلت لمارسيليا لأجل مصانع السُّكر.

بعد ما حدث لم يقم الجنرال الذي خلف "روفيقو" بنبش القبر أو هدمه /114/ وبالرغم من أنَّ المهندسين ظلوا في انتظار هدم القبر ليكملوا عملهم إلاَّ أنَّ الجنرال امتنع عن ذلك ولم يعط الأمر بهدمه، وفي النهاية أُنشِأ الطريق متعرجا فيما بقي القبر في مكانه.

لم يبحث خليفة الجنرال "روفيقو" عن مواصلة مفاوضات الصُّلح التي بدأت مع الحاج "أحمد باي" بل أعطى قراراً بسوق العساكر إلى سنجق قسنطينة، وقام بجمع وحشد عساكره لذلك.

وهكذا فإنَّ جميع ما قمنا به وكل مساعينا ذهبت أدراج الرياح، وما صرفناه مِن عمل وجهد فإنَّه بقي دون نتيجة، وسلك مَسلكاً آخر وهو ما سنقوم بتفصيله فيما هو آتٍ.

الفصل الثالث عشر

ذكر انهزام الجيش الفرنسي المقيم في عنابة في حملته ضد سنجق قسنطينة

في تلك الأثناء اتخذ قرارٌ في باريس بضرورة سوق العساكر لمحاربة الحاج "أحمد باي" وكون أنّ الطريق مِن الجزائر إلى قسنطينة يحتاج خمسة عشر يوما والطريق في غاية الخطورة والصعوبة لم تكن هناك جرأة وشجاعة/115/ لسلوك هذا الطريق تقرَّر إرسال العساكر عن طريق عنابة، لأنَّ الطَّريق من عنابة لقسنطينة كان سهلاً ميسراً، والأهالي هناك كانوا مجموعات مِن بدو العرب.

قيل إنّ عدد العساكر التي سيقت إلى قسنطينة كان في حدود العشرين ألفٍ، وإن كان العدد في الحقيقة ثلاثين ألف.

سمع الحاج "أحمد باي" بخبر قدوم عساكر الفرنسيس لذا عيَّن خليفته كاهية على المدينة وخرج مِن ساعته بعدد مِن العرب خارجها، ومن حكمة الله أن نزلت الثلوج بحوز قسنطينة بشكل لم يُر مثله مِن قبل، فانهزمت عساكر الفرنسيس بسبب عدم تعودهم على هذا الجو القاسي. أمَّا العرب فعندما رأوا انهزام الفرنسيس هللُّوا وكبَّروا الله تكبيراً وقالوا: «إنَّما ذلك عونٌ مِن الله ونصرٌ قريبٌ» فزادت حماستهم ومنحهم الله الشجاعة فهجموا على عساكر الفرنسيس فمنحهم الله رقبهم يأسرون فريقا ويقتلون فريقاً، وتفرَّقت عساكر الفرنسيس شَذَرَ مَذَرَ، وأسرعوا في حالتهم تلك إلى قلعتهم يحتمون بها مِن كور ومدافع المسلمين.

وقد /116/أصابت إحدى الكور التي كانت تقذف من القلعة الجنرال شانغارني فقضت عليه، وزادت هذه الواقعة في انهزام وانكسار الجنود الفرنسيس ثمَّ انقلبوا في النهاية خائبين مدحورين إلى عنابة.

سعى الحاج "أحمد باي" لتعقُّب عساكر الفرنسيس لكن عُدّةُ جيشه مِن البنادق والمدافع لم تعنه للتَّقدُّم أكثر في ذلك، ولهذا اضطر للعودة مِن عنابة.

كانت عساكر الفرنسيس تعلم أنّ خبر هزيمتها سيؤلب عليها قبائل العرب وأنهم لا محالة سيثورون ضدها، فقامت سريعا ببث خبر مفاده أنّ فرنسا تحضر في جيش جديد سيكون أقوى وأكثر عدة وعتادا ستسوقه للحاج "أحمد باي" قريبا وأعلنت الأمر بين الأهالي.

الفصل الرابع عشر

فصل في بيان تجهيز الجيش الفرنسي من جديد ووضع يده على قسنطينة

بعد مدة وجيزة قَدِم المارشال كلوزال[1] بجيش عظيم تحت قيادته إلى عنابة وكان حاضراً ولي العهد الدوق بتمورك[2] بنفسه في هذا الجيش، /117/ لما سمِع الحاج "أحمد باي" بهذا الخبر قام بجمع العساكر مِن العرب والقبائل، وزع ما تقتضيه الحاجة مِن سلاح وعتاد على من سيكون في الحصون والقلاع وأمَّر عليهم كاهيته، وأمر بالحفاظ على المدينة، أمَّا الحاج "أحمد باي" فقد خرج بمن معه مِن عساكر العرب الكثيرة لمواجهة عساكر الفرنسيس، لكن لمَّا كان جيشه قليل العدد مقارنة بجيش العدو عاد أدراجه للقلعة، وبقي الفرنسيس في عقبه حتَّى اقتربوا مِن القلعة فبنو لهم حصناً قبالة القلعة، ووضعوا فيه ما يكفي مِن الكور ثمَّ شرعوا في قصف القلعة.

في الحقيقة بالرغم مِن أنَّ المدفعجية في القلعة كانوا يردون على الكور القادمة مِن الفرنسيس إلاَّ أنّ ذلك لم يكن يفيد في شيء؛ إذ كانت معظم مدافع القلعة قديمة بالية لا حماية ولا خزان لها فلم تنفع بشيء.

في النهاية استطاع الفرنسيس التَّقدُّم باتجاه القلعة وتسورا جدرانها، لكن قبل أن يوفقوا في ذلك انفجر فيهم لغمٌ كان الطوبجية قد جهزوه قبل ذلك في أحد أسوار المدينة فشتَّت شمل الفرنسيس، وتطايرت أجسادهم في الهواء

---

[1] اختلط الأمر على المؤلف إذ المعروف أن كلوزال كان هو قائد الحملة العسكرية الأولى على قسنطينة سنة 1836م وعُزل مِن الجزائر بسبب إخفاقه في هذه الحملة، في حين أنَّ الحملة العسكرية الثانية التي يتحدَّث عنها المؤلف هنا هي حملة سنة 1837م والتي كانت بقيادة المريشال دامريمون.

[2] والصحيح أنَّه الدوق دو نيمور.

بفعل ذلك وسقط عدد كبير منهم قتلى /118/ سنة 1837 ميلادي[1] لكن مع هذه الحال دخلت عساكر الفرنسيس إلى مدينة قسنطينة، وإن كان بعض أصحاب التواريخ الفرنسيس ينفون حكاية اللغم وانفجاره فإنَّنا نقف على ما يثبت القصة إذ يروى أنَّ ضابط فرنسي اسمه (لمورسيل) كان ممَّن انفجر فيه ذلك اللغم فطار في الهواء لكنه نجى بأعجوبة وكمكافأة له على شجاعته رقي لاحقا لرتبة جنرال[2].

بقي العديد من عساكر العرب والقبائل في دور ومساكن المدينة، لذا لم يكن بمقدور عساكر الفرنسيس التجول بأزقتها، وبقوا عاجزين خائفين، وحينها أعلم كاهية الحاج "أحمد باي" الجنرال أنه في حال أخذه الأمان لنفسه فإنه سيخبر عساكر العرب والقبائل ليخرجوا من مخابئهم التي يشغلونها بسهولة فلما أعطاه الجنرال الأمان نادى الكاهية في الناس: «إنّ عساكر الفرنسيس سيشعلون النار في المدينة، ونحن بداخلها» فلمَّا سمِع القوم هذا الكلام من رجل موثوق ومعروف لديهم قاموا بترك الحرب وخرجوا.

---

[1] توجد جدارية في مدينة قسنطينة وضعتها السلطات الفرنسية، تؤرخ فيها لهذه الواقعة التي قُتل فيها الجنرال دامريمون (Damremont) كُتب فيها: الحمد لله في هذا المكان قد مات مقتولا بالكورة سعادة اليوطنان ديني جنرال كونت داريمون حاكم الجزائر العام وحاكم الجيوش الفرنسوية، وذلك في 12 أكتوبر 1253هـ عشيت دخول قسنطينة" وقد أشار لهذا الأمر الأستاذ "توفيق بن زردة" في صفحته الشخصية في وسائط التواصل الاجتماعي، وما هو مدرج في الملاحق إنما هو من صفحته.

[2] قصة هذا اللغم وما حدث بعدها من تفاصيل تخص دخول الجيش الفرنسي قسنطينة مذكورة بالتفاصيل نفسها في إحدى الوثائق العثمانية المرسلة من "فتحي باشا" سفير الدولة العثمانية في باريس إلى الباب العالي ضمن الأرشيف العثماني، قسم الإراده، علبة رقم 140، ملف رقم 19. بتاريخ 20 جمادى الأولى 1254هـ.

أمَّا كاهية الحاج "أحمد باي" هذا فقد امتن الفرنسيس غاية الامتنان لصنيعه، فاهتموا به واعتنوا به وأحسنوا إليه وقربوه إليهم وكافئوا صنيعه بالنياشين والرتب.

/119/ والحاج أحمد باي حينها ظل دون حيله، وقصد التَّواصل مع الدَّولة العلية، أمَّا بقية العرب والترك والقبائل فقد هاجروا إلى رأس الكاف بحدود تونس.

وهناك قام مع والدي رحمه الله بكتابة كتابٍ للباب العالي باسطنبول فيه بيان ما حلَّ بهم[1]، وأرسلوه بواسطة قنصل إيطاليا (نابولي) وظلوا ينتظرون نصرة فرمان السلطان بالعساكر الإسلامية.

[1]يبدو أنّ المؤلف "علي رضا أفندي" قد اختلط عليه الأمر هنا أيضا، إذ والده حمدان خوجه كان حينها في إسطنبول وهو الذي أعلم الباب العالي مِن خلال مراسلات مع "أحمد باي" بسقوط مدينة قسنطينة في يد العساكر الفرنسيس مثلما تؤكده المراسلات الأرشيفية لحمدان خوجه في الأرشيف العثماني.

الفصل الخامس عشر

بيان ظهور الشيخ المشهور عبد القادر وذكر حروب الحاج أحمد باي مع الفرنسيس

ظلت المناطق المحصورة بين قسنطينة وعنابة مناطق خطيرة لا يمكن عبورها، بسبب الحرب التي كان يشنها الحاج "أحمد باي" في الشرق الجزائري على عساكر الفرنسيس، وفي هذه المدَّة /120/ ظهر في سنجق وهران بالغرب الجزائر شيخ اسمه "عبد القادر" جمع حوله عدداً مِن الفرسان العرب ودخل في حرب مع الفرنسيس، لكن قبل أن نصل ذلك نرى أنَّه مِن المناسب أن نُقدِّم له نبذة مِن حياته.

بمجرد سقوط مدينة الجزائر اتَّفقت القبائل التي حولها بقيادة مشايخ العرب وعشائر القبائل على القيام بمواجهة الفرنسيس، لذا أجتمع أمرهم قرب قبيلة وادي الحمام على مبايعة رجلها سيدي "محيّ الدين" ذا النسب الهاشمي قائداً عليهم، وكان من مشايخ العرب وقادتهم، إلاَّ أنَّ الشيخ لكبر سنه قدَّم ولده "عبد القادر" لينوب عنه، إذ كان قد أُخبِر، أنّ بعض النَّاس من أصحاب الكرامات قد تكلَّموا عن ابنه "عبد القادر" بأنه سينال حظا كبيرا من الشهرة وعلو المقام في الجزائر عندما كانا في الحجاز.

هكذا بايع العرب في تلك الجهة "عبد القادر بن محي الدين" أميراً على السمع والطاعة ودخول الحرب تحت لوائه، وللانتصارات التي كُتبت له في أوَّل حربه مع الفرنسيس أطلق عليه العرب/121/ لقب (صاحب الوقت) وهكذا سطع نجم "عبد القادر" من يوم لآخر وبرز صيته من انتصار لآخر، فلمَّا سمع الفرنسيس بشجاعته وبما يحقِّقه من انتصارات سارعوا لطلب الصلح معه. لكن "عبد القادر" رفض عرضهم وأخبرهم أنَّه في جهاد في سبيل الله ولا يرده شيءٌ محاولاً كسب ثقة العرب أكثر للوقوف بجانبه والالتفاف حوله، أعطى

"عبد القادر" نفسه السُّلطة لأجل فتح واسترجاع مدينة الجزائر، وبعد مدَّة وجيزة تسمى بـ "الأمير" وهي إشارة معنوية جمعت حوله الكثير مِن قبائل العرب من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، فنمت بذلك واجتمعت له وحوله قوَّةً كبيرةً كانت له عوناً عظيماً في الكثير مِن الفتوحات والانتصارات.

لم يحدث اتفاق واتحاد بين الشيخ "عبد القادر" و"أحمد باي"، لكنهما ظلا في حربهما ضد الفرنسيس فالشيخ عبد القادر جهة الغرب والحاج "أحمد باي" جهة الشرق.

امتدَّت هذه الحروب إلى خمسة عشر سنة، لكن/122/ لحكمة يعلمها الله بدأ الضعف يدب بين عساكر المسلمين من يوم لآخر، ونتيجة هذا سنعود لها في موطنها لاحقا.

لنعد للحاج "أحمد باي"، مثلما سبق ذكره آنفا فقد أرسل عن طريق "حمدان أفندي" رسالة للباب العالي فيها عرض حال لتسليم مدينة الجزائر للفرنسيين، بعد ذلك أرسل عامل مخصوص للباب العالي لعرض سير الأمور وطلب المدد من الدولة العلية، لكن بسبب الغوائل والمصائب التي كانت فيها الدولة العلية لم يجد هذا الطلب آذان صاغية، لكن الباب العالي أرسل رموز الولاية للحاج "أحمد باي" ورقي لرتبة الباشوية بفرمان مِن السلطان مصحُوباً بالكلنج والقفطان[1].

[1] لم تقم الدولة العثمانية بإرسال المدد إلى الحاج "أحمد باي" كما أنَّ موقفها من الباشوية بقي مُترددا ولم تقم بما ذكره المؤلف، بل أحجمت عن ذلك لاعتبارات عديدة، للتفصيل أكثر راجع خيرالدين سعيدي، "موقف الدولة العثمانية من طموحات احمد باي في حكم إيالة الجزائر"، مجلة جامعة إسطنبول للدراسات العربية، المجلد 4، العدد 2، 2021.
SAIDI, Kheireddine. "The Position of the Ottoman Empire on the Ambitions of "Ahmed Bey" in Governing the Regency of Algeria (1832-1837)", Istanbul Journal of Arabic Studies (ISTANBULJAS), 4/2 (2021/2), 303-327

ذُكِر في تاريخ "عطاء" أن سبب عدم إرسال العون من الباب العالي إلى الجزائر أثناء الهجوم الفرنسي هو ناظر الخارجية حينها المرحوم "برتيف باشا"[1]، ومردُّ ذلك: أنَّ سفير إنكلترا كان قد أعلمه بأنَّ فرنسا ستسوق جيشها لاحتلال الجزائر[2]، لكن حينها قال الناظر المشار إليه :«إنَّ "ولي داده" -المشار إليه سابقا- المدفون بالجزائر يحميها/123/ والفرنسيس لن يستطيعوا احتلالها» وإن كان يمكننا بهذا إظهار عدم اهتمام كبار رجال الدولة وصرف نظرهم عن هذا الأمر إلاَّ أنَّ تدقيق البحث في كُتب التَّاريخ يوضِّح عكس هذا.

لأنَّه في الوقت الذي ظهرت فيه المسألة الجزائرية كانت السلطنة السنية تعيش في مشاكل عدّة، فروسيا استمرت في تضييقاتها على الباب العالي، كما طالبت اليونان باستقلالها التام، كما أنَّ الوضع في الجزء الأوربي كان في غاية السوء إضافة لهذا كان مركز الحكم في الدولة العلية يعرف الفوضى وعدم انضباط العساكر، بالتالي فقد تزامن ظهور المسألة الجزائرية مع عدد مِن الغوائل والأزمات في آن واحد لم تساعد لتكون المسألة الجزائرية على رأس الاهتمامات، بل اضطرت الدولة العلية للأخذ بالقاعدة التي تقول: «تقديم الأهم على المهم» وهكذا لم تستطع المسألة أن تلفت انتباه الدولة العلية ولم يُتمكَّن مِن تخصيص زمن لحل المسألة[3].

---

[1] برتيف باشا .*Pertev Paşa*

[2] توجد عدد من المراسلات الهامة من السفير الإنجليزي في الآستانة إلى "برتيف باشا" وخلفه، تتحدَّث عن المساعي الضرورية التي يجب القيام بها لأجل إيقاف الغزو الفرنسي للجزائر لعل مِن أهمها، الأرشيف العثماني قسم الإراده، علبة 140، رقم 1؛ الأرشيف العثماني، الأرشيف العثماني، قسم الخط الهمايوني، علبة رقم 1230، ملف رقم 47971.

[3] كانت مسألة موقف الدولة العثمانية من الاحتلال الفرنسي للجزائر هي موضوع رسالتنا للدكتوراه في جامعة إسطنبول والتي نوقشت سنة 2023 وهي أحد أسباب تأخر خروج هذه الترجمة للكتاب رغم الفراغ منها نهاية سنة 2018. ولعل ترجمة العمل مستقبلا للغة العربية سيجيب عن الكثير من الأسئلة والغموض الذي صاحب هذه المسألة.

بل إنَّه في النِّهاية ولدرجة انشغال الباب العالي بمشاكله وفي الوقت الذي قامت فيه فرنسا بإلحاق الجزائر بها لم تقم الدَّولة العلية بإنكار ذلك ولا بالاعتراض عليه حتَّى لانشغالها بأمور عديدة. /124/بل تأخر إعلانها عن حقها في الجزائر، ما أعان فرنسا على الحصول على المشروعية لما قامت به في الجزائر، وطلب الدولة العلية من الدول الأوروبية المُساندة في المطالبة بحقوقها المشروعة إلا أن ذلك تأخَّر كثيراً، وهكذا أصبحت عملية استرجاع الجزائر تستلزم مصاريف باهضة [تعويضا لفرنسا] هذا إضافة إلى بعض الموانع الأخرى التي جعلت الأمر يراوح مكانه إلى اليوم.

بعد هذا، وبالرغم من عزم الحاج "أحمد باي" على مواصلة حربه ضد الفرنسيس إلاَّ أنه فهم بعد تشرذم الترك الذين كانوا حوله وبقاء نزر يسير مِن العرب معه أنَّه لا طاقة له بمواجهة الفرنسيس؛ فعرض عليهم تسليم نفسه بشرط أن يبعثوا به إلى البلاد العثمانية.

هذا الالتماس من الحاج "أحمد باي" وقع موقعا عظيما عند الفرنسيس الذين كانوا مستعدين لتقديم الغالي والنفيس لمثل هكذا عرض، فوافقوا من ساعتهم على طلبه، وعاهدوه على الوفاء بالتزامهم ومنحوه الأمان بذلك.

لكن بمجرد أن مكَّنهم الله منه نقضوا عهدهم، ولم يبعثوا به إلى البلاد العثمانية كما تمّ الصلح عليه، بل أوقفوه في إحدى قصورهم، ومنعوا عنه الزيارة إلاَّ بإذن منهم/125/ ووكلَّوا به ضابط مخصوص يخرجه للصلاة.

وبعد مرور مُدَّة مِن الزّمان تمكَّنت إحدى جواريه مِن الفرار بعد أن خدعت أحد الضباط الفرنسيس، فلمَّا نما الخبر إلى الجنرال أمر بإيجاد الجارية على الفور وإعادتها. غضب الباشا عندما سمع بما جرى وقيل أنه أمر بمعاقبة الجارية، وأرسل إليه الجنرال برسالة جاء فيها: «لقد عفونا عنك هذه المرة لكن لتعلم أنه في المرة القادمة إذا حدث مثل هذا الأمر فسيكون القصاص منك أنت شخصيا» جلب هذا الكلام الحزن والكدر إلى رأس الحاج "أحمد باي"

ووقع منه موقعا سيئا، إلى أن قيل أنه تناول السم وقتل نفسه بسببه، ويروى أنّ ذلك الكلام آلمه إلى أن قضى عليه، وروت بعض الحكايات أنَّه إنَّما قُتِل مَسمُوماً (غفر الله له وتجاوز عن سيئاته).

الفصل السادس عشر

ذكر بعض حروب الشيخ "عبد القادر" مع الفرنسيس وبيان صورة تسليم نفسه في الأخير

كما ذكرنا فيما سبق، يسر الله للشيخ "عبد القادر" الظفر والنصر في كل مواجهاته مع الفرنسيس/126/ بل ومكَّنه الله منهم في أن أغنمه الكثير من خيلهم وأموالهم، وانصرف إلى تأديب قبائل العرب التي مالت للفرنسيين.

والحاصل أنَّ غزوات وانتصارات الشيخ "عبد القادر" على عساكر الفرنسيس قد جلبت لهم سخط واحتقار الصحافة الفرنسية وجعلهم في موقف مخزى أمام مواطنيهم.

في هذه الأثناء أعلن جنرال فرنسي مشهور اسمه "بيجو" أنَّه إذا سُخِّرت له القوَّة والعتاد اللازمين فإنَّه يتعهَّد بالقضاء على "عبد القادر" ومَن معه، فلمَّا سمع مقالته بعض النافذين سعوا له في طلبه، وأرسل معه عسكر عظيم إلى الجزائر.

اتجه الجنرال بعدها مباشرة للجزائر وبدأ حربه مع الشيخ عبد القادر فحاصر الجنرال الشيخ عبد القادر من كل جهة وضيق عليه ما اضطر الشيخ للرجوع إلى الخلف باتجاه بلاد المغرب وهناك أعلن نفسه (صاحب الوقت) فوفد إليه العرب في تلك الجهة من كل ناحية جماعات وفرادى. وسعى للاتحاد مع ملك المغرب لأجل إخراج الفرنسيس من الجزائر/127/ لكن بعد مُدَّة مِن تفكير سلطان المغرب في هذا الأمر وبعد تدقيق قرَّر إيقاف الاتفاق، وأخطر "عبد القادر" بضرورة الخروج على الفور مِن البلاد.

لم يعره "عبد القادر" اهتماما، ولم يدخر جُهداً في دعوة العرب للجهاد ما أدى لظهور فتنة ومحاربة كبيرة بين أتباع "عبد القادر" ومَن هم ضده، في هذه الأثناء كان عبد القادر ومَن معه قد وُطِّنوا بناحية مضيق سبتة، فيما أكّد

الفرنسيس لسلطان المغرب جديتهم في طلبهم عبد القادر بالهجوم على قلعة تطوان الخاضعة لحكم سلطان المغرب، ولم يكتفوا بذلك، بل قام الفرنسيس بإرسال عمارة بحرية للمحل المذكور، حمل هذا الأمر الفرنسيس على مفاوضة سلطان المغرب وانتهى الأمر إلى اتفاق لم تكن إنجلترا راضية عنه. وقد ظهر الأمر في أنّ اضطر سلطان المغرب إلى تجهيز جيشين أحدهما عَيَّن لقيادته ابنه والآخر قام هو بنفسه بقيادته واتجه الجيشان باتجاه "عبد القادر"/128/ كما تقدَّمت عساكر الفرنسيس مِن جهة الجزائر باتجاه "عبد القادر" ما جعله محاصراً مِن ثلاث جهات، وأضحى بين ثلاث نيران، أمَّا بعض العرب فقالوا: «لو كان صاحب الوقت لما تمكَّن منه العدو» وانفضوا مِن حوله. في تلك الأثناء كان حاكم فرنسا "لوي فيليب" قد أرسل بابنه بصفته جنرال إلى الجزائر، أمَّا "عبد القادر" فقد قرّر تسليم نفسه.

وهكذا، حيث كانت محلة "عبد القادر" على مقربة مِن محل استقرار عساكر الفرنسيس، وفي إحدى الليالي المطرة تقدَّم "عبد القادر" لوحده إلى معسكر الفرنسيس، وعندما وصل هناك نادى أحد العساكر، وأعلمه أنَّه "عبد القادر" ثمَّ أخذ بورقة وختمها بختمه ولم يكتب عليها شيئا بسبب غزارة الأمطار وطلب مِن الرجل أن يأخذ بالورقة للجنرال "لامورسيير" مُعلماً إيَّاه بما يلي: «سأُسلم نفسي مِن الغد بشرط أن أحصل منكم على وعد بإرسالي إلى الإسكندرية أو إلى أحد أراضي الدولة العلية» فأخذ الفرنسي هذا الكتاب وطار به إلى الجنرال فلمَّا سمع بمطلبه وافق مِن ساعته ووعد بتطبيق ذلك/129/ وهو بدوره لأجل أن يؤكد على التزامه أرسل بختم بلدة تلمسان ومعه سيفه الشخصي إلى" عبد القادر"؛ لأنَّه تعذَّر عليه الكتابة بذلك في مكتوب بسبب الأمطار الغزيرة التي كانت تهطل وصعوبة الخروج من الخيمة التي كان بها، ومِن الغد لما صفا الجو أرسل "عبد القادر" بكتاب يعرض على الجنرال تسليم نفسه وقام الجنرال بإرسال جواب يمنحه فيه الأمان.

وفي سنة 1845[1] بالقرب من ضريح "سيدي إبراهيم" قدم من مقام السلطان ولده، فقال له عبد القادر:« لم أكن لأسلم لكم نفسي من قبل، لكن هكذا هي أقدار الله، أنتم أبناء الملك وأنا أثق بعهدكم، وأتمنى أن لا تُخلِفُوا الوعد الذي قدَّمه الجنرال» وفي أثناء الحديث عرض ما قُدِّم له مِن مكتوب بخط وختم الجنرال المشار إليه مِن عهد أمان ووعد بالسماح بذهابه لبورصا وأعلمه أنَّه في حالة الرجوع عن الاتفاق فهو مستعد للقتال لآخر عمره فقبل ولي العهد بما التمسه "عبد القادر" بمزيد مِنَّة واحترام، وكتب بذلك كتاباً وقَّعه، وقدّمه له فأخرج "عبد القادر" سيفه وسلمه لولي العهد، واتُّفق على قبول استسلام كل مَن كان مع الشيخ "عبد القادر" ممَّن أراد ذلك، أمَّا مَن رفض فأفهمهم أنَّ عليهم الرجوع من حيث قدموا

/130/ أخذ عبد القادر من كان معه بالجملة من الصغار والنساء والولدان وقدم مع ولي العهد للجزائر، فرح الفرنسيس فرحا عظيما بسهولة تسليم "عبد القادر" لنفسه، بل وأقاموا لذلك احتفالا بهيجا.

بعدما استراح عبد القادر في المدينة عددا من الأيام طلبه ولي العهد لحضرته، لمناقشة إرساله إلى إحدى الأقطار الإسلامية والتمس منه أن يتجه إلى فرنسا للتعرف على والده الملك إذ كانت شهرة وشجاعة عبد القادر تملأ الأفق ثم بعد ذلك يُنقل إلى بورصا.

ومع أنَّ هذا العرض كان ثقيلا على "عبد القادر" إلاَّ أنَّه اضطُر لقبوله وإظهاره موافقته عليه؛ حتَّى لا يحدث أي شقاق في العهد المتفق عليه سابقا وبناء عليه قام ولي العهد أوَّلاً بإرسال تلغراف إلى والده الملك يعلمه فيه بقدوم "عبد القادر" عليه، ثم قام بعد ذلك بإركاب عبد القادر في سفينة حربية فرنسية وقام بإرساله إلى الميناء العسكري بطولون.

[1] والصحيح أن إيقاف الأمير عبد القادر لقتاله ضد الفرنسيس كان في 23 ديسمبر 1847م.

في حين أنَّ الملك لم يعر اهتماما لعهد الأمان الذي منحه ولي عهده لـ "عبد القادر"/131/ إذ بمجرد وصوله في بداية أمره حبس في قلعة بفرنسا اسمها "لامالغ" لمدَّة ثلاث سنوات، بعدها نقل إلى قلعة "بو" لكن لكون أنَّ هذه القلعة كانت قريبة مِن إسبانيا فقد خُشي أن يهرب إلى هناك، لينقل مرّة أخرى إلى قلعة "آمبوزا" ووضع تحت حراسة عسكرية شديدة.

كان مع "عبد القادر" عائلته وهم في نحو مِن خمس وعشرين فردا. تحوَّلت فرنسا بعد مدة يسيرة إلى جمهورية ولم يكن السُّلطان المذكور آنفا قد وفَّى بالعهد الذي كان قد قُطِع لـ "عبد القادر"، الأمر الذي أدى إلى كثرة القيل والقال بين النَّاس، بعد ذلك ظهرت الكثير مِن الاختلالات أدت في النهاية لخلع السلطان وإنهاء النظام الإمبراطوري واستبداله بالنظام الجمهوري.

في تلك الأحداث أضحى نابليون الشهير[1] رئيسا للجمهورية، وبعد مرور سنة قام بزيارة القلعة مكان حبس "عبد القادر"، عند دخوله على "عبد القادر" لم يعره الأخير أي اهتمامٍ، بل إنَّه لم يقم مِن مكانه حتَّى، فاستغرب الضابط الموجود بالمكان مِن ذلك/132/ واعتقد أنَّ ذلك مردُّه عدم معرفة "عبد القادر" لمن يقف أمامه؛ لذا أعلمه أنَّ من يقف أمامه هو رئيس الجمهورية، فطأطأ "عبد القادر" برأسه نحو الأمام وقابله بقوله :« نعم أعلم ذلك، لكن هل علي أن احترم دولة لا تحترم عهد الأمان الذي منحته وهو فوق ذلك مختوم بختم ولي العهد! هل يستلزم علي احترامها إلى هذا القدر فعلا!» وقام بتقديم عهد الأمان إلى نابليون فقال الأخير: بسبب عدم التزام الملك "لوي فيليب" بهذا العهد وما جاء فيه مِن أحكام خُلع عن العرش، وأنت الآن حرٌ في الذهاب إلى أي مكان تريده» ثمّ ترافقا معا إلى باريس، أمَّا عبد القادر فقد عزم على الاتجاه إلى بورصا فسمح له بذلك وخصَّص له معاشٌ شهريٌّ.

[1] يقصد هنا نابليون الثالث.

بعد هذا أصبح "عبد القادر" صديقاً للفرنسيين طوال حياته، وحسب بعض الروايات فقد قدَّم عدداً مِن النَّصائح للفرنسيين حتَّى يبسطوا أيديهم على الجزائر كلها، ولهذا كان نابليون يكن له الكثير مِن الحب والود فوق العادة وحرص على إرسال الهدايا له، /133/ومن بين الهدايا التي وصلت لعبد القادر من نابليون نجد سيف كُتب عليه:« نرجوا يا عبد القادر أن يُسلَّط هذا السَّيف على رقاب أعداء فرنسا» في هذه الأثناء اتجه إلى الشام وهناك كان مساعدا لفرنسا في الفتنة التي وقعت بالشام.

الفصل السابع عشر

باشوات الجزائر

في المرحلة الأولى مِن حكم الجزائر كان الباشاوات يعينون من طرف الدولة العلية فيما يقوم جميع سكان الجزائر وعساكرها بتزكيتهم ومبايعتهم في مناصبهم هذه، ظل هذا الأمر على حاله طيلة مائة وتسعين سنة، لم يحد فيه باشوات الجزائر عن هذا النهج الذي رسمه خيرالدين بربروس[1]، لا نقف في هذه المدَّة على شيء يذكر مِن سيرة باشوات الجزائر، بعد هذه المرحلة وبدون أخذ رأي سكان الجزائر استأثر الانكشارية باختيار مَن يجلس على ولاية الجزائر، فيما هو قادم سنأتي باختصار على ذكر هؤلاء الباشاوات وأسماءهم ووقت جلوسهم على كرسي الولاية وما اشتُهِر فيها مِن أَمْرِهم وأعمالهم.

(عبدي باشا)

اختير عبدي باشا لولاية الجزائر سنة 1750م[2]./134/ لا يوجد ما يُشرح مِن أعماله، ظل في منصب الباشوية سنتين[3].

---

[1] إلى غاية سنة 1710 عندما قام الداي علي خوجه برفض نزول الباشا المرسل من إسطنبول إلى الجزائر رمضان باشا وقام بتحويل سفينته إلى عنابه وهنالك توفي الأخير بعد مدة يسيرة وأرسل علي خوجه طلب إلى الباب العالي لتسميته باشا على الجزائر فكان أول من جمع بين يديه منصب الداي والباشا وبه بدأت إيالة الجزائر مرحلة جديدة في تاريخها أصبح فيها الحكام يُعينون في الجزائر من الجند الانكشاري ويقوم الباب العالي بتزكيتهم في مناصبهم فقط.

[2] وهو خطأ ظاهر إذ الصحيح أن عبدي باشا انتخب باشا على الجزائر سنة 1724م.

[3] يذهب دي غرامون إلى أن مدة حكمه فاقت الثماني سنوات حيث امتدت من سنة 1724 إلى سنة 1732م.

(علي باشا)

عين في ولاية الجزائر سنة 1752م[1]، ظل في الباشوية عشر سنوات، دخل الحرب مع باي تونس وأجبره على دفع ضريبة للجزائر.

(بابا محمَّد باشا)

عين سنة 1763م واليا على الجزائر[2]، ظل في حكم ولاية الجزائر سبعة وعشرون سنة، توفي أعزبا، كان رجلا معروفا ومحظوظا. في زمنه ورد على الجزائر ثمانية عشر ألفا من عساكر الإسبان لحربها، وقد برز في هذه الحرب أيضا حاكم قسنطينة "صالح باي" فاشتهرت بطولاتهما. نظم العرب قصائداً في "بابا محمَّد باشا" يفتخرون فيها ببطولاته ومآثره في الحرب. وقد استعمل الجمال كمتارس في حربه فجعلها في مُقدم جيشه وتقدَّم بها إلى عدوه، فلمَّا رآها الإسبان اضطرب حالهم وتقلَّبت أحوالهم /135/وكانت سبباً في خسارتهم لحربهم.

وبسبب هذه الحرب امتلأت خزائن الجزائر بما منّ الله به عليهم مِن الأموال والغنائم. توفي رحمه الله سنة (1789م)[3]

(حسن باشا)

كان لحسن باشا نشاطا كذلك الذي عُرِف عن سلفه "محمَّد بابا باشا"، في الحقيقة لم تشهد الجزائر في زمنه العديد من الحروب، لكن سفن قراصنة البحر غنمت العديد من سفن لصوص البحر وأتت بها إلى الجزائر، وهكذا زادت خزينة الجزائر غنى إلى غناها، حتَّى امتلأت الخزائن، ظلَّ "حسن باشا" في

---

[1] وهو خطأ ظاهر، والصحيح حسبما تورده المصادر المختلفة أنه كان سنة 1754م.

[2] والصحيح أن تعينه كان سنة 1766م.

[3] والصحيح أن وفاته كانت سنة 1205/1790هـ وهي السنة التي خلفه فيها حسن باشا في حكم إيالة الجزائر وفي زمن حسن باشا تم الفتح النهائي لوهران على يد الباي محمد.

حكم الجزائر سبع سنوات، وبعد وفاته أي في سنة (1796م)[1] تولى مصطفى باشا ولاية الجزائر.

(مصطفى باشا)

ظل في حكم ولاية الجزائر سبع سنين، لم يحدث في زمان حكمه للجزائر أي حرب، كان سخيا جدا باسطا يده بما في الخزينة مِن العطايا على النَّاس؛ ما جعل الإنكشارية يرون فيه شخصاً مُضراً بالخزينة، لذا قاموا في أحد الليالي بتسلق أسوار القلعة وقتلوه. /136/

(أحمد باشا)

عُيِّن أحمد باشا والياً على الجزائر سنة (1803م)[2] كان رجلا سيمته الغدر وعديم الرحمة، جمع كل من اجتمع على قتل والي الجزائر الذي سبقه مصطفى باشا من الإنكشارية وقام بخنقهم واحدا واحدا، إلاَّ أنَّه بعد ثلاث سنوات قُتل هو نفسه مِن طرف الإنكشارية[3].

(علي باشا)

عين واليا على الجزائر سنة (1806م)[4]، كان في أول أمره في غاية الفقر والعوز، وكان يعرف بغسال الموتى. استمر في حكمه للسلطنة ستة أشهر[5]، ثمَّ

---

[1] والصحيح أن وفاته كانت في ذي القعدة سنة 1212هـ أي ما بين شهري أبريل/ماي سنة (1798م).

[2] يورد الزَّهار أنَّ بداية ولايته كانت في: جمادى الثانية سنة 1220هـ أي أوت/سبتمبر من سنة 1805م.

[3] يذكر الزهار ذلك بقوله:«..ثم اتفق العسكر، وثاروا على الرؤساء ورجعوا إلى الجزائر ولم يتموا أيام سفرهم، ثم بعد رجوعهم لستة عشر يوما ثاروا عليه، وقتلوه بالرصاص يوم الاثنين 15 رمضان وهوهارب من دار الملك، فسقط إلى قرب مخزن العشور، فقطعوا رأسه وسحبوه في الزقاق إلى السراجين، ومن هناك حملوه ودفنوه...»

[4] يذكر الزَّهار أنَّ ولايته كانت في 15 رمضان سنة 1223هـ/نوفمبر سنة 1808م.

[5] ويروى أنها كانت أربعة أشهر فقط.

حل محله بيت المال حاجي علي باشا، في زمنه نشبت الحرب مع باي تونس لكن لم يُر منها أي فائدة.

اشتهر في زمن حكمه "الريس حميدو"، الذي كان الاسبان يخيفون أبناءهم باسمه، وكان بفضل هذا الريّس أن وضع تحت يديه الكثير من الغنائم التي سُلبت مِن سُفن لصوص البحر، لذا كان يحرص على زيارة الريس حميدو بنفسه في محل إقامته ويظهر له الاحترام الذي يليق به.

غير أنَّ علي باشا كان يخاف كثيراً مِن قبائل الكراغلة التي كانت تستوطن وادي الزيتون zeytin deresi ولأن الكراغلة أبناء الترك فقد دخله وسواسٌ مفاده أنَّ الكراغلة ستُسوِّل لهم أنفسهم في النهاية الاستيلاء على الحكومة.

مِن أجل حربهم أرسل الباشا آغا العرب عمر آغا مع طائفة مِن العرب، غير أنَّ عمر آغا كان يُضمر العداوة لعلي باشا المذكور؛ فتحالف الأخير مع الكراغلة واتفقوا على قتل الباشا.

تمكَّنُوا مِن التَّحكم في خدم "علي باشا" فلمَّا دخل الحمام أحكموا إغلاق الباب عليه ثمَّ شرعوا في زيادة حرارة الفُرن فاختنق بسبب ذلك ومات.

لم يقبل "عمر آغا" لنفسه أن يكون واليا على الجزائر، بل قام بسياسة الأمر وانتهى الخلاف بتعين الحاج "محمّد باشا" الخزناجي صاحب التسعين سنة (1813م)[1] واليا على إيالة الجزائر.

ولأن الحاج محمد باشا كان شيخا كبيرا في السن فقد ترك تسير شؤون البلاد لابنه الكبير مصطفى باي، أما عمر آغا فقد ندم على تعيين الحاج "محمَّد باشا". بعد سبعة عشر يوما ذهب إلى ثكنة الإنكشارية وقال لهم/138/:" نحن أجلسنا محمّد باشا على كرسي الحكم، لكنه ترك تسيير كل شؤون الإيالة لابنه، وابنه بعدما ينهي أموال الخزينة سيدَّعي لنفسه حق حاكم الأوجاق معتمدا على الكراغلة، وفي ذلك الوقت فإنَّ جميع الترك الذين بين أيديه

[1] كان ذلك سنة 1815م على التحقيق.

سيقتلون" بسبب هذا مِن ساعتهم قام العساكر بالقبض على "محمَّد باشا" وابنه "مصطفى باي" وخنقهما معا.

عمر باشا

بعدما عُيِّن "عمر باشا" واليا على الجزائر[1] ظل يشغل منصب الباشوية لأربع سنوات، في زمانه أمر الريس حميدو بأن يخرج للبحر مِن أجل تحصيل الغنائم في هذه الأثناء كانت سفن أمريكا في البحر لذا نبَّه الريس حميدو الباشا بخطر الخروج في ذلك الوقت، إذ مِن الممكن أن تقع السفن الجزائرية في الأسر. فأجابه الباشا بأمر مضمنه: «أنت في زمن حكم علي باشا كنت تجلب العديد من الغنائم وتأسر الكثير من السُفن، أمَّا اليوم فلا نرى لك شيئا من هذا. لذا مهما يكن من الأمر، جهز السُّفن التي بين يديك واخرج من ساعتك إلى البحر»

عندما خرج الريس حميدو إلى البحر أحاطت به سفن أمريكا من كل جهة، وبعد حرب مع هذه السفن أبى فيها الريس حميدو الاستسلام سقط شهيدا لكنه حمى السفن.

ما تمَّ ذكره في الأعلى تزامن مع عمارة الانجليز على مدينة الجزائر. لذا بسبب وفاة "الريس حميدو" وما خسرته الجزائر في العمارة الانجليزية على المدينة تم قتل "عمر باشا" مِن طرف الإنكشارية[2].

---

[1] بدأته ولايته في ربيع الثاني سنة 1230هـ/مارس 1815م.

[2] وفي مراسلة من الجند الانكشاري إلى الباب العالي في شأن قتل عمر باشا أوضحوا أن السبب هو إطلاقه الأسرى المسيحيين الذين كانوا في الجزائر بعد حملة اللورد أكسمورث على الجزائر سنة 1816 م دون مقابل لذلك. وتوجد عدد من الوثائق التي تؤرخ لهذه المرحلة في الأرشيف العثماني، انظر: الأرشيف العثماني، **قسم الخط الهمايوني**، علبة رقم 481، ملف رقم 23619؛ الأرشيف العثماني، **قسم الخط الهمايوني**، علبة رقم 685، ملف رقم 33301؛ **قسم الخط الهمايوني**، علبة رقم 455، ملف رقم 22486.

(علي باشا)

في تاريخ (1817م)[1] تم تعيين علي باشا في ولاية الجزائر، وكان "علي باشا" رجل مطلع، وكان صهره مفتي المالكية في الجزائر؛ لذا نجد النَّاس تساعده في كل الأعمال.

و"علي باشا" هذا هو الذي نقل القلعة العثمانية إلى الداخل[2]، كان عمره قصيراً، إذ في الشهر السادس من حكمه مات بالوباء.

حسين باشا

حسين باشا (1818م)[3] خوجة الخيل يعني ناظر الخيل، لما كان في هذا المنصب عُيّن في مقام الولاية على الجزائر، وقد سبق الحديث عن قصته وحياته بالتفصيل فيما سبق.

سقطت الجزائر في زمن حكم حسين باشا هذا أي سنة 1346هـ) في يد الفرنسيس، ويبلغ عدد سكان الجزائر كلهم سواء منهم: العرب، أو الترك، أو البربر، أو اليهود والفرنك مليونين ونصف.

أما تاريخ الجزائر ونظام الحكم الإدارية بها ونمط الحياة الذي ساد هناك وجميع تفصيلاته بعد سيطرة الفرنسيس عليها فقد دُوِّن في الأطلس الجغرافي الكبير انطلاقا من الصفحة (550).

---

[1] ويعرف أيضا بـ"علي خوجه"، يذكر الزَّهار أنَّ بداية ولايته كانت في شوال 1232هـ أي شهر أوت 1817م.

[2] لعله يقصد بها مركز الحكم الانتقال بدار الإمارة إلى القصبة ابتعادا عن الانقلابات والفوضى التي كان يسببها العسكر كل مرَّة.

[3] كانت بداية ولايته في 23 ربيع الثاني 1233هـ/ 22 فيفري 1818م.

الفصل الثامن عشر

ترجمة حياة الكاتب علي رضا باشا

علي رضا باشا المشار إليه آنفا وفد إلى الدنيا سنة (1236هـ/1820م) في مدينة الجزائر، والده "حمدان أفندي"، رافق والده إلى باريس، هنالك قام المرحوم "رشيد باشا" سفير الدولة العلية بإلحاقه بالمدرسة الإعدادية العسكرية، تعلَّم في تسع سنوات المدفعية وفنون الهندسة العسكرية.

بعدها مباشرة عين "يوزباشي" في المدفعية، يرقى بعدها من رتبته إلى رتبة "بنباشي"، تحصَّل بهذه الرُّتب على عدد مِن الأوسمة، وبعد مُدَّة قصيرة عُيّن في منصب "قائمقام" وفي سنة (1246هـ/1847م) فاز برتبة "ميرلاي".

إلى غاية تاريخ (1275هـ/1858م) أي على امتداد أحد عشر سنة نجده وهو برتبة ميرلاي يعمل كمحافظ للعديد من القلاع العثمانية، وشارك في عدد من الحروب التي كانت ضد روسيا، حصّل العديد من النياشين والأوسمة نظير بطولاته الكبيرة في ساحات الوغى، قام بالعديد مِن الإصلاحات والأعمال الكبيرة لإنشاء وتعمير قلعة سينوب(Sinope) ، حتَّى أنَّه في أثناء المسألة الروسية سمع بقدرات الفذة في فنون المدفعية لأحد المارشالات الإنجليز اسمه ريغلاند (Reglan) فسعى بنفسه إلى لقائه، بل وأرسل لأجل ذلك سفينة خاصة لجلبه وبالفعل نجح في جلبه إلى جانبه وأسَّس هناك طاقم مدفعية جديد، فلما سُمِع بنشاطه ومساعيه قُلِّد الوسام الرابع في رتبته، عُيِّن لاحقا بمعية القائد العام "أحمد باشا" في قيادة الجيش. ظل يخوض في حرب قوزلوفا (Gözlova) إلى غاية حلول السلم في المنطقة ما أهله للحصول على نيشان الرتبة الثالثة في الجيش كما تحصل نظير أعماله على سيف ذهبي. بعد ذلك وفي أثناء التغيرات التي طرأت على النظام العسكري في القلعة أي سنة (1275هـ/1858م) وبرتبة لواء عين على رأس الفرقة السابعة.

وفي سنة (1280هـ/1866م) عين برتبة فريق أوّل، بعدها شغل منصب محافظ قلعة بلغراد، وفي سنة (1283هـ/1866م) وبالإضافة صفته كقائد فرقة عسكرية عُيّن في منصب والي ولاية طرابلس الغرب برتبة ناظروزيرومشير.

في الأخير عُيّن واليا على ولاية بورصا ومِن هناك انتقل كمشير إلى المدفعية العام والجيش الثاني، من هذا المنصب عاد ليشغل منصب والي طرابلس الغرب لبضعة شهور، استدعي بعدها ليشغل عضوية منصب مجلس التنظيمات العسكرية وبعد ذلك شغل عضوية مجلس الشورى، بعدها استدعي مرة ثانية ليعين كوالي على مدينة بورصا ولما فرغ من منصبه أتى لاسطنبول وفي نهاية سنة (1293هـ/1876م) أصيب بمرض صدري ألزمه الفراش إلى غاية وفاته، ودُفن بمقبرة السلطان أيوب باتجاه القبلة.

عليه رحمة الله.

الملحق رقم 1: صفحة الواجهة من نسخة كتاب مرأت الجزاير باللغة العثمانية نسخة مكتبة تورنتو

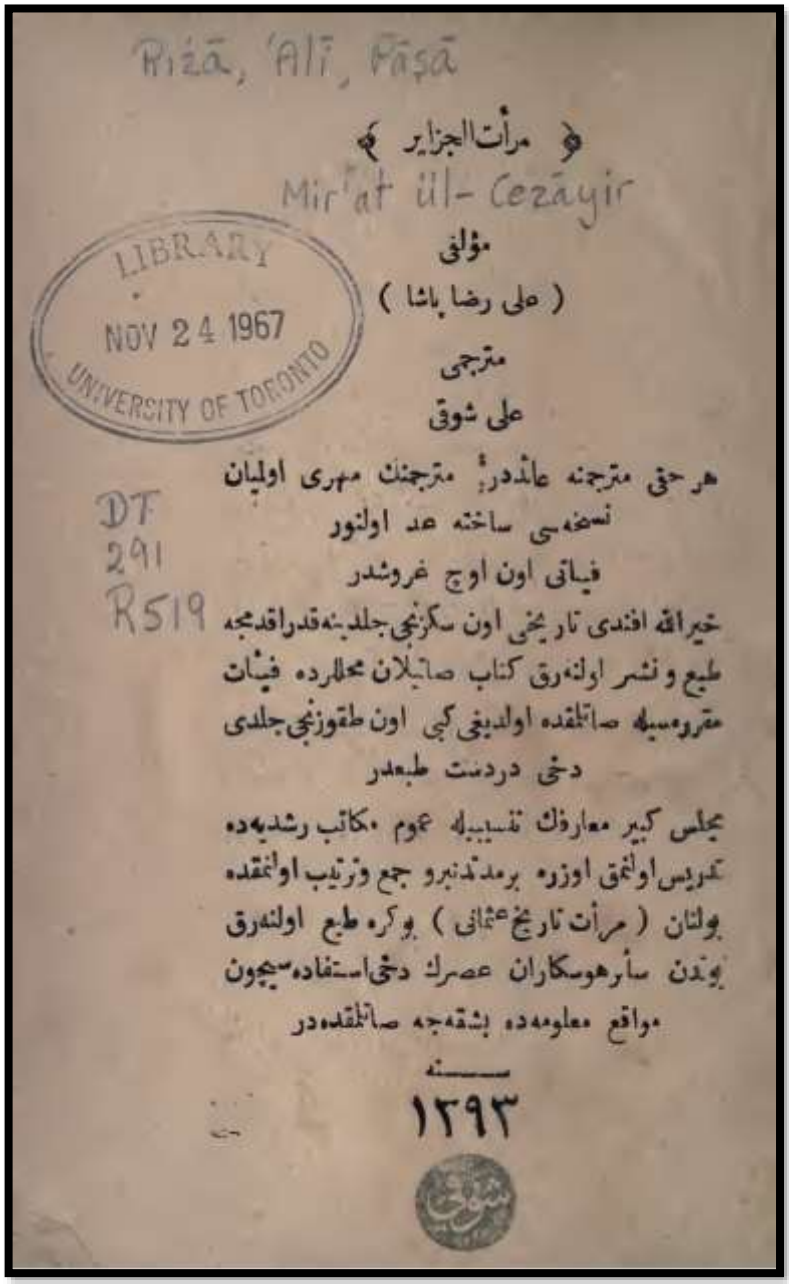

الملحق رقم 2: الصفحة الأخيرة من نسخة كتاب المرآة باللغة العثمانية مكتبة تورنتو

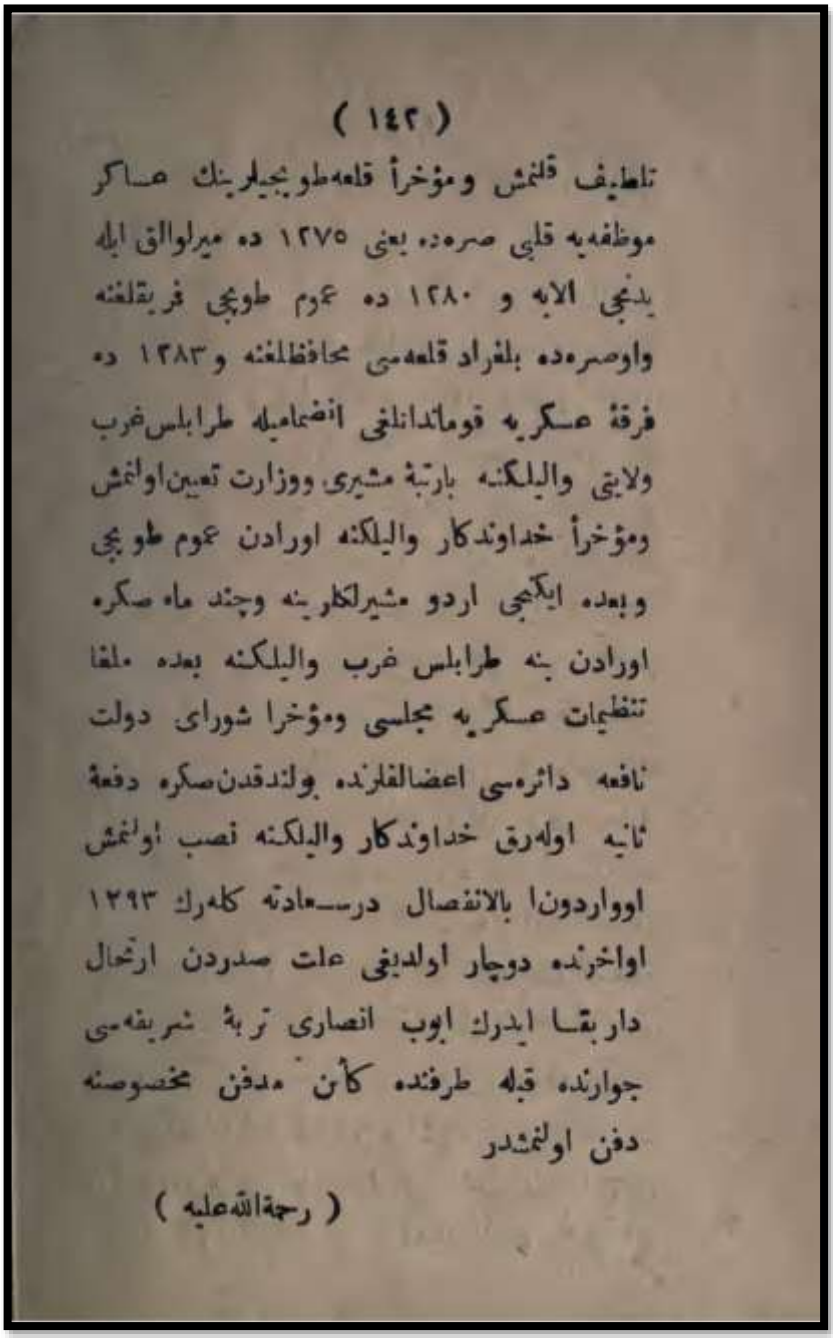

(١٤٢)

تلطيف قلنمش ومؤخراً قلعه‌طوبجيلرينك عساكر
موظفه‌يه قلبي صره‌ده يعني ١٢٧٥ ده ميرلواق ايله
يدنجي الايه و ١٢٨٠ ده عموم طوبجي فريقلغنه
واوصره‌ده بلغراد قلعه‌سي محافظلغنه و ١٢٨٣ ده
فرقهٔ عسكريه قوماندانلغي انضمامايله طرابلس‌غرب
ولايتي واليلكنه بارتبهٔ مشيري ووزارت تعيين اولنمش
ومؤخراً خداوندكار واليلكنه اورادن عموم طوبجي
وبعده ايكنجي اردو مشيرلكلرينه وچند ماه صكره
اورادن يڭه طرابلس غرب واليلكنه بعده ملغا
تنظيمات عسكريه مجلسي ومؤخرا شورای دولت
نافعه دائره‌سي اعضالغلرنده بولندقدن صكره دفعهٔ
ثانيه اوله‌رق خداوندكار واليلكنه نصب اولنمش
اووارديونا بالانفصال درسعادته كله‌رك ١٢٩٣
اواخرنده دوچار اولديغي علت صدردن ارتحال
داربقا ايدرك ايوب انصاری تربهٔ شريفه‌سي
جوارنده قبله طرفنده كائن مدفن مخصوصنه
دفن اولنمشدر

(رحمة‌الله عليه)

الملحق رقم 3: نص مراسلة حسين باشا في الأرشيف العثماني بخصوص الحصار الفرنسي للسواحل الجزائرية

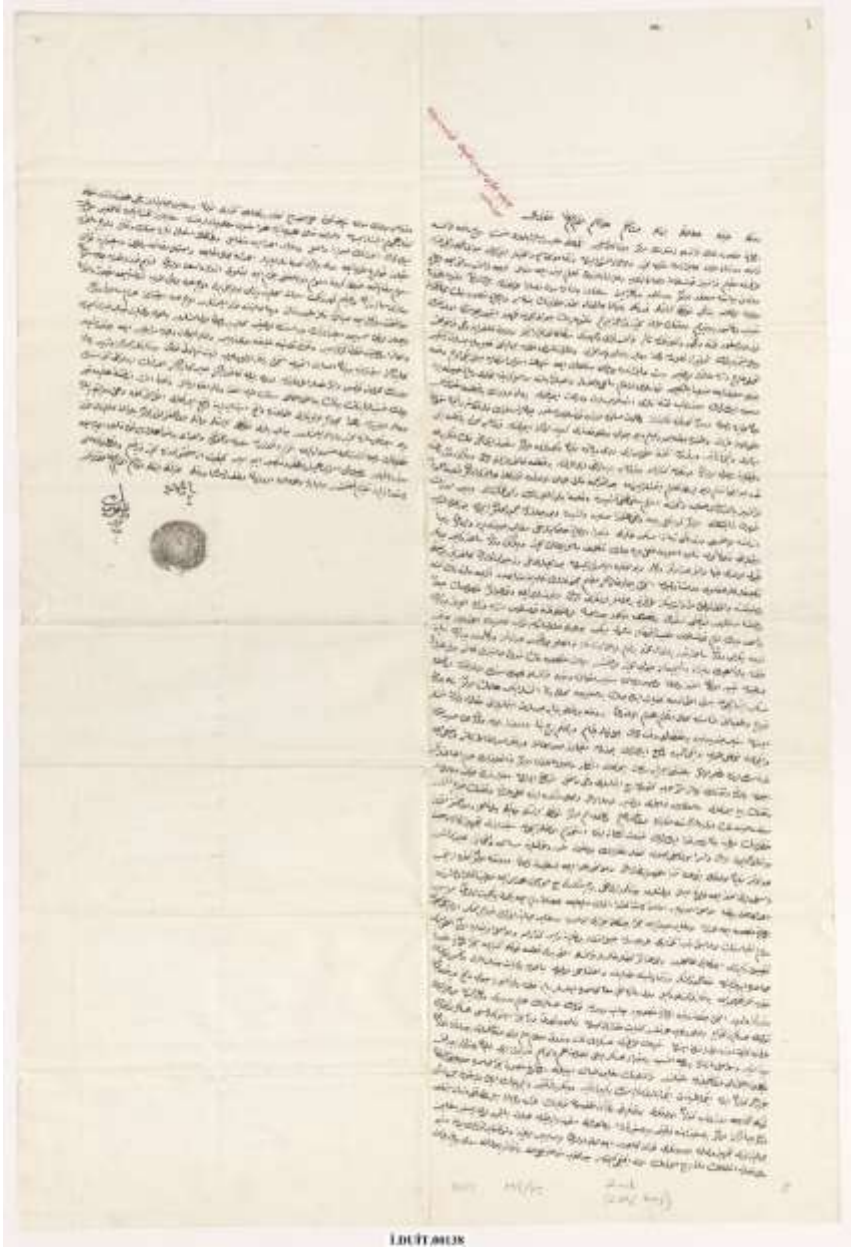

الملحق رقم 4: نص للمعاهدة الأولى لتسليم الجزائر بين الطرف الفرنسي ممثلا في الجنرال بورمون والطرف الجزائري ممثلا في الداي حسين.

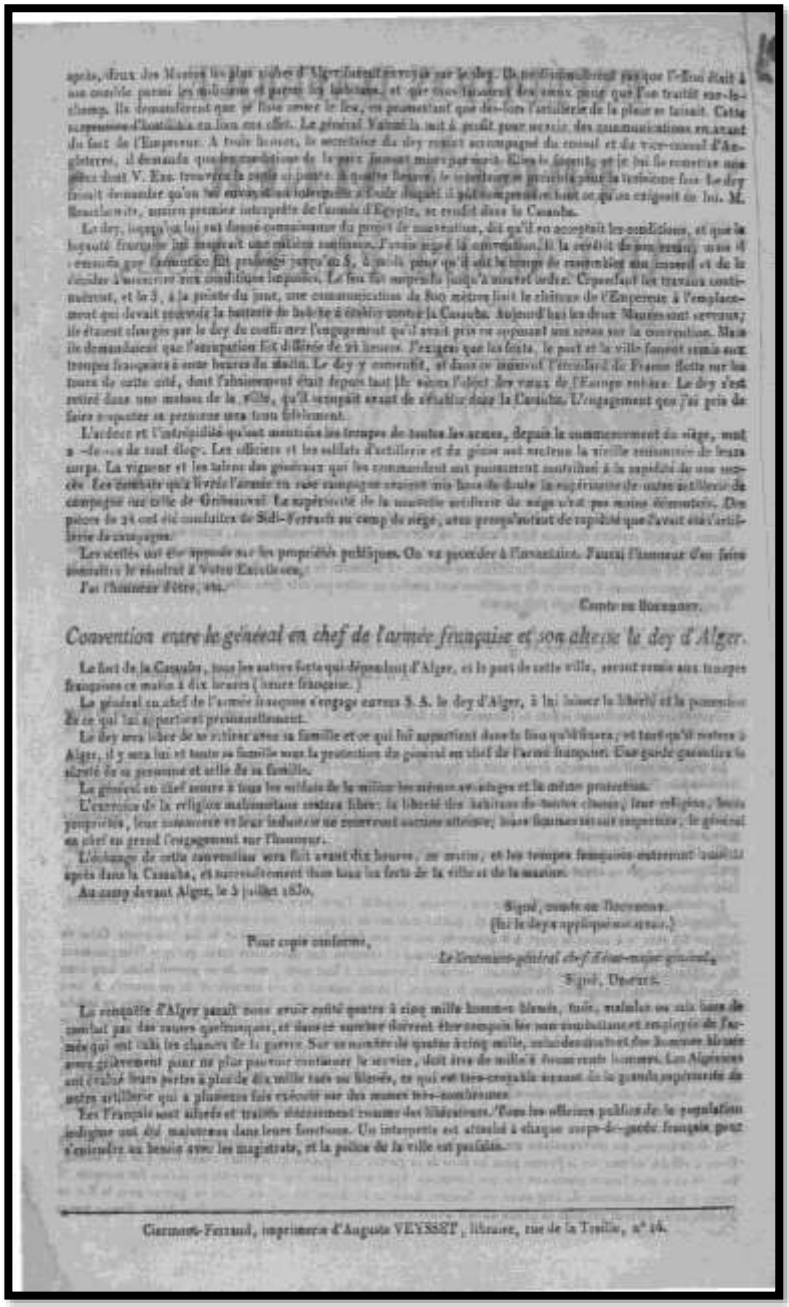

après, deux des Maures les plus riches d'Alger furent envoyés par le dey. Ils prétendirent que l'Etat était à sa merci parmi les habitans et parmi les habitans, et que nos ennemis des deux pays que l'on traitait en-la-champ. Ils demandèrent que je fisse cesser le feu, en promettant que des-lors l'artillerie de la place se tairait. Cette proposition d'hostilités en leur nom était. Le général Valazé la mit à profit pour nouer des communications en avant du fort de l'Empereur. A trois heures, le secrétaire du dey revint accompagné du consul et du vice-consul d'Angleterre, il demanda que les conditions de la paix fussent mises par écrit. Elles le furent, et je lui le remettre une pièce dont V. Exc. trouvera la copie ci-jointe. A quatre heures, le secrétaire revint pour la troisième fois. Le dey faisait demander qu'on lui envoyât un interprète à l'oule disait il pût comprendre tout ce qu'on exigeait de lui. M. Bruchenville, notre premier interprète de l'armée d'Egypte, se rendit dans la Casauba.

Le dey, lorsqu'on lui eut donné connaissance du projet de convention, dit qu'il en acceptait les conditions, et que la loyauté française lui inspirait une entière confiance. J'avais signé la convention à la vérité de ma main; mais il s'aperçut que l'annexe fut prolongé jusqu'au 5, à midi, pour qu'il eût le temps de rassembler son conseil et de la faire à nouveau aux conditions imposées. Le feu fut suspendu jusqu'à nouvel ordre. Cependant les travaux continuèrent, et le 3, à la pointe du jour, une communication de 800 mètres fait le chiteau de l'Empereur à l'emplacement qui devait recevoir la batterie de brèche à établir contre la Casauba. Aujourd'hui les deux Maures sont revenus; ils étaient chargés par le dey de confirmer l'engagement qu'il avait pris en signant une note sur la convention. Mais ils demandaient que l'occupation fût différée de 24 heures. J'exigeai que les forts, le port et la ville fussent remis aux troupes françaises à onze heures du matin. Le dey y consentit, et dans ce moment l'escadre de France flotte sur les tours de cette cité, dont l'abaissement était depuis tant de siècles l'objet des vœux de l'Europe entière. Le dey s'est retiré dans une maison de la ville, qu'il occupait avant de résider dans la Casauba. L'engagement que j'ai pris de faire respecter sa personne sera tenu fidèlement.

L'ardeur et l'intrépidité qu'ont montrées les troupes de toutes les armes, depuis le commencement du siège, sont à -de-ces de tout éloge. Les officiers et les soldats d'artillerie et du génie ont rivalisé la vieille renommée de leurs corps. La vigueur et les talens des généraux qui les commandent ont puissamment contribué à la rapidité de nos succès. Les combats qu'a livrés l'armée en cette campagne avaient mis hors de doute la supériorité de notre artillerie de campagne sur celle de Grivauval. La supériorité de la nouvelle artillerie de siège n'est pas moins démontrée. Des pièces de 24 ont été conduites de Sidi-Ferruch au camp de siège, avec presqu'autant de rapidité que l'avait été l'artillerie de campagne.

Les vœux ont été adressés sur les propriétés publiques. On va procéder à l'inventaire. Faurai l'honneur d'en faire connaître le résultat à Votre Excellence.

J'ai l'honneur d'être, etc.

Comte de Bourmont.

Convention entre le général en chef de l'armée française et son altesse le dey d'Alger.

Le fort de la Casauba, tous les autres forts qui dépendent d'Alger, et le port de cette ville, seront remis aux troupes françaises ce matin à dix heures (heure française.)

Le général en chef de l'armée française s'engage envers S. A. le dey d'Alger, à lui laisser la liberté et la possession de ce qui lui appartient personnellement.

Le dey sera libre de se retirer avec sa famille et ce qui lui appartient dans le lieu qu'il fixera, et tant qu'il restera à Alger, il y sera lui et toute sa famille sous la protection du général en chef de l'armée française. Une garde garantira la sûreté de sa personne et celle de sa famille.

Le général en chef assure à tous les soldats de la milice les mêmes avantages et la même protection.

L'exercice de la religion mahométane restera libre; la liberté des habitans de toutes classes, leur religion, leurs propriétés, leur commerce et leur industrie ne recevront aucune atteinte; leurs femmes seront respectées, le général en chef en prend l'engagement sur l'honneur.

L'échange de cette convention sera fait avant dix heures, ce matin, et les troupes françaises entreront immédiatement après dans la Casauba, et successivement dans tous les forts de la ville et de la marine.

Au camp devant Alger, le 5 juillet 1830.

Signé, comte de Bourmont.

(Et le dey a apposé son sceau.)

Pour copie conforme,

Le lieutenant-général chef d'état-major général,

Signé, Desprez.

La conquête d'Alger paraît nous avoir coûté quatre à cinq mille hommes blessés, tués, malades ou mis hors de combat par des causes quelconques, et dans ce nombre doivent être compris les non-combattans employés de l'armée qui ont subi les chances de la guerre. Sur ce nombre de quatre à cinq mille, mille à douze cents hommes blessés grièvement pour ne plus pouvoir continuer le service, doit être de mille à douze cents hommes. Les Algériens ont éprouvé leurs pertes à plus de dix mille tués ou blessés, ce qui est très-croyable eu égard à la grande supériorité de notre artillerie qui a plusieurs fois exécuté sur des masses très-nombreuses.

Les Français sont arrêtés et traités récemment comme des libérateurs. Tous les officiers publics de la population indigène ont été maintenus dans leurs fonctions. Un interprète est attaché à chaque corps-de-garde français pour s'entendre en besoin avec les magistrats, et la police de la ville est parfaite.

Clermont-Ferrand, imprimerie d'Auguste VEYSSET, libraire, rue de la Treille, n° 14.

الملحق رقم 5 : نص رسالة حسن بن حمدان خوجة أخ صاحب الكتاب إلى والده حمدان بن عثمان خوجة يستفسره عن الأوضاع في اسطنبول وأسباب عزل رشيد باشا السفير العثماني في باريس.

İ.HR.00011

الملحق رقم 6: أول مراسلة أحمد باي للباب العالي

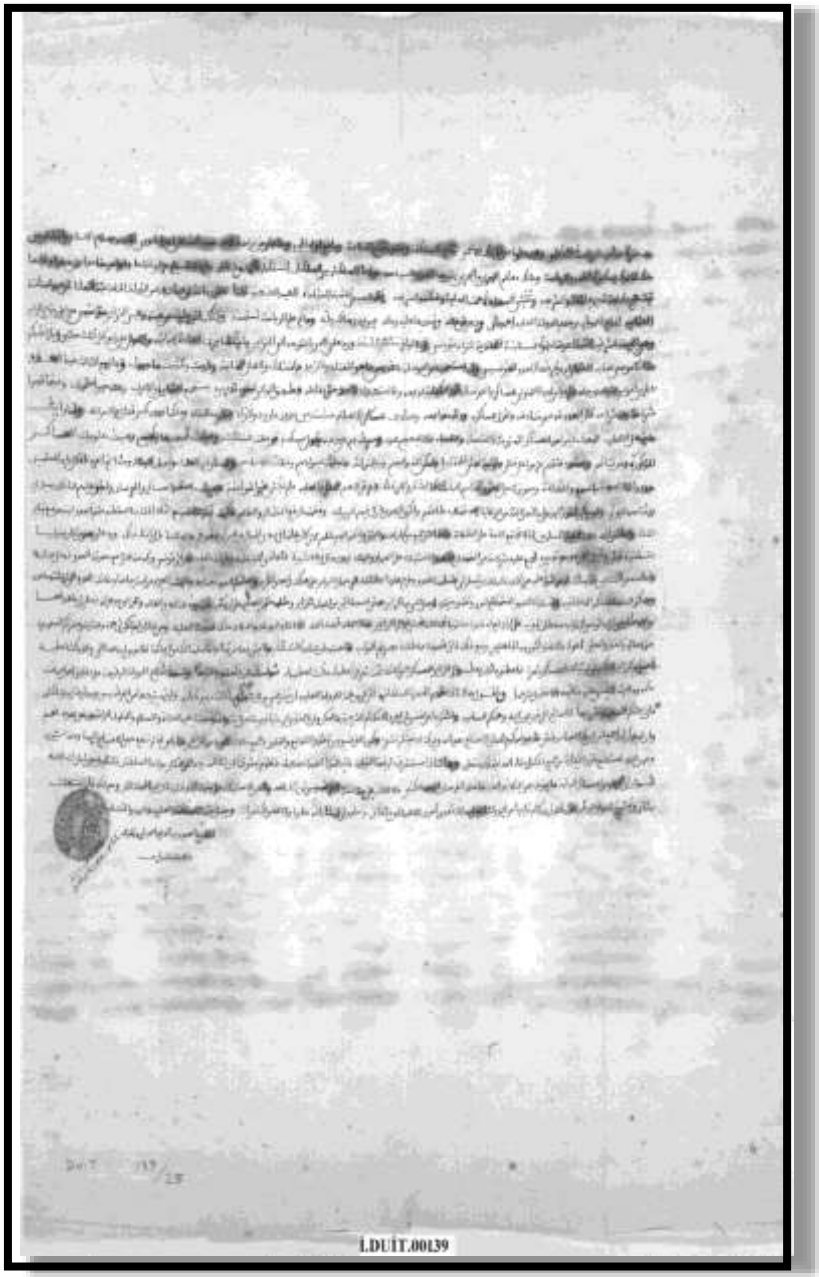

الملحق 7: أول مراسلة من أعيان قسنطينة للباب العالي في شأن تولية الحاج أحمد باي باشا على الجزائر.

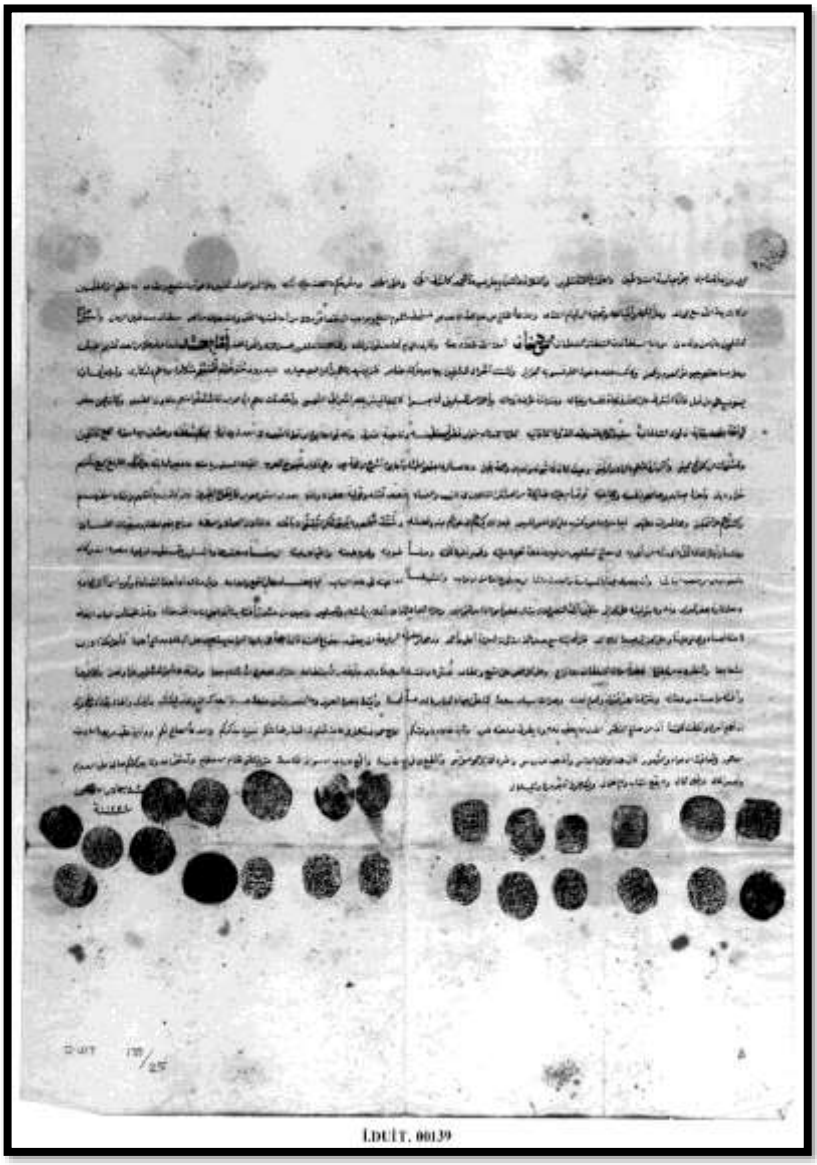

الملحق 8 هرم يؤرخ لسقوط مدينة قسنطينة وموت الجنرال الفرنسي دامريمون سنة 1837م

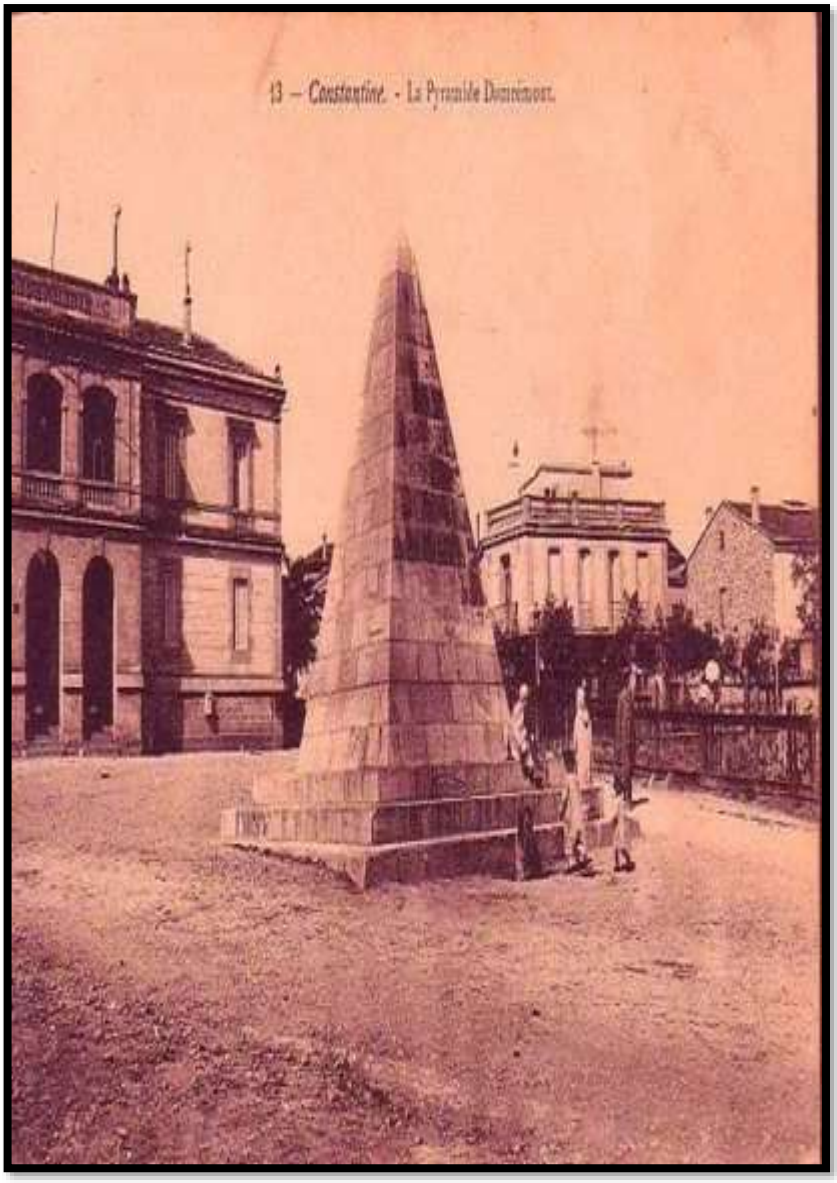

ملحق 9: أول رسالة من أحمد باي للباب العالي بناء على رأي حمدان خوجه

İ.DUİT.00139

ملحق 10:جدارية تؤرخ للحادثة التي ذكرها المؤلف عند حديثه عن سقوط قسنطينة

تقريظ كتاب مرآة الجزائر.....05
تقريظ.....11
مقدمة المترجم.....15
مفتتح الدراسة.....21
المبحث الأول: التعريف بصاحب الكتاب.....22
المبحث الثاني: الكتاب.....33
مقدمة 53
الفصل الأول.....56
الروم الجنويون.....60
الروم البنادقة.....60
الفتح الإسلامي لبلاد المغرب.....61
فتح إسبانيا.....62
المسلمون بعد سقوط غرناطة.....63
أطماع شرلكان في بلاد المغرب.....63
الإخوة بربروس.....64
فتح جيجل.....68
الفصل الثاني: بيان أحوال الجزائر قبل فتح خير الدين باشا لها.....79
الفصل الثالث.....87
الفصل الرابع: الجزائر وخير الدين باشا.....92

الفصل الخامس

شرح تفاصيل الأحداث التي جرت بين الجزائر والفرنسيس وسبب الأزمة الموقف الذي اتخذته حكومة إيالة الجزائر من إعلان الفرنسيس الحرب عليها تفاصيل حول حياة آخر ديات الجزائر "حسين باشا".....96

الفصل السادس

إغراق فرنسا للسُّفن الجزائرية.....106

الفصل السابع: هجوم عساكر الجيش الفرنسي برا على مدينة الجزائر، شرح المواجهات على قلعة الإسبان أو برج "مولاي حسن".....111

الفصل الثامن

تسليم الباشا مدينة الجزائر للفرنسيين

شرح دخول عساكر فرنسا منتصرين إلى مدينة الجزائر.....117

الفصل التاسع

ذكر نكث الفرنسيس لشروط الصلح بعد الاستلاء على المدينة.....121

الفصل العاشر

بيان إصرار الأهالي على طاعة الدولة العلية وطلب الحماية منها.....128

الفصل الحادي عشر

جمع الأسلحة من أهالي الجزائر، نفي مجموعات الترك وإرسال حسين باشا إلى إيطاليا.....132

الفصل الثاني عشر

ذكر إرسال الجنرال روفيقو لوالدي حمدان أفندي للقاء الحاج أحمد باي حاكم قسنطينة من أجل الصلح.....135

الفصل الثالث عشر

ذكر انهزام الجيش الفرنسي المقيم في عنابة في حملته ضد سنجق قسنطينة.....148

الفصل الرابع عشر

فصل في بيان تجهيز الجيش الفرنسي من جديد ووضع يده على قسنطينة.....150

الفصل الخامس عشر

بيان ظهور الشيخ المشهور عبد القادر وذكر حروب الحاج أحمد باي مع الفرنسيس.....153

الفصل السادس عشر

ذكر بعض حروب الشيخ "عبد القادر" مع الفرنسيس وبيان صورة تسليم نفسه في الأخير.....158

الفصل السابع عشر

باشوات الجزائر.....163

الفصل الثامن عشر

ترجمة حياة الكاتب علي رضا باشا.....169

الملحق رقم 1: صفحة الواجهة من نسخة كتاب مرأت الجزاير باللغة العثمانية نسخة مكتبة تورنتو.....171

الملحق رقم 2: الصفحة الأخيرة من نسخة كتاب المرآة باللغة العثمانية مكتبة تورنتو 172

الملحق رقم 3: نص مراسلة حسين باشا في الأرشيف العثماني بخصوص الحصار الفرنسي للسواحل الجزائرية.....173

الملحق رقم 4: نص للمعاهدة الأولى لتسليم الجزائر بين الطرف الفرنسي ممثلا في الجنرال بورمون والطرف الجزائري ممثلا في الداي حسين.....174

الملحق رقم 5 : نص رسالة حسن بن حمدان خوجة أخ صاحب الكتاب إلى والده حمدان بن عثمان خوجة يستفسره عن الأوضاع في اسطنبول وأسباب عزل رشيد باشا السفير العثماني في باريس.....175

الملحق رقم 6: أول مراسلة أحمد باي للباب العالي 176

الملحق 7: أول مراسلة من أعيان قسنطينة للباب العالي في شأن تولية الحاج أحمد باي باشا على الجزائر.....177

الملحق 8 هرم يؤرخ لسقوط مدينة قسنطينة وموت الجنرال الفرنسي دامريمون سنة 1837م.....178

الملحق 9: أول رسالة من أحمد باي للباب العالي بناء على رأي حمدان خوجه.....179

الملحق 10: جدارية تؤرخ للحادثة التي ذكرها المؤلف عند حديثه عن سقوط قسنطينة.....180